أنواع القلوب
ورفع حجب الذنوب

الـــكـــتـــاب: أنواع القلوب ورفع حجب الذنوب

تـــألـــيـــف: الشيخ عارف هنديجاني فرد

نـــشـــر: جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد - لبنان

الـطـبـعـة الأولـى: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

جميع حقوق الطبع محفوظة

أنواع القلوب
ورفع حجب الذنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قال سبحانه: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

إلى سيد الأقمار قمر بني هاشم العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال في حقّه سيّد الساجدين الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إنّ للعبّاس عند الله تبارك وتعالى لمنزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة**».

إلى مظهر العشق والإيثار، ومثال الرجولة والصفاء والوقار، ورمز الشجاعة والشهامة والكرامة إلى صاحب المنزلة الرفيعة، والمكانة السامقة.

إلى أبي الفضل السقّاء، ساقي الجيش والأطفال، حامل لواء الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء إلى من قدَّم للحسين جواده.

إلى صاحب الإيثار، والبصيرة النافذة، والثبات على الإيمان، والجهاد العظيم، والبلاء الحسن، والمنزلة التي يُغبَط عليها يوم القيامة.

إلى من آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قُطعت يداه، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة.

إلى من قال:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

إليه، وإلى الذين سلكوا طريق ذات الشوكة وكتبوا بجهادهم حروف النور إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع، راجياً من الله تعالى القبول، ومن النبي وآله عليهم الصلاة والسلام ومن العباس الشفاعة والفوز بالجنَّة، اللّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

عارف هنديجاني فرد

مقدّمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إنّ الحديث عن القلب في القرآن كان ولا يزال موضع تباحث بين العلماء والمفسرين للقرآن الكريم، وقد أسهب العلماء في شرح مفردات القلب ذاهبين في ذلك مذاهب شتّى، بين قائل بأنّ القلب هو العقل، وقائل بأنه الروح، إلى غير ذلك ممّا عبّروا عنه بوحدة النفس الإنسانية، ولعلّ هذا التباين فيما ذهب إليه العلماء من تفسير ناشئ من كون القرآن قد ركّز على القلب بما له من آثار وخواص تجتمع فيه وتصدر عنه كالشعور والإرادة، والحب والبغض، والرجاء والخوف، وغيرها ممّا ينطوي عليه الإنسان من إحساسات وجدانية، وخواص روحية، باعتبار أن القلب بعناية، كما يرى العلاّمة الطباطبائي قَدَّسَ سِرَّهُ، هو أوّل متعلّق الروح، فإذا كانت أفعال الأعضاء مختلفة ومتباينة، فما ذلك إلاّ دليل على وحدة الأصل الذي ترجع إليه هذه الأفعال، لما أثبتته البحوث العلمية، وتباينت في البحث فيه، لجهة تشخيص المصدر الذي تصدر عنه الأحكام البدنية التي يمثلها الأعضاء الفعّالة في البدن الإنساني، إذ لا ريب أنها في عين التشتت والتفرق من حيث أنفسها وأفعالها مجتمعة تحت لواء واحد منقادة لأمير واحد، وحدة حقيقية....

لقد بيّن القرآن الكريم في كثير من الآيات، وفي زمن لم يكن فيه أي معنى للقلب بما هو حقيقة مادية، أن القلب المعنوي هو أساس الحقيقة الإيمانية، وقد

ظهّر القرآن هذا المعنى للتأكيد على الفطرة الإنسانية بكل ما تختزنه هذه الفطرة من توحيد وإيمان، وهذا ما تكفّلت النبوّة بتبيانه على نحو يستفاد منه إثارة العقول الإنسانية باتجاه خالقها، لأنَّ العقل المطبوع الذي تشير إليه الروايات الإسلامية، ليس هو إلاّ تلك الفطرة التي أراد الله تعالى لها أن تتعزّز بالعقل المسموع كما روي عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حيث قال عليه السلام:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

أنه لا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموعاً، تماماً كما لا ينفع ضوء الشمس إذا كان ضوء العين ممنوعاً. فالمطبوع هو هذا القلب، أو هو تلك الروح التي أفردها القرآن بالذكر الكثير، وأعطاها التمايز لجهة التأكيد عليها في تحقق الإيمان، وهذا ما يفسّر لنا الاهتمام القرآني بالقلب في زمن لم يدرك فيه الناس معنى القلب إلاّ بما هو حقيقة مادية صنوبرية يحتوي عليها جسم الإنسان.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن احتواء القرآن على عشرات الآيات المباركة، ما هو إلاّ دليل على ترشيد الإنسان إلى هذه الحقيقة واستيعاب مفرداتها في سياق رؤية معنوية للقلب تأخذ بالإنسان إلى التفكير فيما تنطوي عليه هذه الآيات المباركة من معانٍ وأدلة على كون العقل، أو القلب، هو ذلك المعنى الكامن في النفس الإنسانية، والذي جعله الله تعالى ملاكاً للتحقق الإيماني، سواء على مستوى العقيدة أم على مستوى العمل، ولا شكّ في أنّ هذا المبحث هادف إلى تبيان معنى التحقق الإيماني من خلال القلب والرؤية القلبية، حيث إن القرآن أفرد الكثير من الآيات التي تميّز بين البصر والبصيرة، إذ هو ـ أي القرآن ـ لم يجعل البصر سبيلاً إلى التحقق، باعتباره أداة يفعل بها القلب تماماً كسائر الأدوات التي جعل الله تعالى فيها مبادئ

لفعل العقل يختص بها كالدماغ للفكر، والعين للإبصار، والسمع للوعي والرئة للتنفس ونحو ذلك، فإنها جميعاً بمنزلة الأدوات التي يفعل بها الأفعال المحتاجة إلى توسيط الآلة... ومن هنا نرى أمير المؤمنين يشير إلى أنّ الإنسان لم يدرِك الله تعالى بمشاهدة الأبصار، وإنما أدركه بحقائق الإيمان التي ينطوي عليها القلب، وتهديه إلى سبل الله تعالى للتعرّف على صفاته وأفعاله.

وهكذا، فإنّ معنى أن نسلك هذا المسلك، أن تكون لنا تعبيرات جديدة في مجال الرؤية القرآنية، لأنّ هذه الرؤية مشتملة حتماً على رؤية قلبية متميّزة تخرج القلب عن كونه مجرّد معنى مادي، ليكون له معنى الرؤية القلبية التي يهتدي بها الإنسان إلى مشاهدة الآثار، والاعتبار بها، إذ كثيراً ما يكون البصر سليماً ولا يكون الإنسان مبصراً، وكذلك سائر الحواس التي يمكن أن تكون على سلامة في فعلها، ولكنها في كثير من الأحيان لا تكون معتبرة، أو كاشفة عن الحقيقية الإيمانية التي أمر الله تعالى بتجليتها من خلال الرؤية القلبية....

إنّ ما نروم بحثه في هذا الكتاب ليس هادفاً إلى استخلاص الآراء وحسب، وإنما نهدف إلى تبيان حقيقة الموت القلبي في سياق الآيات القرآنية، لأنّ هذه الآيات القرآنية، كما نعلم، جاءت في سياقات مختلفة، ولا بدّ أن تكون لها دلالات وتأويلات مختلفة أيضاً، باعتبار أن وصف القلوب بالمرض، هو غير وصفها بالزيغ والإقفال، ووصفها بالتقى والاطمئنان والهدى والسلامة، هو غير وصفها بالموت والقسوة، والكفر والنفاق والإثم....

لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الأوصاف القرآنية للقلوب، وهذا ما أردنا التوقف عنده والبحث فيه، مقسّمين مبحثنا هذا إلى بابين، وكل باب مقسّم إلى عدّة فصول نتحدّث فيها عن معنى القلب والعقل والروح، وعلاقة كل منها بالآخر، لاستكشاف حقيقة الموقف القرآني منها، ذلك أن طبيعة البحث، بحسب منهجنا الموضوعي، تفترض علينا ملاحظة حقيقة الفروق بين هذه المفردات التي

ركّز عليها القرآن في مئات الآيات القرآنية، وقد سبق لكثير من العلماء والمفسرين المسلمين أن قدّموا البحوث الكثيرة، ذاهبين مذاهب شتّى في التأويل والتفسير، ولا زالت البحوث تتوالى على نحو يستفاد منه أن تلكم البحوث لا تزال قاصرة عن نيل مطلوبها، خاصة في عصر تطوّر فيه الإنسان، واجتذبته العلوم العصرية بما غلب عليها من معارف حيّة وعقلية، هذا فضلاً عمّا أدّت إليه المعارف الحديثة من مجاهيل على مستوى المفاهيم والمصطلحات والمرجعيّات المختلفة لها.

إنّ مبحثنا هذا ليس مجرّد دراسة نظرية، وإنّما هو هادف إلى تبيان حقيقة الموقف القرآني من دور القلب والعقل والروح في مجال المعرفة الإنسانية، لأنّ القرآن فيما عرض له من مفاهيم، هو هادف إلى تحقيق الإنسان بالمعرفة، على اعتبار أنه كتاب هداية وتغيير كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ...﴾[1]، كما أنه فيما عرض له في مجال القلب والعقل والروح والنفس، وفيما أطلقه من أوصاف على القلوب، إنما هدف إلى توضيح حقيقة العلاقة بين الإنسان ـ في قلبه وعقله وروحه ـ مع الواقع الذي يتفاعل معه، وبما أن القرآن لا يستثني التجربة الإنسانية، ويريد للإنسان أن يكون على تفاعل مع واقعه، ومع ما يحيط به من عالم مليء بالظواهر والأحداث، فهذا كلّه يؤكّد مدى اهتمام القرآن بالقلب والروح والنفس والعقل لجهة كون هذه الحقائق ذات علاقة بعملية التغيير وأهدافها....

لقد أوضح القرآن الكريم أن القلب الميت، أو القلب المريض، وكذلك كل قلب لا يعقل عن الله تعالى، وغير ذلك مما وصف به الإنسان من عمى وصمم وبكم، هو إنما أراد أن يكشف عن انعكاسات هذه الأوصاف في التحققات الخارجية للإنسان، إذ لا يقتصر المرض في القلوب والصدور، وانفلات الشهوات والرغبات على داخل الإنسان فقط، بل لذلك انعكاسه في الحياة الإنسانية، وخصوصاً بعد

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

أن فشل الإنسان في صياغة الأحداث والتجارب وفق حسّه وعقله[1]، فكان لا بدّ كما بيَّن فلاسفة المسلمين، أن يهدي الله تعالى الإنسان إلى حياة القلب والعقل والروح لتتجلّى في واقع الحياة، ويكون لها دورها الفعّال في صياغة الرؤية والموقف، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾[2]، وليست الحيلولة هنا سوى تأكيد على معنى علم الله تعالى وقدرته وحاكميته، وقبل ذلك على وعي الإنسان بما هو محكوم له من قدرة إلهية وحكمة إلهية، باعتبار أن الله تعالى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ويكفي تدليلاً على ذلك أن يعلم الإنسان بمن يحول بينه وبين قلبه، قبل علمه بذاته... وهذا هو الحق فيما تنطوي عليه الآيات من توحيد وعقيدة حقّة في أن الأمور بيد الله تعالى. لذا، فإنّ ما نرومه في بحوث هذا الكتاب، هو تبيان حقيقة ما يرمي إليه القرآن من إطلاق مفردات كثيرة ومختلفة حول العقل والقلب والروح والنفس والصدر، لأنّ أكثر المفسرين قد اعتبروا ذلك مجرّد ترادف في الألفاظ، وهناك من قال بالفروق بينها لا من حيث أصلها، وإنما من حيث كمالاتها وتحققاتها، إضافة إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من خلط بين الروح والنفس، وبين القلب والفؤاد والصدر، هذا فضلاً عن اختلاف العلماء والمفسرين في تبيان أنواع القلوب في القرآن، فهل هو قلب واحد تتعدّد أمراضه وأعراضه، أو أنّ هناك أوصافاً للقلوب تختلف باختلاف التحولات والتبدلات بعد أن ذهب أهل اللغة إلى تعريف القلب بأنه التحويل والتقليب والانقلاب، فضلاً عن كونه مركزاً في جسم الإنسان وروحه؛ وهذا ما عرضنا له في مبحث اللغة والاصطلاح، حيث تبيّن لنا

(١) إنّ الحسّ والعقل عاجزان عن تعيين منهج دقيق للحياة بحيث يؤمنان للإنسان سعادته وكماله الأخرويين الأبديين، فاقتضت الحكمة الإلهية أن توضع تحت تصرّف الإنسان المعارف اللازمة لذلك... وليس هذا إلاّ طريق الوحي والنبوّة....

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

بالارتكاز إلى ما آلت إليه البحوث الإسلامية، أن كل مفردة من مفردات القرآن تنقسم إلى معنيين اثنين، أحدهما يتعلق بالبعد المادي للإنسان، والآخر يتعلق بالبعد الروحي والربّاني، نظراً لكون الروح من أمر الله تعالى، وهي ذات تعلّق ربّاني، وتشكّل حقيقة الإنسان وذاته، وهي العالمة المدركة المثابة والمعاقبة، وقد أجمع علماء المسلمين على أنه حيث ذكر القلب في القرآن والسنّة، يكون ذلك الشيء الذي يفقه في الإنسان ويعلم بحقائق الأشياء...

ثمّ إنّ ما نودّ الإشارة إليه في هذه الدراسة أيضاً، هو تبيان حقيقة العلاقة بين القلب والصدر، وبين القلب والعقل، وبين القلب والفؤاد والصدر، وهذه كلها مفردات لا نرى أنها مترادفة على نحو ما ذهب بعض العلماء في بحوثهم، كما فعل العلاّمة اليزدي في معارف القرآن، مشيراً إلى أنه لا معنى لهذا الأمر في الدراسات التفسيرية للقرآن، ملمّحاً إلى أن ذلك قد يأتي به القرآن من باب الفصاحة والبلاغة؛ ممثلاً على ذلك بما يترادف مع كلمة الإنسان في القرآن، وهذا ما سيكون موضع تأمّل وتدبّر. ولعلّ العلاّمة يكون موفقاً فيما خطه من بيان لتوضيح حقيقة العلاقة بين هذه المفردات لكونها تشكّل تعبيراً حيّاً عن حالات الإنسان ومكنوناته، وإذا كان لنا ثمّة رأي، فإنّنا سنعرض له في متون هذه الدراسة، علّنا نوفّق إلى مزيد من الرؤية، وبالله التوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

مسوّغات البحث

رأينا في تقديمنا لهذا المبحث أن آيات القلب في القرآن نزلت في زمن لم يكن فيه الإنسان منشغلاً بالقلب بما هو تعبير مادي موجود في القفص الصدري، وإنّما كان مفهوماً لدى الإنسان في زمن البعثة، وحيث نزل الوحي الإلهي، أن القلب هو الحالة المعنوية التي جاء الوحي لإثارتها، باعتبار أن القرآن حينما خاطب العرب بالقلب ودعاهم إلى الإيمان، أراد أن يدلّل على أن القلب هو مبدأ الأفعال ومرتكز حالات الإنسان فيما يكون منه من إيمان وكفر، وحب وبغض، وشعور وإدراك، ووعي واطمئنان، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]. ويكفي أن نشير في هذا السياق، تسويغاً لبحثنا، إلى أن البحوث والدراسات التي تميّز بين المعرفة الحسّية والمعرفة العقلية، هي إنما تلحظ هذا الجانب في التمييز بين أن يكون الحس مقياساً للمعرفة، أو أن يكون العقل والقلب هو المقياس الحقيقي لها، ولهذا نجد أن أكثر البحوث العلمية قد أخفقت في توضيح هذا المطلب، إذ وقع الكثير منها في مصيدة الحس، ولم تُعِر اهتماماً إلى المعرفة القلبية بما هي أساس للكشف والشهود.

إنّ المسوّغ الحقيقي لهذا البحث، هو ملاحظة مصادر المعرفة التي عرض لها القرآن الكريم، باعتبار أنه كتاب سماوي هادف إلى تبيان حقيقة الرؤية الإنسانية الجامعة فيما يتعلق بمصادر المعرفة الإنسانية، فهو لم يفرد القلب بهذه المعرفة،

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

وإنما أعطى الرؤية الإنسانية كل أبعادها الحقيقية لجهة التأكيد على أن الإنسان المؤمن لا تتكامل رؤيته الإنسانية إلاّ من خلال البراهين والأدلة التي من شأن التوفر عليها التأسيس لرؤية جامعة مستندة إلى العقل والقلب معاً، وهذا ما يمكن لحاظه من آيات القرآن الكريم، حيث نجد أنّ مئات الآيات تدعو إلى التدبّر والوعي والتحقق بالتجربة في ضوء التحولات الإنسانية.

وهنا تكمن أهمية هذا المبحث في أنواع القلوب في القرآن، ذلك أن طبيعة البحث تتطلّب أن يكون الباحث مستلهماً للأسس التي تبتني عليها المعرفة الإنسانية من خلال القرآن الكريم، حيث نجد أن القرآن قبل أن يدعو إلى المعرفة الواقعية، يرشد الإنسان إلى حقيقة ما كان عليه من ظلام وموت في قلبه وعقله قبل أن يُجعل له نورٌ يمشي به في الناس، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾[1]. فالظلمات هنا كانت ـ كما تظهر الآية ـ في الحسّ والمعرفة والعقل والقلب، فجاء الوحي والنبوة لإحياء الإنسان في نفسه وروحه لتكون له رؤية جديدة، وتجربة جديدة تخرجه عن كونه إنساناً حسيّاً ليكون إنسانياً قلبياً عاقلاً ذا لبّ فيما يقوم به ويؤدّيه في النظر والعمل معاً. ولهذا نجد القرآن الكريم يؤسس لمعرفة تقوم على مصادر وسبل تهيّئ للإنسان تحققات جديدة في العلم والعمل، ولا شكّ في أن هذه المصادر فيما لو استند إليها الإنسان، لا بدّ أن تؤدّي به إلى التكامل المعرفي من خلال قلبه المطمئن، وليس من خلال حواسه ومجموع أفعاله التي سبق له أن تحقق بها، ولكنها لم تؤدِّ به إلاّ إلى مزيد من الظلام والجاهلية...؟!

إنّ من جملة المسائل التي تسوّغ لنا البحث في مجال الرؤية القلبية، هو ما اعتاده الباحثون من استغراق في تشتيت مصادر المعرفة التي يعرض لها القرآن الكريم،

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

فهو رغم كل ما انطوى عليه من آيات في مجال الرؤية القلبية على اختلاف أنواعها، نجده يؤسس في آيات أخرى لدور الحس والعقل والوحي والكشف، وغير ذلك مما يُظهر جامعية لهذه المصادر في تحقيق المعرفة، هذا فضلاً عما أسس له في مجال التحقق التاريخي، وهذا ما ينبغي على الباحث تلمّسه في تناول الجوانب المعرفية في القرآن، لأنه الكتاب السماوي الموحي به في ضوء معرفة كاملة وتامة في شأنيّة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ليكون على أحسن رؤية علمية تهديه إلى الكمال في طريق كدحه إلى الله تعالى.

كما أن القرآن في ما عرض له من رؤية ومصادر معرفية، يكشف لمن كان له قلب أن مرتكز كل تحوّل، ومبدأ كل تحقّق، هو كامن في ذات الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾[1].

ومن هنا تتأتّى لنا ضرورة إحياء الرؤية القلبية لكونها المخاطب الأساسي في عملية التغيير في النفس والواقع معاً، وهذا ما يمكن الاهتداء إليه من خلال مئات الآيات القرآنية التي تعرض لحالات القلوب وصفاتها، وتمايزاتها فيما تكون عليه من موت ومرض وسلامة، وقد رأينا كيف أن الباحثين في العلوم القرآنية قد أخطأوا الهدف في كثير من بحوثهم في تناول حالات القلوب، بين قائل بأنّ الحسّ والتجربة هما مصدر حياة القلوب، وقائل بأن الوحي هو مصدر الحياة لها. والحق يقال: إنّه لا مسوّغ لهذا الاختلاف طالما عرفنا أن القرآن يؤسس لرؤية معرفيّة كاملة مستندة إلى الرؤية القلبية فيما تتحقق به هذه الرؤية من خلال إثارتها بالوحي والعقل معاً، ويبقى على هذه القلوب أن تستجيب لهذه الإثارة الهادية إلى سبل الكمال، وقد بيّن القرآن هذه الحقيقة، مميزاً بين القلوب في ضوء استجابتها، ولعل ما عرض له القرآن من اختلاف وتباين في أوصاف القلوب وأنواعها، ناشئ من كون هذه القلوب

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

في تاريخ الإنسانية قد تراوح أمرها بين أن تكون قلوب ميتة أعرضت عن أمر ربها، وقلوب حيّة وسليمة استجابت لهذا الأمر، وهناك قلوب أخرى تراوح أمرها أن تكون مريضة قلقة مضطربة فيما يؤول إليه أمرها من تحولات، وهذا ما أشارت إليه الآيات القرآنية واصفة القلوب بالمرض تارةً، وبالكفر والنفاق تارةً أخرى.

نعم، هناك الكثير من المسوّغات التي تحفّزنا لتناول أنواع القلوب في القرآن بالبحث والتدبّر، وقد رأينا أن نعرض لأنواع القلوب لا بحسب أوصافها ومسمياتها في القرآن، وإنما بحسب جامعية الآيات لها، مفردي القلب السليم لبحث خاص، خلافاً لما اختاره كثير من الباحثين فيما اعتمدوه من تقسيمات من خلال ما تعطيه كل آية قرآنية من وصف.

فإذا كانت الآيات قد وصفت القلب بالمرض، أو بالقسوة، أو بالضلال، أو بالزيغ، فذلك ليس من شأنه أن يحدث التمايز في أوصاف القلوب، بل هو قلب واحد، هو القلب المريض. وإذا كانت الآيات قد وصفت القلب بأنه المهتدي، والمطمئن، والمنيب، والوجل، والتقي، والحي. فهذا القلب هو الموصوف بأنه القلب السليم في القرآن، وكذلك ما جاء من آيات واصفة للقلب بأنه المنكِر، والمتكبّر، والمطبوع عليه، والمقفل إلى غير ذلك، فهذا القلب هو القلب الميت، وهذا ما عزمنا على البحث فيه لاستخلاص النتائج المرجوّة من بحثنا، وما توفيقي إلاّ بالله.

إشكالية البحث

درجنا في بحوثنا السابقة على أن نصدّر كل بحث قرآني بالإشارة إلى المسوّغات وإشكالية البحث والمنهج على اعتبار أن هذه المقدمات هي مما يحتاج إليه الباحث لتظهير رؤيته على النحو الذي يؤدّي إلى توضيح المطالب، وتحقيق الغايات. وبما أنّ إشكالية البحث هي الأساس في كل بحث، فقد اخترنا، بحسب ما درجنا عليه، أن يكون طرح الإشكالية المثارة في ضوء ما انتهت إليه البحوث والدراسات في مجال الرؤية القلبية في القرآن الكريم، إضافة إلى منهج البحث الذي كان ولا يزال يشكّل الأساس والقاعدة لكل مبحث علمي، وطالما أن دراستنا هذه تتناول أنواع القلوب، فحريّ بنا أن نعرض لما نراه مجالاً لإشكالية بحثية، فنقول: إنّ ما عرض له القرآن من أنواع وأوصاف للقلوب، وفي سياقات متعددة لا يمكن لحاظه إلاّ في سياق رؤية موضوعية شاملة للآيات تأخذ بعين الاعتبار معنى أن يكون القلب مكاناً لحقائق الإيمان، ومعنى أن يكون القلب عقلاً، وبصيرة، وفؤاداً، إلى غير ذلك مما عرض له القرآن من مفردات وأوصاف يتمايز القلب من خلالها في إطار وحدة حقيقية أشار إليها العلماء وأهل التفسير تحت عنوان إمارة القلب وحاكميته، لا بما هو جزء من الإنسان، وإنما بما هو روح الإنسان ونفسه التي خاطبها الوحي، وجعلها أهلاً للخطاب، وموضوعاً للاهتمام والتدبّر، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1].

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن إشكالية البحث هنا لا تقتصر على طرح التساؤلات حول القلب والعقل، وإنما تتجاوز ذلك إلى مناقشة جملة الآراء والتأويلات التي ذهب إليها العلماء بخصوص القلب ومكانته في تجلّي حقائق الإيمان، فضلاً عمّا ذهبوا إليه في مجال الرؤية القلبية من حيث كون هذه الرؤية تشكّل مصدراً للمعرفة عند المؤمنين، ومجالاً للإضلال والزيغ والكفر والنفاق عند الكافرين والمنافقين، باعتبار أن القلب هو موضوع الخطاب، ومجال التدبّر والمعرفة، وأن مَن يأتي الله تعالى، سواء في الدنيا أم في الآخرة، يأتيه بهذا القلب بما هو روح الإنسان وحقيقته التي في ضوئها يُثاب الإنسان ويُعاقب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

إنّ حقيقة المناقشة للآراء، وكذلك حقيقة الإشكالية تكمن هنا، أنّ الإنسان يتمايز عن سواه بالرؤية القلبية الشاهدة على تحولات الإنسان وتقلباته من حال إلى حال، وكما سنرى لاحقاً، أن القلب إنّما سمّي قلباً لتقلبه، وهذا يعني، فيما يعنيه، أن القلب بما هو رؤية قلبية ـ معنوية، يختلف عمّا يعنيه العقل من تفكّر وفهم ومعرفة، إذ يوجد عموم وخصوص بين اللفظين، فهما يشتركان من الناحية الفكرية، ولكن يبقى القلب مختصاً بالناحية الوجدانية. ومن هنا، فإنّنا لا نستطيع أن نؤيّد الرأي القائل بأنّ القلب هو العقل مستقلاً، وإلاّ لصحّ القول بأن العقل هو القلب، وذلك نظراً لكون القلب يبقى له التمايز في ما يتعلق بالمشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية، وهذا ما لا ينطبق على العقل. فالإشكال كامن هنا في ضوء تعلق الخطاب بالقلب من حيث هو مبدأ لكل الأفعال بما فيها فعل العقل.

وقد يصحّ القول: إن القلب بما هو لطيفة ربّانية روحية، وإن كان لها تعلّق بالقلب الجسماني، إلاّ أنها تبقى لطيفة لا يدرك كنهها إلاّ الله تعالى، ويمكن للباحث أن

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

يثير الإشكالية على النحو الآتي: إنّ ما تنظر إليه الآيات من كسب القلوب لم يرد مثله في مجال العقول، بحيث يُقال: إنّ العقول تكسب، فالقلب هو المأخوذ بالكسب، وليس العقل، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾[1]، فالآية ناظرة إلى أن الكاسب والمكتسب هو الإنسان، تماماً كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ...﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الكسب والآثم للقلب دون غيره.. وهنا يمكن إثارة التساؤلات الآتية: لماذا أعطى القرآن للقلب حيّزاً يخرجه عن كونه مجرّد لطيفة ذات علاقة بدنية ليكون كاسباً للكفر والإيمان، والحب والكراهية؟ أليس القلب هو المأخوذ بالإيمان والكفر دون العقل؟؟

كما نسأل في مجال إثارة الإشكالية، لماذا لم يعط العقل فيما لو كان يعني القلب حيّزاً للكسب طالما يذهب بعضهم إلى تأويل القلب بأنه العقل؟ وهل العقل غير المعرفة والفهم فيما يؤديه من فعل ليس إلاّ؟

نعم، إن القرآن لم يأتِ بالعقل بصيغة الاسم، أو المصدر، وإنما جاء به بالفعل، فقال: «**أفلا يعقلون**»، «**لعلكم تعقلون**»، يهتدون، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[3].

أليس ما تقدم من أسئلة مرشداً إلى حقيقة التمايز بين أن يكون القلب عقلاً، وبين أن يكون العقل مجرّد فعل يقوم القلب بتوجيه حركته باتجاه التفقه والمعرفة؟

إن القلب هو الموصوف بالكسب في الحياة، والعقل هو الموصوف بالفعل، وما لم يمد القلب العقل، فما لحياة العقل من أثر، لأن القلب هو مناط التحقق الإنساني في صياغة الفعل الإيماني لكون العقل مجرد أداء وظيفي والفعل هو الأثر الوحيد الذي يدلّ على العمل، وهذا ما تنظر إليه الآيات القرآنية لتؤكد على المعنى القلبي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

للحياة الإنسانية في دائرة الإيمان والعمل الصالح، وكما بيّنّا أن هذا القلب لا يعني سوى الإنسان الذي يؤخذ بكسبه وإثمه وسلامة قلبه، ولهذا نجد القرآن يؤسّس لهذه اللطيفة في سياق رؤية متكاملة تبدأ من خلق الإنسان بما هو مفطور على الإيمان، وتنتهي بالرجوع إلى الله بالقلب، سواء القلب المريض أم القلب الميت أم القلب السليم ليكون له جزاؤه وفق أعماله.

لذا، فإن ما نودّ التركيز عليه في إطار إشكالية البحث هو التأكيد على الرؤية القلبية بما هي أساس ومستودع وموطن لأفعال الإنسان فيما يكون لها من آثار مادية وروحية في حركة الإنسان باتجاه الدنيا والآخرة. وقد بيّن القرآن هذا المعنى في آيات الأفئدة والصدور، وغير ذلك مما اختلفت مفرداته واجتمعت معانيه، وهذا ما لم يهتدِ إليه الباحثون في المجال القرآني، حيث إنّهم اكتفوا بالإشارة إلى أن القلب هو العقل، ساهين عن حقيقة الإشكالية فيما طرحوه من وحدة المفردات القرآنية، رغم أن أهل البيت قد أشاروا إلى أن العقل المطبوع ليس شيئاً غير القلب المعنوي، بما هو فطرة إنسانية أودعها الله تعالى في صدر الإنسان لتكون دليلاً له إلى الإيمان وسبيلاً للفوز بالجنان، على نحو ما سنرى في بحوثنا اللاحقة إن شاء الله تعالى.

فالقرآن الكريم أشار في آياته إلى تشابه القلوب وليس إلى تشابه العقول، حيث قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ...﴾[1]، ما يؤكّد لنا معنى التجلّي القلبي في حركة الإنسان، بل في مجال العقل والفهم والمعرفة، فالناس قد يتشابهون في قلوبهم من حيث الأثر وتلقي الخطاب الإلهي، وهم في ضوئه تكون لهم الحالات المختلفة، أو المتشابهة، وهذا ما لا يكون مجالاً للعقل ولا مورداً له، لأنّ القلب هو ملاك التحقق الإنساني، سواء في مجال الكفر أم في مجال الإيمان أم في مجال التحققات الخارجية لأفعال الإنسان.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

منهج البحث

لا شكّ في أن منهج البحث يختلف باختلاف المواضيع والعلوم، إذ لكل علم منهجه الخاص به، وما نحن بصدد البحث فيه هو بحث قرآني يتعلّق بموضوع القلب في القرآن وأنواعه وأوصافه، حيث رأينا في التقديم والمسوّغات والإشكالية أن هذا الموضوع مما طرق أبوابه الكثير من العلماء والمفسرين، ويمكن لنا بالاستناد إلى ما خلصوا إليه أن نضيف شيئاً جديداً، أو أن نعيد صياغة المواقف والنظريات بما يتيح لنا إضافات جديدة في هذا الموضوع.

ونظراً لكون منهج البحث هو الأساس والقاعدة التي لا بدّ من تحديدها وفق ما هو مألوف ومتعارف لدى الباحثين، فقد اخترنا المنهج الذي يلائم طبيعة هذا الموضوع، لكونه يتعلق بعلوم القرآن والسنّة، وهو المنهج الموضوعي الذي يصنف الآيات حسب الموضوعات ويحلّلها وفق رؤية قرآنية شاملة، وهذا يستدعي أن يتوفّر الباحث على إحاطة تامّة بموضوع البحث تؤهّله من خلال قواعد عامة وحقائق للخلوص إلى النتائج المتوخّاة من بحثه[1]، لأنّ أصول البحث تفترض مسبقاً أن يكون الباحث على وعي وإدراك بجملة القواعد التي يحتاج إليها البحث، وقد بيّن الفضلي هذا المعنى فيما عرض له في الرؤية العامة للمنهج الأصولي، حيث رأى أن

(١) العيسوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، دار الراتب الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٧، ص٢٦٠، وقا: مع ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم الطبيعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٠، ص٢٦٠.

المناهج تتعدّد بعدد الحقول المعرفية وأنواع العلوم، كما في الأصول والفقه...[١].

لقد سبق لنا أن اعتمدنا في بحوثنا القرآنية السالفة، سواء في مبحث الوعد والوعيد[٢]، أم في مبحث الفوز والخسران[٣]، أم في مبحث علوم القرآن[٤]، أم في مبحث حوار الأديان في القرآن[٥]، وغيرها من المباحث أن أسّسنا لهذا المنهج على أنه الطريقة الواضحة، والمنظمة في التعامل مع الحقائق والمفاهيم، وهذه الطريقة حينما تتعلق بالنصوص القرآنية، فإنها تصبح أكثر دقّة، وأعمق رؤية، لكون القرآن وما انطوى عليه من حقائق ومفاهيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا ما يحتّم على الباحث أن يكون أكثر وضوحاً وتنظيماً فيما يروم بحثه، وفي موضوعنا هذا المتعلق بالقلب في القرآن، نرى أن المنهج ذاته، بما يعنيه من تحليل ومقارنة، وإعادة ترتيب للنصوص وفق رؤية موضوعية هو الملائم لهذا البحث، على اعتبار أن المنهج، كما سلف القول، هو طريقة وأسلوب للكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حينما نكون بها عارفين، وكما يقول بعلبكي في قاموس المورد: «**هناك نوعان من المنهج: أحدهما للكشف عن الحقيقة ويسمّى التحليل، والآخر وهو الخاص بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها ويسمى بالتركيب، أو منهج التأليف..**»[٦].

إنّ مبحثنا هذا يتعلق بالقلب الإنساني وما أفرد له من خصوصية في كتاب الله تعالى، وهذا يقتضي منّا أن نكون على بيّنة مما يريد الله تعالى أن نكون على علم

(١) الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، بيروت، دار المؤرّخ العربي، ط١٩٩٢، ص٦٧.

(٢) عارف، هنديجاني فرد، الوعد والوعيد في القرآن المجيد، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ط١، ٢٠١٤م.

(٣) م. ع، الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن الكريم، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ط١، ٢٠١٤م.

(٤) م. ع، علوم القرآن عند العلاّمة الطباطبائي، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ط١، ٢٠١٣م.

(٥) م. ع، حوار الأديان في القرآن الكريم، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ط١، ٢٠١٤م.

(٦) بعلبكي، منير، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠، ط١٤، ص١٠.

ومعرفة به، وبما أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴾[1]، فإنّ معنى ذلك أنّ القرآن يهدي إلى المنهجية القويمة في تناول حقائق ومفاهيم وتصورات القرآن الكريم، باعتبار أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً ويشهد بعضه على بعض، كما في الرواية عن رسول الله ﷺ[2].

لذا، فإنّ معنى المنهج في بحثنا هذا أن يكون لنا مرتكزات وقواعد في القرآن الكريم، نرتكز إليها في تبيان حقيقة الموقف، أو النظرية في مجال بحثنا عن القلب، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الباحث في أي علم من العلوم، سواء في العلوم النظرية أم في العلوم التطبيقية التجريبية، لا يسعه إلاّ أن تكون لديه قواعد عامة يرتكز إليها، وطالما أن المنهج هو الذي يحدّد وجهة الباحث وخطاه في الطريق إلى استخلاص النتائج، فذلك يحتّم وضوح الرؤية لدى الباحث، وكلما كان منهجه واضحاً كلما كانت رؤيته قادرة على ملامسة موضوع بحثه بشكل سليم، ويمكن التمثيل على ذلك بمنهجية المؤرخ الذي يرتكز في منهجه التاريخي على النصوص والوثائق التي هي مادة التاريخ تؤهله للخلوص إلى نتائج واضحة ومحددة فيما يريد البحث فيه. وبما أن الباحث في العلوم القرآنية يحتاج إلى نصوص ومواد للبحث، فلا يمكنه إلاّ أن يرتكز إلى نصوص القرآن وآياته لاستكشاف حقيقة الرؤية والموقف الإسلامي إزاء ما يروم البحث فيه، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه شتّان ما بين نصوص ومواد يعتمدها الباحث من خارج القرآن والتي قد يخالطها الشك والكذب والتحريف، وبين النصوص والمواد القرآنية التي لا يأتيها الباطل من جهة، حتى إن المؤرخ نفسه على فرض أنه أراد أن يبحث في التاريخ الإسلامي، يبقى بحاجة إلى هذه النصوص لكون القرآن هو أفضل مؤرّخ تماماً كما هو أفضل مقنّن على حدّ تعبير

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) را: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان، تصحيح اعتقادات الإمامية (ت ٤١٣هـ)، تحقيق حسين دركاهي، دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ص٣١.

العلاّمة الشيرازي في نفحات القرآن...[1].

إذاً، المنهج هو الذي يحدّد للباحث ملامح البحث ليكون أكثر علمية في بحثه وفق القواعد العامة التي يرتكز إليها، ويكفي أن نشير هنا إلى أن المنهج التحليلي في تناول النصوص القرآنية لا يمكن التأسيس له إلاّ في نطاق النصوص القرآنية ذاتها، وهذا ما يحتّم على الباحث أن يكون قادراً على تناول الموضوع المراد بحثه وفق رؤية موضوعية تختلف عمّا اعتاد عليه الباحثون في التفسير التجزيئي للقرآن، وخاصة في موضوع هو بأهمية أنواع القلوب في القرآن، ذلك أن هذا الموضوع يمكن جمع آياته وضمّ بعضها إلى بعض دونما استغراق في التأويل والتفسير لكون هذا الموضوع له مفاهيمه وحقائقه في القرآن؛ وباستطاعة الباحث أن يوفّر لنفسه المادة الجامعة لهذا الموضوع من خلال الاسترشاد بآيات أخرى لم تأتِ على مفردة القلب بشكل واضح، وإنما يُستفاد منها المعنى القلبي والرؤية القلبية، باعتبار أنه ليس بالإمكان أن يكتفي الباحث بالإشارة إلى آيات القلب، واستثناء آيات من قبيل: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[2] وغيرها من الآيات التي تتحدّث عن الصدور والأفئدة، والعقول، والحواس وغير ذلك مما يوجب على الباحث التأسيس لرؤية جامعة وفق الرؤية الموضوعية التي تلامس كل حقائق القرآن في الموضوع المعيّن، فإذا كان المنهج الترتيبي ينطوي على فوائد جمّة في استخلاص العبر والنتائج، فإنّ المنهج الموضوعي، أو لنقل الاتجاه الموضوعي، ليس من الضروري أن يؤدّي إلى النتائج المرجوّة فيما لو استند فيه إلى النص ذاته دون اعتبار للتجربة وأسباب النزول، لأنّ تراكم التجربة الإنسانية، وحقائق العلوم ليست بعيدة عن حقائق القرآن، وبالتالي، فإنّه من غير الصائب أن يلجأ الباحث إلى الرؤية الموضوعية بالتركيز على الاهتمام بالآيات ذات المعنى الخاص والمفردة الخاصة بموضوع البحث الذي

(١) الشيرازي، مكارم، تفسير موضوعي، نفحات القرآن، مدرسة الإمام علي ، قم، ١٤٢٦هـ، ط١، ص١٣٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ١١.

هو القلب، وإنّما هو يحتاج مع ذلك إلى استكشاف ملامح الرؤية القرآنية من آيات أخرى تؤدّي إلى الموضوع ذاته، وهذا ما خلصت إليه البحوث الإسلامية بتأكيدها على أن التفسير الموضوعي يختلف بين أن يكون مستنداً إلى جمع الآيات في موضوع واحد، وبين أن يأتي تصنيف الآيات حسب ما ورد فيها من البحوث والموضوعات، وهذا ما لخّصته جمعية القرآن الكريم في بحثها القيّم عن مناهج التفسير[1]، حيث كشفت عن أن مناهج المفسرين لا تزال في طور الاكتشاف للحقائق القرآنية، وقد سبق لصاحب بحار الأنوار العلاّمة المجلسي أن أسّس لهذا التفسير، وجاء من بعده علماء كثر سلكوا المسلك ذاته وكان لكل منهم منهجه في تناول المواضيع القرآنية، وكانت خلاصة المباحث عند الشهيد محمد باقر الصدر في بحثه القيّم في المدرسة القرآنية، ولا تزال المباحث تتوالى لتؤكّد على أن أي منهج لا يفي باستخراج الحقيقة الكاملة، لأنّ المنهج هنا يتعامل مع حقيقة مطلقة هي النص القرآني[2]، ولكن يمكن للباحث أن يؤسس لرؤية تكشف عن جانب من الحقيقة ليأتي من بعده مَن يكشف عن جانب آخر، فهذا صاحب البحار استخرج الآيات حسب الموضوعات، وجاء العلاّمة الصدر ليظهر النصوص في ضوء تراكم التجارب الإنسانية، وهو ما أسماه بالاتجاه التوحيدي في قراءة النص، وتابع هذا المنهج

(١) انظر: دراسة جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد، دروس في مناهج التفسير، لبنان، ط١، بيروت، ٢٠١٢م، ص١٣٧.

(٢) إنّ أي نمط من أنماط التفسير الموضوعي لن يكون كافياً لرفع جميع المبهمات من كافة الجوانب، لأنّ المُجْملات كالصلاة والزكاة تُبيَّن بالسنّة، والعمومات تخصّص بها، والمطلقات تقيّد بالأخبار، إلى غير ذلك من موارد الحاجة إلى السنّة، نعم، يمكن للباحث القرآني أن يحيط بكثير من المواضيع القرآنية، ولكن ليس في نطاق الأحكام الشرعية والتكاليف العمومية، لأنّ هذه مما لا يستقلّ القرآن بها، إذ لا قرآن من دون سنّة، فإذا ما تمّ تصنيف الآيات بحسب الموضوعات المستخرجة، فإنّه يمكن للباحث أن يخلص إلى نتائج هامة في موضوع بحثه، إلاّ أنّه يبقى عليه أن يدرك حقيقة أن السنّة النبويّة هي التي تفسّر القرآن في كثير من الجوانب بحيث لا يتوهّم أحد أن منهج التفسير أيّاً كان هذا المنهج، قادر على حلّ كل المبهمات، وهذا ما يفترض على الباحث أن يتنبّه له فيما يضعه لنفسه من قواعد ومعلومات منظمة في ما يختاره من منهج أو أسلوب في البحوث القرآنية...

العلاّمة السبحاني في مفاهيم القرآن[١]، والعلاّمة الشيرازي في نفحات القرآن[٢]، وغيرهم كثير من الباحثين الذين أجادوا في بحوث القرآن، وخاصة فيما يتعلّق بالعلوم الإنسانية....

لقد أردنا في كلمتنا عن المنهج في موضوع بحثنا أن نكشف عن رؤية في تحليل النصوص ترتكز إلى النصوص القرآنية وتأخذ بعين الاعتبار القواعد والمفاهيم العامة التي تحتاج إليها في التحليل والتركيب والتأليف، لكون القرآن في مجال موضوع القلب قد أوضح في مئات الآيات القرآنية بأن للقلب دخالة عظمى في الحياة والموت، وفي الكفر والإيمان والحب والبغض، وغير ذلك مما يتعلق بالرؤية القلبية التي هي أساس كل معرفة وعلم وبصيرة بحقائق الأمور، وما تأكيد الروايات الإسلامية على حقائق الإيمان التي مقرّها القلب إلاّ خير دليل على أن الفطرة التي فطر عليها الإنسان هي ما تشير إليه الآيات القرآنية فضلاً عمّا أشارت إليه آيات أخرى من كون القلب الإنساني هو الروح والنفس والعقل وكل ما يعيشه الإنسان في حياته من حواس ومعارف كلها تصوّب في ضوء حياة القلب وموته، لا بما هو قلب مادي، وإنما بما هو قلب معنوي جعله الله تعالى مصدراً للحياة، وسبباً لكل إدراك وشعور... إنه القلب الذي أشير إليه بالمضغة التي في صدر الإنسان، فهي إن فسدت فسد الإنسان، وإن صلحت صلح الإنسان، وهناك الكثير من الحقائق التي تتعلق بهذا القلب من حيث كونه موضوعاً للخطاب الإلهي، وهدفاً للوحي، ومصدراً لكل فوز أو خسران في الدنيا والآخرة، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[٣]. هذا فضلاً عمّا بيّنته الآيات المباركة من ضيق للقلب، سواء في الدنيا أم في الآخرة، حيث قال الله تعالى في الحياة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ

(١) السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، تفسير موضوعي، مؤسسة الإمام الصادق ، قم، ١٤٢٨هـ.
(٢) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، تفسير موضوعي، إيران، قم، ١٤٢٦هـ.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[1]. وقال الله تعالى في الآخرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[2].

ويبقى السؤال: هل نتدبّر بقوله تعالى فيما اختلف التعبير فيه، بين قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، وبين قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾؟ فلماذا اختلف الاستعمال بين ما هو في الدنيا وما هو في الآخرة؟ أليس في قوله تعالى ما يُفيد اختلاف المعنى والمفهوم؟ طالما أن الأرواح قد بلغت الحناجر. إنّه موضوع للتأمّل والتدبّر.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٨.

الباب الأول

القلب والعقل في القرآن

تمهيد الباب.

- **الفصل الأول:** القلب في اللغة.
- **الفصل الثاني:** القلب في الاصطلاح الشرعي.
- **الفصل الثالث:** القلب الروحاني والقلب الجسماني.
  - أ ـ القلب بين الروح والجسد.
  - ب ـ القلب والعقل وحقيقة العلم.
- **الفصل الرابع:** القلب والفؤاد والصدر.
  - أ ـ القلب والفؤاد.
  - ب ـ القلب والصدر.

تمهيد الباب

اعتاد الباحثون في التأسيس لبحوثهم على إعطاء نظرة شاملة، ورؤية عامة حول ما يرومون بحثه، وكان من جملة هذه التأسيسات أن يأتوا على تعريفات خاصة بمفردات البحث، وهذا الأمر أكثر ما ظهر في البحوث الإسلامية والقرآنية على وجه التحديد، لكون هذه البحوث تحتاج إلى إحاطة بعلوم اللغة العربية والبلاغة، وغير ذلك مما لا يمكن الاستغناء عنه في البحوث الإسلامية، وطالما أن موضوع البحث هنا هو القلب في القرآن الكريم، فإننا نرى لزاماً علينا أن نقدّم في مطلع هذا البحث ما يحتاج إليه من تعريف، سواء من حيث اللغة أم من حيث الاصطلاح أم من حيث ما يعنيه المفهوم بحدّ ذاته، ذلك أن القرآن فيما ينطوي عليه من مفاهيم وحقائق، هو يؤسس لمفهوم مطلق في حركة الإنسان في الزمان والمكان والتاريخ، ولهذا، نجد من الباحثين مَن اختار إعادة البحث في خارطة المفاهيم القرآنية، داعياً إلى إعادة بناء المفاهيم في ضوء رؤية قرآنية تكون بمثابة المرجعية لكل مفهوم.

يقول الدكتور السيد محمد: «**إنّ على رأس مسببات وهن الأمة الراهن، تقف المفاهيم السائدة التي هي في جملتها مفخخة ومسكونة بانحرافات كامنة نابعة من مثالب في الفكر الإسلامي تكرّست في عصور إعداد الحواشي على المتون، والحواشي على الحواشي، والفقه التصوّري المنقطع عن الواقع المعاش...**»[1].

(١) را: السيد محمد، خارطة المفاهيم القرآنية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩م، ص٧٠.

إنّ من ضروريات كل بحث علمي أن يتأسّس له في ضوء رؤية قرآنية كاشفة تبدأ من المعرفة بحقيقة اللغة، وتنتهي بالتأكيد على المفهوم القرآني من حيث هو مفهوم ثابت في الزمان والمكان والتاريخ، لأنّ القرآن كما جاء في الروايات الإسلامية يجري كما تجري الشمس والقمر[1].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن كثيراً من الباحثين قد التبس عليهم المفهوم القرآني، فأعطوه أبعاداً لا ينطوي عليها، وأكثر ما تجلّى هذا الالتباس في المفهوم السياسي، فقالوا إنّ الإسلام لا يتضمّن نظرية في الدولة، أو إن الإسلام ترك للأمة حريّة أن تختار ما تشاء في الرؤية السياسية، وفي المفهوم السياسي، إلى غير ذلك مما التبس فيه من مفاهيم قرآنية، وخاصة في مجال الموضوعات ذات البعد العقائدي والإنساني والاجتماعي، فضلاً عن السياسي، الذي أشار القرآن إلى حقيقة الالتباس فيه فيما عرض له في مواطن عديدة من قبيل الإشارة إلى التلاعب بمفاهيم الإصلاح والفساد من قبل الطواغيت حيث ادّعى فرعون في أحدها أنّ موسى مفسد في الأرض، وأن فرعون يهدي قومه سبيل الرشاد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[2]، إلى غير ذلك من المفاهيم الملتبسة التي اعتاد عليها البشر في تاريخهم الإنساني، وهذا ما شهدته التجربة الإسلامية أيضاً لجهة تحريف المفاهيم العقائدية والسياسية في عهد الحكام والطواغيت الذين تعاقبوا على حكم المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ.

نعم، إن هناك خلطاً كبيراً بين المفاهيم، ويبقى الباحث في تصدير بحوثه بحاجة إلى التعريف اللغوي والاصطلاحي، ليُجلي حقيقة المفهوم الإسلامي في أي موضوع من الموضوعات. وبما أن موضوع بحثنا هو القلب في القرآن الكريم، فإنّنا نحتاج إلى تبيان حقيقة الخلط في هذا المفهوم، إذ لم يوفق الكثير من الباحثين

(١) انظر: هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م، ط٤، ج١، ص٢٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٢٦.

إلى فهم حقيقة ما عرض له القرآن الكريم من مفردات حول القلب والعقل واللب والروح والنفس والنُّهى، والصدر، خالطين بين ما هو مصدر للمعرفة، وأساس لوضوح المعنى والمفهوم، وبين ما هو مهمة ووظيفة لهذه المفردات التي جاءت في سياقات متعددة لتفيد دلالات مختلفة، هذا إضافة إلى ما زعمه بعض الباحثين من ترادف للكلمات في القرآن الكريم. رغم أنه لا ترادف للكلمات في ضوء دلالة السياق، وخاصة في القرآن الكريم، الذي أبى كثير من الباحثين إلاّ التعامل مع هذه المفردات بما تعنيه حصرية اللغة دلالة، فهم يأخذون المعنى اللغوي على أنه حاكم على النص، في حين إن النصّ والقرآن هما الحاكمان على اللغة، وهي إنما تصحّح في ضوء ما جاء به القرآن وليس القرآن هو الذي يصحّح بها، بمعنى أن القرآن هو الحجّة على أهل اللغة وليس العكس.

وكيف كان، فإن الهدف من هذا التقديم، هو التأسيس لرؤية في معنى القلب والعقل والروح والنفس... وغيرها مما انطوى عليه القرآن من مفردات تتمايز في ضوء دلالة السياق القرآني. وبما أن القلب والقلوب قد وردت في أكثر من مئة واثنتين وعشرين آية قرآنية (١٢٢)، ويمكن لأي باحث متدبّر أن يلحظ هذه الآيات في سياقاتها لنجد أن القلب ليس هو العقل، أو الفؤاد، أو اللبّ، أو الصدر، وإن كانت اللغة قد أعطت القلب بعد العقل أو العكس، فإنّ لكل مفردة من هذه المفردات دلالاتها الخاصة بها، وهذه الدلالات يمكن تظهيرها من خلال اللغة أيضاً، على اعتبار أن العقل مثلاً لم يأتِ اسماً ولا مصدراً في القرآن، بل جاء بصيغة الفعل، وهنا السؤال، هل توقف الباحث عند هذه الدلالة مثلاً؟؟

فالقرآن الكريم، لم يقل في آية من آياته «**إنّ في ذلك لعبرة لأولي العقول**» وإنما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، كما أنّ القرآن لم يقل إنّ الله يحول بين

(١) سورة الرعد، الآية: ١٩.

الإنسان وعقله، بل قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، وهناك أمثلة كثيرة تجعل الباحث حيراناً فيما تنطوي عليه هذه المفردات من دلالات مختلفة...

غاية القول: إنّ مفهوم القلب في القرآن الكريم يحتاج البحث فيه إلى إحاطة شاملة في دلالة اللغة، وفي دلالة السياق، ونحن لا نزعم أننا نستطيع تظهير الحقيقة كاملة في بحثنا هذا، وإنما نقوم بمحاولة لعلّنا نوفّق إلى مزيد من الرؤية والكشف في مجال الحقائق القرآنية، كما أننا نحاول في هذا المبحث التأكيد على أن البحوث القرآنية لا بدّ أن تتكامل فيما تنتهي إليه من نتائج فيما لو خلصت النوايا، واطمأنّت القلوب، ونسأل العليّ القدير أن يوفقنا في بحثنا هذا إلى مزيد من الوضوح في الرؤية القرآنية، وبالله التوفيق وبه نستعين.

الفصل الأول

القلب في اللغة

قال ابن منظور: «**القلب: تحويل الشيء عن وجهه. قَلَبَهُ يَقلِبُهُ قلباً، وقَلبَ الشيء، وقلّبه: حوّله ظهراً لبطن. وتقَلَّبَ الشيءُ ظهراً لبطن، كالحية تتقلّب على الرمضاء، وقلبتُ الشيءَ فانقلب أي انكَبَّ، والقلب أيضاً: صَرْفُكَ إنساناً، تقلِبُهُ عن وجهه الذي يريده، وقلّب الأمور: بحثها ونظر في عواقبها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾[1]، وتقلَّبَ في الأمور وفي البلاد: تصرّف فيها كيف شاء، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[2]، معناه: فلا يغررك سلامتهم في تصرّفهم فيها، فإنّ عاقبة أمرهم الهلاك، وقال تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[3]، قال الزَّجَّاج: معناه ترجُفُ وتخِفُّ من الجزع والخوف.. والقلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط، والقلب هو الفؤاد عن ابن سيدة، والجمع: أقلُب وقلوب . . . . وقد يعبر بالقلب عن العقل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ...﴾[4]، أي عقل، وقال آخرون: أي تفهّم وتدبّر، وروي عن النبيﷺ أنه قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوباً، وألين أفئدة... ، فوصف القلوب بالرقة، والأفئدة باللين، وكأن القلب أخصُّ من الفؤاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أصَبْتُ حبَّةَ قلبِه، وسويداءَ قلبِه... وقيل أيضاً: القلوب والأفئدة قريبان من السواء، وكرّر ذكرهما لاختلاف اللفظين تأكيداً... وروي عن النبيﷺ قوله: «سبحان مقّلب القلوب»، وقال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ**

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٤) سورة ق، الآية: ٣٧.

وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[1].« ومن القلب أيضاً: القُلاب، داء يأخذ البعير، والانقلاب إلى الله عز وجل: المصير إليه والتحوُّل وقد قلبه الله إليه، [كما في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ...﴾[2]]، **وقال أبو ثروان أقلبكم الله مقلب أوليائه، فقال الله تعالى: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[3]، أي الرجوع إلى الله تعالى ومصير العباد إلى الآخرة....»[4].**

وجاء في المعجم الوسيط في معنى الانقلاب أيضاً أنه «**تحول الشيء عن وجهه، وجعل أعلاه أسفله أو يمينه شماله أو باطنه ظاهره، ويُقال: قلب الأمر ظهراً لبطن: اختبره، وقلب التاجر السلعة، تبصّرها. ويقال: قلّب الشيء: مبالغة في قلب، وتقلّب في الأمور: تصرّف فيها كيف شاء... والانقلاب: تحول الشيئ عن وجهه، وتغيير مفاجئ في نظام الحكم...، ويقال أيضاً: قلب كل شيء: وسطُهُ ولبّه ومحضه...**»[5].

وقال الراغب الأصفهاني في المعجم: «**قلب الشيء: تصريفُهُ وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثوب، وقلب الإنسان: أي صَرَفَهُ عن طريقته، والانقلاب: الانصراف... وقلب الإنسان: قيل سُمّي به لكثرة تقلّبه، ويعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصّ به من الروح والعلم والشجاعة... وقوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ قيل :العقل، وقيل: الروح ، فأما العقل فلا يصحّ عليه ذلك، قال ومجازه مجاز قوله تعالى: ﴿تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾[6] والأنهار لا تجري وإنما تجري المياه التي فيها، وهكذا الحال في معنى عمى القلوب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[7]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ**

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٤) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (لا ـ ت)، ج٥، ص٣٧١٣.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف حسن عطية، ومحمد شوقي أمين، مصر، ط٢، ج١٢، ص٧٥٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٧) سورة الحج، الآية: ٤٦.

ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾[1] [2] فهذا كله يُفيد . عند الراغب . معنى الروح وليس العقل إلاّ فيما يعنيه من علم وفهم. أما القلوب في حالات الخوف والرجاء والاطمئنان، فهي تفيد المعاني والثبات والزوال بما هي أمور معنوية ليس إلاّ....

لقد لخّص العلاّمة ناصر مكارم الشيرازي الشيرازي ما ذهب إليه أهل اللغة في معنى القلب، فقال: «**إن القلب . كما جاء في القاموس والمفردات للراغب، وكتاب العين، ولسان العرب . في الأصل يعني تغيّر الشيء وتحوّله، وغالباً ما يستعمل بمعنيين، فتارة يطلق على العضو الذي يتكفّل بضخّ الدم إلى جميع أعضاء البدن، وتارة أخرى يُستعمل ويُراد به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الإطلاق من حيث إن القلب الجسماني والقلب الروحاني في حركة وتغيّر مستمرّين، وكما يقول أهل اللغة:**

ما سمي القلب إلاّ من تقلّبه والرأي يصرف بالإنسان وأطوارا

كما أنّ كلمة «**قلب**»، تطلق على مركز كل شيء، مثل: قلب العسكر،لأن القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء في تاج العروس أن خالص كل شيء يقال له «**قلب**»[3].

نلاحظ، مما تقدّم، أن كلمات أهل اللغة تكاد تجمع على أن القلب في تحوّله وتقلّبه ليس شيئاً مادياً، وإنّما هو فهم وتدبّر وعقل وعلم وشعور وإدراك، يتقلّب من حال إلى حال، ومن وجه إلى آخر، من حيث كونه المركز والقلب والباطن واللبّ لكل شيء، وهو بهذا المعنى لا يتجزّأ بتجزّأ الحالات والأدوات، بل هو وحدة حقيقية أجمع العلماء على القول بأن كنه هذه الوحدة لا يعلمه إلاّ الله تعالى، واكتفوا بالقول: إنها روح الإنسان

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ـ ت)، ص٤٢٦ (بتصرف).

(٣) الزبيدي، محمد بن مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، (ت ١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، (لا ـ ت)، ج٢، ص٢٢٠.

ونفسه التي تشكّل وحدةً حقيقية ومبدأ لكل الأفعال التي يأتيها الإنسان، وتكون سبباً في تحوله وانصرافه وتقلّبه، كما تكون سبباً في خوفه ورجائه، يقول الطباطبائي ﷺ: «**إنّ القلب. العضو المعروف. يستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الإنسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمنّي والقلق ونحو ذلك. فالقلب هو الذي يقضي ويحكم؛ وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنّى ويسرّ ويحزن، وهو في الحقيقة النفس الإنسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة...**»[1].

إنّ ما أشرنا له في تمهيد الفصل، هدفنا من خلاله إلى تبيان حقيقة أن أهل اللغة يأخذون المفردة اللغوية، ويتعرّفون إلى حقيقة اشتقاقاتها، وما تنصرف إليه من معاني ودلالات، فلم يكن من عملهم ومهاماتهم أن يؤسّسوا لحقيقة المفردة بذكر وجوه المقارنات، أو ما تعنيه في سياقات الكلام، بل اكتفوا بالتدليل عليها من خلال الألفاظ وما يكون لها من معانٍ وتشعّبات في سياق الدلالة الخاصة، بدليل أننا لم نجد ابن منظور مثلاً يعقد فصلاً، أو يطرح رؤية في اللغة لتوضيح حقيقة الفرق بين القلب والفؤاد، فنراه مثلاً يأتي بحديث الرسول ﷺ عن أهل اليمن، ليخلص إلى القول بأن القلب أخصّ من الفؤاد في الاستعمال، ثم يخلص إلى القول بأنه ربّما يكون النبي ﷺ قد وزّع الأوصاف بين رقّة القلب ولين الفؤاد على سبيل الترادف والتنويع في الكلام لا على سبيل الافتراق. وهناك من العلماء من رأى أن الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفوّد أي التوقد، إذ يقال فأدت اللحم، شويته، ولحم فئيد: بمعنى مشوي...

لا شكّ في أنّ هذا الكلام لا يمكن قبوله أو الأخذ به طالما أن أهل اللغة قد اعتبروا القرآن حجّة عليهم، فهم بلحاظ كونهم يتحدثون عن القلب في ما يعنيه لغة، فلا يسعهم مع ذلك إلاّ أن يلحظوا حقيقة الفرق بين القلب والفؤاد، ذلك أن القرآن لم يتحدث عن المفردتين ـ القلب والفؤاد ـ في سياق واحد، ولا على سبيل

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م، ج٩، ص٤٦.

التنويع والترادف في الكلام لما سبق قوله من أنه لا ترادف في القرآن من حيث الرؤية والوضوح والنضج والكمال، وإن كان له معنى من حيث الأصل. فالتفرقة بين الكلمات المترادفة إنما تكون في كمال الوضوح، وإذا صحّ أن الكلام جاء على سبيل الترادف، فإنّ ذلك يحتّم على أهل اللغة أن يلحظوا حقيقة التمايز في النتائج والمؤديات، على اعتبار أن أهل اللغة، وليس غيرهم، هم الذين أشاروا إلى معنى التوقد في معنى التفوّد، لأن «**فأد**» على وزن وَعْد وتعني الزيادة في الإنارة واللمعان[١].

وفي الأصل معناه وضع الخبز على الرماد، أو الحصى الحارّة، كي يخبز جيداً، كما يطلق على طبخ وشوي اللحم، وهذا ما يفترض على أهل اللغة ملاحظته لإظهار حقيقة التفرقة والتمايز في المؤديات والنتائج والآثار، سواء على مستوى الباطن أم على مستوى الظاهر، وبما أن القرآن حجّة على أهل اللغة، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[٢]، فهو لم يكذّب ما رأى لكونه توَقّد لدرجة من النورية جعلته على قاب قوسين أو أدنى من حضرة القدس، فلو قال ما كذب القلب ما رأى، لكان للكلام مفاد آخر، ولكنه جاء بكلمة الفؤاد الذي هو أعلى درجة من العقل[٣]، وهذا ما يؤكّد لنا عدم استقامة الرأي القائل بالتسوية بين القلب والفؤاد، ويكفي تدليلاً على ذلك ما أتى به القرآن حول الفؤاد والأفئدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]، وغيرها من الآيات التي تميّز بين القلب والفؤاد، إذ إنّ لكل مفردة دلالاتها الخاصة وسياقها الخاص، الذي تدلّل من خلاله على حقيقة التمايز وتحقق التفرقة على مستوى الكمال في النضج والرؤية القلبية، وهذا ما لحظه العلاّمة الغزالي في رسائله حول البصيرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة، فهو يرى بأنّ هذه أسماء مترادفة على معنى

(١) انظر الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص١٣٢.
(٢) سورة النجم، الآية: ١١.
(٣) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، مدرسة الإمام علي ، طهران، ط١، ١٤٢٦هـ، ج١، ص١١٠.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٨.

واحد، وإنما تحصل التفرقة في كمال النضوج لا في أصله، فمنزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين، والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين فتدرك بذلك الجليات والخفيات...[1].

نخلص إلى القول بأنه لا بدّ من تحكيم دلالة السياق في القرآن الكريم لإدراك حقيقة المعاني والـدلالات، لأنّ ذلك كفيل بتوضيح المفاهيم، فلا تكون موضع التباس عند الباحثين في العلوم الإسلامية، باعتبار أن القرآن نصّ مطلق ولا تعوزه المفردات، ولا تكرّر فيه الآيـات لمجرّد التكرار، بل يضع كل مفردة في مكانها، ويعطيها مدلولها الخاص لتكون موضع تدبّر واستلهام، بحيث تمكّن الباحث من إدراك الدلالة الحقيقية، والمفهوم الحقيقي لكل مفردة، إمّـا من خـلال دلالة السياق، وإمّا من خلال دلالة النص، وهذا ما التبس أمره على كثير من الباحثين حينما ذهبوا إلى القول بالترادف والتنويع جهلاً بمواقع المفردات، وتصرفاً ملتبساً بالآيات البيّنات، تماماً كما جرى لكثير من الباحثين فيما ذهبوا إليه من أسئلة حول تكرار أسماء الأنبياء وقصصهم في القرآن، ساهين عن أن هذا التكرار ليس جزافاً، وإنما هو لهدف أن يتعرّف الإنسان إلى حقيقة الموقف اتجاه الأحداث المختلفة، والمقولات المتناقضة في القول والفعل في عصر كل نبيّ.

يبقى أن نقول: إن المعنى اللغوي يكشف عن مؤدّيات كثيرة في فهم مفردات القرآن: إلاّ أنّه يحتاج إلى مزيد من التدبّر في مدلولاته القرآنية، ولهذا رأينا في ما تقدّم من كلام أنّ حالات القلب المختلفة وتحولاته من وجه إلى آخر، ومن حال إلى أخرى، هو ليس شيئاً آخر غير العقل واللبّ والفؤاد والنفس والروح، وذلك من حيث كون القلب ليس مجرّد قلب مادي، وإنّما هو لطيفة نورانية لها تعلق بالقلب الجسماني، ولكن هذا التعلق يبقى مجهولاً للإنسان، هذا فضلاً عن أن هذا التعلّق كان وسيبقى سرّاً من أسرار الخلقة، فإذا كان لا بدّ من القول لغة أن القلب يترادف

(١) الغزالي، أبو حامد، مجموعة رسائل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص٣٨.

مع أسماء أخرى في القرآن، فإنّ ذلك قد يصحّ القول به شرط أن ندرك حقيقة ما تحصل به التفرقة، بدليل أن القرآن تحدّث عن العقل وأعقبه بأولي الألباب، وتحدث عن النفس وأعقبها بالروح، وتحدث عن القلب وأعقبه بالفؤاد، وهذا يؤكّد لنا حقيقة التمايز والتفرقة في ضوء ما يؤول إليه الإنسان من تحوّلات وانقلابات في حالته الروحية التي هي حالة واحدة لها تعبيراتها المختلفة، ولا شكّ في أن هذا الإدراك لحقيقة التفرقة والتمايز على مستوى التحولات الظاهرة والباطنة، لا بدّ أن تكون له آثاره الإيجابية على مستوى إدراك المفاهيم بالشكل السليم[1]، وهذا ما سنعرض له في الفصول اللاحقة إن شاء الله تعالى.

(١) لا شكّ في أن مرجعية كل مفهوم إسلامي هي القرآن الكريم، لأنه نصّ مطلق، يمكن للغة أو للمصطلح أن يكشف عن بعض مداليل هذا المفهوم، إلاّ أنّ كل ما يطرحه الإنسان في باب الفهم والتدبّر يبقى نسبياً إلى حدّ ما، لأنه لا يمكن للإنسان المحدود أن يستوعب حقيقة المفهوم بشكل كامل وفي مطلق الزمن، من هنا تتأتّى لنا ضرورة أن يتريّث الباحث في إطلاق الأحكام، أو في تحديد المواقف، أو صياغة النظريات، باعتبار أن المفهوم بنية فكرية تبلور فيها ملامح تجربة إنسانية بكل ملامحها الفكرية والمعرفية والنظرية والفلسفية، والمفاهيم، كما يقول أهل التحقيق، هي مشروعات كبرى للمعاني والدلالات، وهي شبيه الكائن الحيّ، والمفهوم وعاء معرفي جامع له هوية كاملة، وله سيرة وصيرورة تعرف نقاط الميلاد، والجذر اللغوي التأسيسي والاصطلاحي، والشرعي... وهكذا، فإن معنى أن يكون القرآن قد أطلق مفهوماً في سياق الحدث التاريخي أو التجربة التاريخية، معناه أنه لا يمكن لمن يقرأ هذه التجربة أن يحدّد المفهوم الكلي محصوراً بتلك التجربة لما نعرفه عن النص القرآني من حيث كونه يجري كما تجري الشمس والقمر. كما جاء في الرواية عن أهل البيت عليهم السلام... بيد أن هذا كله لا يعفي الباحث من مسؤولية الارتكاز إلى الميزان اللغوي والاصطلاحي لكون القرآن نصّاً عربياً لا بدّ من تعقّله في سياق فهم معرفي وثقافي شامل يبدأ من وعي مرحلة النص، ولا ينتهي في تجربته، بل يمتد في تاريخ الإنسان وزمانه ومكانه ليكون له حضورٌ كاملٌ في ما يمكن أن يحدثه الإنسان من تحولات معرفية ونظرية... وهذا لا يؤدي إلى أن يكون الإنسان أسير التجربة أو الحدث التاريخي، بل يساعد على بلورة رؤية معرفية تستند إلى النص، وتأخذ بالمفهوم القرآني على أنه ذو دلالة كبرى في المعنى والدلالة. وبما أن الإنسان قد اغترب عن هذا النص في كثير من تحولاته المعرفية، فكان لا بدّ أن يضطرب المفهوم ويلتبس حينما يتحول الإنسان إلى مفاهيم أخرى تتغيّر وتتبدّل وفق رؤية بشرية تحدّد المفهوم والمصطلح في ضوء منجزات العلم الحديث، وقد أدّى هذا، فيما أدّى إليه، إلى أن يكون النصّ القرآني ملتبساً عند الباحثين، وقد أشرنا في مبحثنا إلى أنّ هذا الالتباس عرض له القرآن فيما ادّعاه فرعون من فساد يأتي به موسى عليه السلام!!. هو يدلّ على المفهوم والرؤية، ويُعطي فهماً جديداً من عنديّاته يتوافق ورؤيته للتحولات في النفس والواقع معاً.

الفصل الثاني

القلب في الاصطلاح الشرعي

إذا كان القلب في اللغة يعني التحول في الوجه يميناً وشمالاً، وظاهراً وباطناً على ما أفاد أهل اللغة، وأن الترادف في الأسماء لا يعني انتفاء التفرقة، فإنّ معنى القلب في الاصطلاح، سواء العلمي أم الشرعي، هو ذاته المعنى الذي أتت عليه اللغة، ولكنه يمتاز عنه في الاصطلاح في كون القلب ينقسم إلى ما هو قلب مادي جسماني وقلب معنوي، أو هو كما أفاد ابن منظور في لسان العرب، والطريحي في مجمع البحرين تلك اللمظة، أو المضغة المعروفة في جسم الإنسان، يقول الطريحي: «**القلب يطلق على معنيين عند أهل التحقيق، أحدهما: اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه، وهذا المعنى للقلب موجود للبهائم، بل للميت. والمعنى الثاني: هو لطيفة ربّانية روحانية، لها بهذا القلب تعلق، وتلك اللطيفة هي المعبر عنها بالقلب تارة، وبالنفس أخرى، وبالروح أخرى، وبالإنسان أيضاً، وهذا الأخير هو المدرك العارف، وهو المخاطب والمطالب والمثاب والمعاقب، وله علاقة مع القلب الجسداني، وقد تحيَّر أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، وإن تعلقه يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، أو الأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة، أو تعلّق المتمكن بالمكان، وشبه ذلك....**»[1].

كما أن الإمام الغزالي في تعريفه لمعاني العقل، ميّز بين العقل الذي يراد به المدرك للعلوم، وهو القلب، أعني تلك اللطيفة التي هي حقيقة الإنسان، يقول الغزالي: «**وحيث ورد في القرآن والسنّة ذكر القلب فالمراد به المعنى الذي**

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، م. ع، ج٣، ص٥٣٨.

يفقه من الإنسان ويعرفه حقيقة الأشياء، وقد يكنّى عنه بالقلب الجسماني الذي في الصدر، لأنّ بينه وبين تلك اللطيفة العالمة التي هي حقيقة الإنسان علاقة خاصة لتعلّقها بسائر البدن، وهو إنما يكون تعلّق بواسطته، فهو مملكتها ومطيتها والمجرى الأول لتدبيرها وتصرفها... فالقلب الجسماني والصدر بالنسبة إلى الإنسان كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى من وجه...»[1].

وهكذا، فإن معنى القلب اصطلاحاً هو هذا التقسيم والتمييز، بين ما هو جسماني، وما هو ربّاني، بين ما هو جسم لطيف بخاري حامله دم أسود منبعهُ تجويف القلب الجسماني، وبين ما هو لطيفة عالمة مدركة، والتي هي الإنسان، بل روحه الإنساني، يقول الغزالي: «**هذه اللطيفة هي أحد معنى القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله:** ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...﴾[2]، **وهو أمر عجيب ربّاني تعجز العقول والأفهام عن درك وفهم حقيقة كنهه...**»[3].

صحيح أن التعريف اللغوي لم يأتِ على تفصيلات التحول والتصرف والتدبير، إلاّ أنه لحظ معنى تحول الشيء عن وجهه، وتقلّبه من حال إلى حال، وهذا لا يكون إلاّ من خلال اللطيفة الربّانية، إذ إنّ أكثر ما نشاهده من حالات التقليب والتصرف والانقلاب السريع في تبدّل حقائق ومظاهر الإنسان، هو عائد إلى حقيقة تلك اللطيفة الربانية ذات التعلق الرباني، الذي لا يعلم حقيقته إلاّ الله تعالى، وإذا عرف العلماء الربّانيون شيئاً، فلن تتجاوز معرفتهم ما ذكره الطباطبائي قدس سره من أن لهذه اللطيفة وحدة حقيقية تمثل جوهر الإنسان بما هو إنسان مدرك عالم مخاطب مطالب ومثاب ومعاقب. وبناء على ذلك، فلا يكون المعنى الاصطلاحي متجاوزاً للمعنى اللغوي فيما يعنيه هذا الأخير من تقلّب حقيقي للقلب، وهو إنما

(١) الغزالي، أبو حامد، مجموعة رسائل، م. س، ص٤٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) م. ع، ص٤١.

سمي به لكثرة تقلبه عن المعاني التي تختص بها من الروح والعلم والشجاعة والفهم والإدراك والشعور على ما أفاد الراغب في مفردات القرآن[١]، والملاّ صدرا في مفاتيح الغيب[٢]، والغزالي في إحياء علوم الدين[٣]، وغيرهم كثير...

ثم إنّ معنى المضغة في القلب، كما جاء في الحديث، إنّ في الجسد مضغة، لا يدلّ على أكثر من أنّ هذه النكتة البيضاء تتأثر بحالات الإنسان واعتقاداته، وسلوكياته، واختلاف تحولاته، لأن القلب المعنوي هو في هذا القلب المادي، وهو إنما يتمايز عنه في كونه ذات لطيفة ربّانية وعلقة إلهية تخرج القلب عن مجرّد كونه تعبيراً مادياً ليكون قلباً معنوياً يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، على ما أفاد الغزالي في رسائله... بيد أنّ هذا الذي يذهب إليه العلماء من تقسيم لا يشكل تعريفاً اصطلاحياً جامعاً لما سبق وأشرنا إليه من أن القلب هو في الحقيقة عقل ولبّ وفؤاد يشكل مع صدر الإنسان نسبة جامعة تجعل منه قلباً متجوهراً ومتحولاً وفق ما يكون عليه من وعي وإدراك وعلم وفهم ووجدان وعاطفة، خلافاً لما يراه بعض الباحثين من تميّز واستقلال لكل من القلب والعقل، بحيث يفهم من عباراتهم أن للعقل تعبيره من خارج القلب، أو النفس، أو الروح، أو غير ذلك مما توارد من مفردات قرآنية للتدليل على حقيقة الإنسان فيما هو إنسان مدرك وعارف، ومثاب ومعاقب.

---

(١) الراغب، الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٤١٦.

(٢) يرى الملاّ صدرا أن الإنسان متجاذب بين الشيطان والملك، إذ في القلب، كما عن رسول اللهﷺ لمّات، لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ....، ثم قرأ الرسولﷺ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين، قال رسول اللهﷺ : «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن»، والله يتعالى عن أن يكون له جارحة، ولكن الروح الإصبع وحقيقة معناه عبارة عن سرعة التقليب، والقدرة على التحريك والتغيير... وكما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك، فالله تعالى إنما يفعل ما يفعله باستسخار الملك والشيطان، وهما مسخّران لقدرته في تقليب القلوب...

را: الملاّ صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، إيران، (لا.ت)، ص١٥٨.

(٣) را: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين (ت: ٥٠٥هـ)، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م، ط١، ج٣، ص١٩.

بمعنى آخر، يمكن القول: إن القلب في القرآن، أتى مرةً بمعنى النفس، ومرةً بمعنى الروح، وثالثة بمعنى الفؤاد، ورابعة بمعنى اللبّ والعقل، وخامسة بمعنى الصدر، إلى غير ذلك مما يؤكّد على محورية القلب في كل هذه المفردات، ولكنه في تحوله وتصرفه وتقلبه، يأخذ أحياناً معنى النفس، وأخرى معنى الروح، وأحياناً معنى الفؤاد، كما سلف القول منا في مبحث اللغة...

لقد أخفق الكثيرون في تناول هذا المبحث، والحق يقال: إن العلامة الطباطبائي قدس سره قد جلّى هذا الموقف، وأعطاه حيّزه في النفس الإنسانية من حيث كونها قوة تقف خلف الحركات والأفعال والتبدلات، وهي نفس واحدة في الإنسان، وبما أن بعض علماء التزكية كما يلاحظ في تفسير الميزان قد ركّزوا على هذا التميّز في المفردات، فقد رأينا أن نتابع كلام العلاّمة الطباطبائي قدس سره بالتأكيد على حقيقة القلب لا بما هو مضغة وحسب، وإنما بما هو روح ونفس، ومن خلال استعراض النصوص القرآنية، وآيات القلب، يمكن لنا أن نجد حقيقة الموقف فنقول: إنه لا يبعد أبداً أن يكون القلب، في حقيقة المصطلح، هو القلب الجسماني الصنوبري الذي هو العضو المعروف، ولكن تتبع الآيات لا بدّ أن يكشف عن أن القلب يشتمل على النفس، بحيث تتظهّر الأمور المعنوية منه دون أن تكون ظاهرة، كما يشتمل أيضاً على الخواطر والرغبات والإرادة والنية، ويكون مشتملاً أيضاً على إعمال العقل من تعقّل وتفكر وتدبّر وتذكّر، إضافة إلى اشتماله على حقيقة الروح بنحو حقيقي وليس مجازياً، وإن لم يكن الأمر كذلك، فما يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

وانطلاقاً مما تقدّم، يمكن القول: إنّ محورية البحث ينبغي أن تتركّز على القلب بما هو روح ذات تعلّق ربّاني، هي الجسد الإنساني في كل طيّاته وأدواته ليكون مطيّة لها

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

تجري فيه وتدبّره وتصرّفه بحسب حقيقة ما يكون عليه الإنسان من وعي وإدراك وعقل عن الله تعالى، بما هو عقل فطري مطبوع ومسموع كما صرّح بذلك الإمام علي عليه السلام، حيث إنه عليه السلام ركّز على المطبوع لكونه الإنسان مفطور على التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1]، وبهذه الفطرة كانت الحياة معززة بالخطاب الإلهي لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا ما ترشد إليه آية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ...﴾[2]، فهي تفيد أن التوحيد هو الحياة، وعلقة القلب، بل نكتة القلب البيضاء هي هذه الفطرة التي تُجلّي الإنسان على النحو الذي يؤدي به إلى أن يكون إنساناً حيّاً بقلب الحياة الذي هو روح الحياة، ونفس الحياة، ولبّ الحياة، وفؤاد الحياة، الذي هو آخر تجلّيات الرؤية في الحياة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[3].

وإذا كانت للقلب كل هذه المعاني، فهي لا تكون له من ذاته، وإن كان له المعنى الكلّي الذاتي في صيرورة التحول المعنوي، بل هي له من حيث علقته بالسماء، بالله تعالى الذي أفاض على هذا القلب من نوره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[4]، وهذا يدلّل بوضوح تام على أن القلب لا بدّ أن يستوي على هذا النور، لكون العلم والاعتقاد السليم والفطرة السليمة إذا استولوا على القلب ولم يكن لهم معارض أثمروا في القلب المعرفة، يقول الغزالي: «**إنّ هذه المعرفة تسمى يقيناً، لأن حقيقة اليقين صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضروري ويصير القلب مشاهداً لجميع ما أخبر عنه الشرع من أمر الدنيا والآخرة**»[5]، يقال: «**أيقن الماء إذا صفا من كدورته**»، وبما أنه لليقين هذا المعنى في القلب، فهو

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة النجم، الآية: ١١.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٥) الغزالي، مجموعة رسائل، م. س، ص٣٩.

يحتاج لصفاء العلم المكتسب في تحولاته ليكون مشاهداً لحقائق الأشياء طالما أن القرآن قد تحدّث عن حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين.

أليست هذه المراحل تحتاج إلى تحقق في القلب ليكون له مصاف التجلي، وصفاء العلم المكتسب؟ بلى، إنّ ذلك لا بدّ أن يكون من حالات القلب في تصرفه في ضوء الاعتقاد والعلم، الذي يؤدي به إلى أن يكون متجوهراً على مستوى الفعل والرؤية والفهم والإدراك وضبط الشهوات والانفعالات وغير ذلك مما بيّنه القرآن في كثير من السياقات القرآنية تحت عناوين شتّى، من قبيل النفس والروح والعقل والفؤاد، إضافة إلى كثير من المفردات التي تبيّن حقيقة المهام التي على الإنسان أن يؤدّيها في طريق الكدح إلى الله تعالى.

كان لا بدّ من تناول هذا المبحث بشيء من التفصيل، نظراً لما أوجز فيه العلماء لناحية تحديد المصطلح في مجال التقسيم دون أن يتعدّاه إلى معنى القلب في الاصطلاح القرآني، حيث تبدّى لنا أن معنى القلب يتمايز من حيث هو رؤية قلبية ذات علقة ربّانية، أو لطيفة ربّانية، ومن حيث هو باطن له تمظهرات مختلفة، وهذا الفهم ليس بعيداً عن معاني اللغة، باعتبار أن قلب الشيء يطلق على داخله الذي يخفي وراءه ظاهره، فيكون بمعنى الباطن، تماماً كما يكون اللبّ بما هو باطن في معنى العقل مقابل القشر.

وبما أن القلب الذي نتحدّث عنه هو القلب المعنوي، فلم يبق ثمة مجال للبحث عن الأمور الحسيّة التي هي في باطن الإنسان، لكون هذه الأمور هي مجرى البخار القلبي في التجويف القلبي، وتتأثر بحالات القلب المعنوية بحسب ما يكون عليه الإنسان من صحة اعتقاد وعلم أو عدمه. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يبقى ثمة مجال للقول بأن هناك تصرفات وتحولات نحو الخير يمثلها القلب، وأخرى تنسب إلى النفس إذا كانت متجهة نحو الشرّ، وهذا ما سيكوّن مجال لبحثنا في العناوين اللاحقة إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

القلب الروحاني والقلب الجسماني

إنّ تركيز القرآن الكريم على حقيقة القلوب ودورها في التحقق الإيماني والاعتدال النفساني، يكاد يلحظه كل متدبّر في آيات الله تعالى، حيث نجد عشرات الآيات القرآنية التي تتحدث عن القلوب وتمايز بينها، في الأوصاف والأسماء حتى ليكاد الباحث أن يتوهم أنها ليست إلاّ مفردات قرآنية مترادفة لا فرق بينها، وقد أجملنا الكلام في اللغة والاصطلاح بما لا يترك إيهاماً، ولا يُحدث التباساً في حقيقة أن هذه المفردات وإن كانت لا تختلف من حيث الأصل، فهي تختلف وتفترق في كمال النضج وعدمه. هذا لجهة المفردات، أما لجهة الأسماء والتوصيفات القرآنية للقلوب، وما تكون عليه من قوة وترسيخ وإيمان، ونفاق، ومرض، وإنابة وسلامة، فهذا مما ينبغي التوقف عنده والحديث عنه بما ينسجم مع خطة بحثنا في هذه الدراسة التي أردنا لها أن تكون جامعة لما تشتت في بحوث القوم، ومبيّنة لما التبس في نظرياتهم عن الروح والقلب والعقل والفؤاد، وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن من مفردات، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ العلاّمة مكارم الشيرازي حاول في تفسيره الموضوعي أن يقدّم رؤية متميزة حول هذه المقدمات، ولكنه رغم ما قدّمه من تعريفات وإيجابيات لم يخلص إلى نتيجة واضحة في بحثه مما زاد من تعقيد البحث في مفردات القرآن، وأورث همّاً جديداً للباحث، بدل أن يضعه أمام رؤية بحثية كاشفة عن حقيقة التمايز بين المصطلحات، فالعلاّمة ذهب إلى القول بأن العقل عندما ينضج يطلق عليه «**فؤاد**»، وجمعه «**أفئدة**»، إذ هو ينسب الفؤاد إلى العقل في تمام نضجه[1]، ثم يعرّف القلب بأنه يراد به الروح والعقل والعلم تماشياً مع

(١) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ص١١٠.

إطلاقات العلماء في كون القلب هو الفؤاد متوقداً، فلو أن الباحث الجليل ركّز على مبحث القلب بما هو عقل وروح وعلم وفهم وشعور وإدراك وعواطف، وبما هو مركز جسم الإنسان وروحه، لكان الأمر أكثر وضوحاً، طالما أن العلماء أجمعوا على أنه إذا ذكر القلب في القرآن والسنّة، فإن المقصود به هو الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنّى عنه بالقلب الجسماني الذي في الصدر، وتوجد بينه وبين اللطيفة الربّانية المدبّرة علاقة خاصة تخرجه عن كونه قلباً مادياً لتجعل منه قلباً ومركزاً لكل حياة وتدبير، لكون هذا البدن الجسماني هو مملكة هذا القلب والمجرى الأول لتدبيرها وتصرفها.

لقد رأينا كيف أن العلاّمة الغزالي يجمع بين القلب والصدر ليجعل النسبة فيهما إلى الإنسان كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى من وجه[1]. وهذا ما شرحه الإحسائي، بقوله: «**تلك اللطيفة الربّانية هي المعبّر عن القلب تارة، وبالنفس أخرى، وبالروح أخرى، وبالإنسان أيضاً وبالعقل أيضاً، وله علاقة مع القلب الجسداني، وقد تحيّر عقول أكثر الناس في إدراك وجه علاقته، إلاّ أنه معلوم أنها الشيء الذي يعلم ويفقه، وقد يكنّى عنه بالقلب في الصدر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]، وذلك لما عرفت من العلاقة الواقعة بينه وبين جسم القلب، وإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأول بالقلب، فكأنه محله ومملكته وعالمه ومطيّته، ولذلك شبّه بعض العلماء القلب بالعرش، والصدر بالكرسي... وهذا التشبيه من بعض الوجوه، وهذا المعنى من القلب والجسد، بمنزلة الملك، وله فيه جنود وأعوان...**»[3].

---

(١) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، م. س، ج٣، ص١٨. وقا: مع رسائل الغزالي، م. س، ص٤٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٣) الإحسائي، ابن أبي جمهور، (ت ٨٨٠هـ) عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث النبوية، تحقيق السيد مرعشي، قم، ط١، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٢٥٠.

أ. القلب بين الروح والجسد

لقد ركّز العلماء في بحوثهم القرآنية في مجال الحديث عن القلب على ضرورة التمييز بين القلب الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وفي باطنه تجويف فيه دم أسود، وهو منبع الروح الحيواني ومعدنه، وبين القلب بما هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، وتلك اللطيفة هي التي تشكل حقيقة الإنسان المدرك العالم المخاطب المطالب المثاب المعاقب، وفي تعريف الغزالي في بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل، يقول: «**اعلم أنّ هذه الأسامي الأربعة مشتركة بين مسمّيات مختلفة، ويرى أن كل اسم من هذه الأسماء يشترك بين معنيين، فالروح تتعلق بمعنيين، الأول: هي جسم لطيف بخاري حامله دم أسود ومنبعه تجويف القلب الجسماني، وينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر البدن، وجريانها في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج في زوايا البيت. فالحياة: مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثاله السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحرّك محركه، فالأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب.**

أما المعنى الثاني للروح، فهو ما سبقت الإشارة إليه، اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الإنسان الذي هو أحد معنى القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[1]، **وهو أمر عجيب ربّاني يتحيّر أكثر العقول والأفهام عن درك فهم حقيقته..**»[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الغزالي، أبو حامد، مجموعة رسائل، م. س، ص٤٠.

إن الحديث عن حقيقة تلك الروح بما هي لطيفة ربّانية لا بدّ أن يسوقنا إلى البحث في معنى القلب الذي يريد القرآن تظهيره على نحو يمكن للباحث، لكل باحث، من العقل عن الله تعالى، بحيث يفهم أن مؤديات التدبّر في الآيات القرآنية ليس مجالها القلب الصنوبري الشكل، العضو المعروف، لأنه في زمن البعثة، وما كان عليه الناس من تصحُّر معرفي وثقافي لم يكن يسمح للرسول ، أو للوحي بشكل عام أن يتحدث إلاّ عن القلب بما هو إيمان وكفر وحب وكره، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدّث عن القلب المؤمن، أو القلب المريض، أو القلب السليم. فالقرآن يتحدث عن القلب العاقل الواعي الذي يحمل المسؤولية الكاملة، إيمان الإنسان وكفره، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ...﴾[4]، وهذا تعبير كما يرى بعض الباحثين من المسلمين وغير المسلمين، لا يوجد في غير القرآن، من حيث نسبة الكسب إلى القلوب، باعتباره قوة بدنية.

ولا شك في أن القرآن حينما يعبر عن القلب بالكسب، فهو حتماً ينقله نقلة جديدة وفريدة، ويعطيه كل الإمكانيات لكسب الإيمان والكفر والحب والكراهية،.. وهذا لا يكون له إلاّ من خلال ما أودع فيه من سرّ ربّاني يؤهّله لحمل المسؤولية، ويعطيه قدرة التعبير عن الانفعالات القلبية من خلال لفظ «**كسبت**»... وكما يعلم أهل البحث والعلم، أن هناك فرقاً كبيراً بين أن تكون لهذا القلب تعبيراته المادية،

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

وبين أن تكون له رؤية قلبية، وعيون قلبية، كما قال الرسول ﷺ: «**ما من قلب إلاّ وله عينان وأذنان، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**»[1]. وبالتأكيد، فإنّ هذه العيون للقلب لها تعلّق بتلك اللطيفة القرآنية التي تحيّر في فهمها أولي الألباب.

إن من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها الباحثون هي أنهم خلطوا بين ما يكون للقلب من حالات ومشاعر ووجدانيات، وتحولات وجريان ومضارب في العروق من حيث تدبير البدن، وبين ما لهذا القلب من تعلق باللطيفة الربّانية العالمة والمدركة، وإن كانت هذه أيضاً مما يقلبها الرحمان، وهذا ما أوقع الأطباء في أوهام التعلق، فرأوا أنه يمكن تفسير هذا التعلق مادياً، معتمدين على العلوم التجريبية فقط بما يرونه ويحسّونه، وهذا، كما نعلم، أوقعهم في أخطاء علمية جسيمة، لأنّ هناك أموراً كثيرة خارجة عن إدراك البشر، وقد أجاب القرآن عن كثير من الأمور في سياق التأكيد على حقيقة القلب المعنوي الذي يتجاوز البخار اللطيف الذي ينضجه القلب ليكون له حالة من الكسب في دائرة الرؤية القلبية، وكما يقول بعض العلماء في شرح عيون القلب، بالإشارة إلى أبصار العين التي لمشاهدة عالم الملك، إذ هو لا يتيسر إلا برفع الموانع وتحقق الشرائط، ومن جملتها مصادفة نور العين لنور آخر كنور الشمس والقمر، أو النار، كذلك بصيرة القلب بشهود عالم الملكوت لا تتأتّى إلاّ برفع العلائق والعوائق وتحقق الشرائط، ومن جملتها إشراق نور آخر عليه من نور الحق، أو بعض مقربيه كنور العقل الفعّال، وهذا ما تمتّ الإشارة إليه بتحقق العلاقة الخاصة بين اللطيفة الربّانية المحيرة، وبين الجسد الإنساني. وإذا كان القلب الجسماني أيضاً، هو ممن يكون له نوع من التعلق، فهذا مما يكون له لجريان البخار

(١) انظر: الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي الغديرية في الأحاديث الدينية، (ت ٨٨٠هـ)، تحقيق المرعشي، والشيخ العراقي، قم، ط١، ١٩٨٣م، ج٤، ص١١٦. وقا: مع الحرّ العاملي، الفصول المهمة في أحوال الأئمة، (ت ١١٠٤هـ)، قم، ط١، ١٤١٨هـ، ج١، ص٢٦٢ .

اللطيف الذي هو بمثابة الروح الحيواني، وقد أكّد علماء النفس هذا المعنى بالقول: إن الله تعالى مقلّب القلوب الصنوبرية، يريد قطعة اللحم الموجودة في الجهة اليسرى من الجسد، من الاعتدال إلى الانحراف، ومن الانحراف إلى الاعتدال، وهذا ما يختص به علم الطب، وفي الحديث: «**ألا وإن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، وكذا هو مقلّب القلوب المعنوية من الاعتدال إلى الانحراف وبالعكس...[1].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه يُستفاد من هذا الحديث، وخاصة من مفردة «**كلّه**» أنها إشارة إلى أن القلب ذاتي، فهو العضو الوحيد الذي يستقل بالذاتية، وهو الرئيس في توجيه الحركة، سواء باتجاه عالم الملك أم باتجاه عالم الملكوت، بحسب ما يكون له من صحة تعلق باللطيفة الربّانية، باعتبارها المقلبة للقلوب، سواء المادية أم المعنوية، ومرتكز هذا التحوّل هو هذه المضغة التي هي سبب كل صلاح وفساد في حركة الإنسان المادية والمعنوية، وفي هذا المعنى يقول الريشهري: «**إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة**» اللمظة[2]، وإذا عمل بالجوارح عملاً صالحاً ازدادت.

إذاً، الله تعالى هو مقلّب القلوب، وهذا ما أشارت إليه الآيات بتقليب الأبصار والأفئدة، بأن تكون تارةً مليئة بالإيمان، صادقة القول والفعل، وتارةً بأن تكون هواء، فذلك كله إنما يعود إلى طبيعته، بل إلى حقيقة التعلق باللطيفة الربّانية التي هي سبب كل حياة، وأكثر ما يتظهّر لنا هذا التعلّق الدائم المباشر والذي لا يحول بينه شيء، هو قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3].

(١) صالح، عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة الإسلامية، دار النصر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٣٠.
(٢) انظر: الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، دار الحديث، ط١، ج١، ص١٩٨م. وقا: الزبيدي، تاج العروس، م. س، ج٥، ص٢٦٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

كان يجدر بالأطباء، أو بغيرهم ممن أخطأ الهدف في تفسير القلب وتعابيره، أن يقولوا، نعم هناك شيء غير مفهوم، وأن يسلّموا بأن القلب له وظيفة أكبر من البخار اللطيف الذي تنظّمه حرارة القلوب، وأكبر من الإدراك، أو أن هناك أموراً غير مفهومة لجهة هذا التكثيف والتحشيد في الآيات القرآنية حول القلب والصدر والروح والنفس والعقل والفؤاد، وغير ذلك، والذي هو كاشف بذاته عن أن القلب ليست وظيفته منحصرة بضخّ الدم وحسب، بل يتجاوز ذلك إلى مهام أخرى تخرج القلب عن كونه مخصوصاً بعالم الملك وتحولاته إلى عالم الملكوت ومشاهدته، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1] [2].

مما تقدّم، نخلص إلى القول بأنه إذا كان للقلب هذا المعنى والذي هو أعمّ وأشمل من أن يكون له تعبيره المادي، فذلك يحتّم على الباحثين وعلماء الدين، ونخص الحوزات العلمية هنا، التي تعطي حيّزاً كبيراً لدراسة تزكية القلب، أن يتدبّروا قليلاً

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.

(٢) من غريب الأمر أن تضطرب أقلام المفسرين في موضوع الرؤية القلبية في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، بين قائل بأن رؤية القلب بما رآه البصر، كما ذهب الزمخشري، وقائل بأنها الرؤية القلبية المفيدة لوحدة النفس الإنسانية، كما ذهب الطباطبائي قدس سره، حيث رأى نسبة الرؤية إلى الفؤاد الذي لا شبهة في كون المراد به هو النفس الإنسانية الشاعرة دون اللحم الصنوبري المعلّق على يسار الصدر داخلاً، وهو لم يكتفِ بذلك بل فنّد رأي الزمخشري مبيّناً أنه لو كان ضمير «ما رأى» للنبي صلى الله عليه وآله كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده، وهذا بعيد من دأب القرآن، وهو بخلاف ما لو رجع ضمير «ما رأى» إلى الفؤاد، فإنّ محصّل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه، ويجري الكلام على السياق السابق الآخذ من قوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. ولا شك في أن العلامة الشيرازي، وكذلك العلامة مغنية قد وافقا الطباطبائي على تحقق الرؤية القلبية من خلال النفس الشاعرة.

را: الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج٨، ص٣٤٥. ورا: مجلد ١٩، ص٣١. وقا مع: الشيرازي، مكارم، تفسير الأمثل، في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ج١٣، ص٣٠٨. وقا: مع مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١م، ج٣، ص١٧٥. وقا: مع الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٩م، ج٤، ص٤١٠.

فيما أكد عليه الطريحي وغيره من العلماء لجهة القول بأن القلب الصنوبري بما هو لحم مخصوص في باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود، وهو منبع الروح ومعدنه، يقول: «**وهذا المعنى للقلب موجود للبهائم، بل للميت...**»[1]. أما ذلك القلب الذي تحيّر فيه العلماء وأولو الألباب، فهو ذلك القلب الذي من أحد معانيه الروح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...﴾، وتكون النتيجة دائماً هي أنه لا جواب علمي أو ديني عما تعنيه هذه العلقة، ولكننا نرى أنها ليست مجهولة تماماً، وإنما هي ملحوظة في سياق الرؤية التوحيدية في القرآن، وخاصة في مجال التوحيد الذاتي، حيث نرى العلماء يتحدّثون عن التوحيد، ويأمرون الناس بأن لا يفكروا في ذات الله تعالى، لقول الإمام علي عليه السلام: «**واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله . تعالى . اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين....**»[2]، فإذا كانت هذه اللطيفة الربّانية محيّرة، وغير ممكنة الإدراك من حيث كنه حقيقتها، لكون هذه الروح من أمر الله تعالى، فإنّ القرآن يكشف لمتدبّر بصير أن القلب الإنساني هو المعبّر عنه بهذه اللطيفة الربّانية التي تشكّل حقيقة الإنسان المدرك العالم المثاب المعاقب، فهي إن كانت على نور من ربّها، ومأخوذة بلحاظ فطرتها، وما طبعت عليه من توحيد تؤكّد حقيقة الوحدة، أو الوحدة الحقيقية لهذه اللطيفة التي تقف وراء كل القوى والأفعال سواء سُمّيت بالقلب أم بالروح أم بالنفس أم بغير ذلك مما توارد من مفردات قرآنية، كما أنها

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ج٤، ص١٤١.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمد، ومحمد دشتي، دار الأضواء، بيروت، ط١٩٨٦، الخطبة: ٩١، فقرة: ١٢.

تظهر بوضوح حقيقة الاتصال بخالقها من حيث هي دالّة من أوجه على وحدانية الله تعالى، يقول يونس العاملي: «**الروح لطيفة ربانية لاهوتية في جثة ناسوتية دالّة من عشرة أوجه على وحدانية ربّانية:**

١ ـ لما حرَّكت الهيكل ودبرته، علمنا أنه لا بدّ للعالم من محرّك ومدبّر.

٢ ـ دلَّت وحدتها على وحدته (تعالى).

٣ ـ دلّ تحريكها للجسد على قدرته (تعالى).

٤ ـ دلّ اطلاعُها على ما في الجسد على علمه (تعالى).

٥ ـ دلّ استواؤها إلى أعضائه على استوائه إلى خلقه (تعالى).

٦ ـ دلّ تقدّمها عليه وبقاؤها بعده على أزله (تعالى).

٧ ـ دلّ عدم العلم بكيفيتها على عدم الإحاطة به (تعالى).

٨ ـ دلّ عدم العلم بمحلها من الجسد على عدم أَيْنِيَّتِه (تعالى).

٩ ـ دلّ عدم مسها على امتناع مسّه (تعالى).

١٠ ـ دلّ عدم إبصارها على استحالة رؤيته تعالى»[١].

إلى غير ذلك مما ساقه العلاّمة من أدلة للتدليل على تحيّر العلماء وأولي الألباب في معرفة كنه هذه اللطيفة، ويكفي أن يتأمل الإنسان في ذات نفسه ليدرك، كما صرّح الشيخ الرئيس ابن سينا في الإشارات والتنبيهات، أنه يكفي أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويتأمل، إن كان صحيحاً، بل على بعض أحواله، أنه لا يغفل عن ذاته، وأن الجوهر فيه واحد...[٢].

(١) العاملي، زين الدين، أبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (ت ٨٧٧هـ)، تحقيق محمد باقر البهبودي، مطبعة الحيدري، المكتبة الرضوية، ج١، ص١٥٦.

(٢) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٢، ص٣٤٣.

كما ينقل الغزالي في إحياء علوم الدين، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في تمثيل القلوب: «**إنّ لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب، فأحبّها إليه تعالى أرقّها وأصفاها وأصلبها، ثم فسّرها فقال: أصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقّها على الإخوان**»، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وقيل قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي يستفاد من تفسيرها موضوعياً، أنها ليست آيات محصورة بالقلوب ومفرداتها في القرآن، وإنّما هي تمتدّ في القرآن امتداد النور في القلوب، وهذا النور الذي تنقشع به العوائق والعلائق لتكون عيون القلب مشاهدة لجمال المحبوب في عين كونها مسكونة القلوب، ذلك هو معنى أن يكون القلب روحاً وجسداً ونفساً وعقلاً، لما عرفته من معنى اللطيفة الربّانية المدركة والعالمة، والتي أريد لها أن تكون في جثة ناسوتية لها ما يميزها عمّا في البهائم والأموات.

إنّه القلب الواعي والعاقل، الذي خاطبه القرآن، وجعله حياً بحقائق الإيمان، وقد جاء في ميزان الحكمة ج٣، ص ٢٦٠ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الخبر القدسي أنه قال: «**لم يسعْنِي أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللّيِّن الوادع**»، ولا يمنعه أن يكون كذلك، إلاّ أن تنحرف به الشهوات وتقلبه الأهواء وقوى النفس المختلفة، التي ترفض السكون لأمر الله تعالى، فتؤدّي به إلى أن يكون قلباً مريضاً، أو قاسياً، أو مطبوعاً عليه، أو منكوساً، كما جاء في أوصاف القلب المختلفة والكثيرة في القرآن الكريم، فإذا ما اطمأنّ هذا القلب بذكر الله تعالى، فإنه لا يلبث أن يتحول إلى قلب ليّن وادع ومطمئن، لأنّ حاكمية هذا القلب وتدبيره وفق أمر الله تعالى، لا بدّ أن تؤدّي به إلى مسلكية تتوافق وفطرة الإنسان التي فُطر عليها، بحيث يكون منه العلم والاعتقاد السليمَين اللذين يؤدّيان به إلى قطع مراحل اليقين ليصل إلى عين اليقين.

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

وكما تقدم الكلام، أن لهذا القلب، كما يُستفاد من آيات القلوب، وخاصة آيات الكسب، خاصية ذاتية تؤهله للكسب والتحول والتوفر على حياة معنوية، ورؤية قلبية تكشف الحجب وتزيل العوائق تصله بالملأ الأعلى ومشاهدة الملكوت، وقد بيّنا أن هذا القلب الصنوبري له امتياز مادي، كما له امتياز معنوي، وذلك لجهة كونه العضو الوحيد من بين سائر الأعضاء الذي يعمل دون اتصال بالأعضاء الأخرى، تماماً كما لو أخرجنا القلب، فإنّه يظلّ ينبض لفترة، هذا فضلاً عن تميّز حالاته فيما يكون له من تحوّل وتقليب وتوجيه، سواء بالمعنى المادي أم بالمعنى الروحي، إضافة إلى تميّز هذا القلب بما له من تعلق في وحدة الروح المدلّلة على سرّ الخلق العجيب فيما يرشد إليه من توحيد في الدلالة على وحدانية الخالق تعالى، وهنا يكمن سرّ المعرفة فيما تنطوي عليه حجب الغيب والسُّدد المضروبة دون العلم بحقيقة هذا القلب، وهذا مما لا يُبقي حيرة لمتسائل، بعد أن تتكشّف له حقيقة هذا النور الربّاني في لطيفة الإنسان المدركة، بحيث يقول، سبحان ربّي العظيم...

ب: القلب والعقل وحقيقة العلم

بدا لنا مما تقدّم أن أهل اللغة خلطوا بين الأسماء، وماثلوا بين المفردات لدرجة اعتبار كل مفردة تحمل معنى المفردة الأخرى، دون ملاحظة حقيقة المؤدّى اللغوي والسياقي في القرآن الكريم، وقد بيّن الغزالي هذا المعنى من خلال الإشارة إلى حصول التفرقة في كمال النضج لا في أصله...[1]. كما لاحظنا أيضاً أنّ علماء المسلمين قد خصّوا كل من القلب والروح والنفس والعقل بجنبة روحانية، حيث جعلوا لكل مفردة معنيين اثنين، أحدهما يتعلّق بالمعنى المادي، والثاني يتعلق بالمعنى أو البُعد المعنوي أو الروحاني، وهذا التقسيم أورده الغزالي مفصلاً

(١) الغزالي، مجموعة رسائل، م. س، ص٤١.

في رسائله[١]، مبيناً أن القلب في معناه الروحاني هو لطيفة ربّانية تشكل حقيقة الإنسان، والروح بما هي جسم لطيف بخاري منبعه تجويف القلب، هي لطيفة عالمة مدركة في الإنسان، وتشكّل أحد معاني القلب المراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾[٢]. وكذلك الحال بالنسبة إلى النفس والعقل إذ جعل لكل منهما بعداً روحانياً ربّانياً، مدللاً على أن لفظ النفس هو أيضاً مشترك بين معنيين، الأول: يراد به الجامع لقوتي الغضب والشهوة في الإنسان. والثاني: هو اللطيفة الربّانية التي تشكل حقيقة الإنسان ونفسه وذاته[٣]، وهكذا العقل، فقد جُعل له معنيان، أحدهما: يراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محلّه خزانة القلب. والثاني: مطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب، أعني، والكلام للغزالي، تلك اللطيفة التي هي حقيقة الإنسان[٤].

نلاحظ أن المفردات القرآنية المتعلقة بالقلب والعقل والروح والنفس، كلها تنطوي على معنى ثابت تتجلّى به بحسب ما يكون لها من تحوّل ونضج وكمال، وإن كانت في الأصل مترادفة على ما يرى بعض الباحثين، فإذا كان القلب موضوع البحث هو الذي يشكل حقيقة الإنسان بما هو لطيفة ربّانية مدركة وعالمة.. فإن العقل هو القوّة المتهيئة لقبول العلم، يقول الراغب في مفرداته: «**إنّ العقل يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة، ولهذا، قال أمير المؤمنين علي** عليه السلام:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

(١) م.ع، ص٤٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) م.ع، ص.ن.
(٤) م.ع، ص٤١.

وإلى الأول أشار النبي بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل. وإلى الثاني أشار بقوله: ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى، وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]. **وكل موضع ذمّ الله تعالى فيه الكفار بعدم العقل، فإشارة إلى الثاني دون الأول، نحو قوله تعالى:** ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، **ونحو ذلك من الآيات»**[3].

لقد استعمل القرآن الكريم مفردات كثيرة للإشارة إلى العقل، من قبيل العقل، والحُجْر، والنُّهى، وفي آيات أخرى استعمل مفردة «**الألباب**»، إلى غيرها من الآيات التي أجمع أهل اللغة على أنها في الأصل تعني المنع، باعتبار أن العقل هو من العقال، أي الحبل الذي يُشدّ به ساق البعير لمنعه من الحركة، وبما أن العقل يردع الإنسان عن القيام بالأعمال المشينة، فقد أطلقت عليه هذه المفردات[4]. وكما أشرنا سابقاً إلى أنّ هذه المفردات لم تأتِ في القرآن لتفيد انتفاء التفرقة بينها في المؤدّي والفعل، بل يمكن حصول التفرقة بينها في كمال النضوج، وهذا إنما يكون بملاحظة السياق القرآني الذي يأتي بالمفردة تارةً بمعناها الحقيقي، وتارةً بمعناها المجازي. كما جاء في مفردة الصدر للتدليل على القلب، ومفردة اللب، لإفادة معنى العقل الخالص، وقد يصحّ القول منا أنه مثلما أن الله تعالى في القرآن قد أعطى تمايزاً للألباب على العقول، أعطى للأفئدة تمايزاً على القلوب والعقول، وهذا ما تجلّى في استعمال القرآن لمفردة اللبّ، إذ لم يقل فاعتبروا يا أولي العقول، وإنما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[5]، باعتبار أن كلّ لبّ عقل، وليس كل عقل لبّاً، وهو

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٣) الراغب، الأصفهاني، معجم ألفاظ مفردات القرآن الكريم، م. س، ص٣٥٤.
(٤) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، ٢٠١٢، ج٢١، ص١٠٩.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢.

يطلق على العقل في مراحله الرفيعة والخالصة وغير المشوبة بالنقص، لأن اللبّ يطلق على باطن كثير من الأمور، باعتباره خالصاً من القشور.

وهكذا، فإن ما سبق من كلام في معنى القلب لا بدّ أن يكون محفزاً لهذا المبحث، طالما أن العقل هو خاصة من خواص الروح، لا كما زعم فلاسفة المدارس المادية من أنه شيء مادي، وقد أقام ابن سينا في كتابه الإشارات والتنبيهات أدلة كافية وشافية لمن كان له قلب، يثبت من خلالها حقيقة القوة المدبرة للإنسان كبرهان الرجل الطائر، وبرهان الأنا، فضلاً عن برهان تمايز الجسد عن العقل فيما يكون لهما من تحول واختلاف في القوى المادية والعقلية[١]. وبما أن القلب والنفس والروح في حقيقة الأمر هي واحدة عند الحكماء كما يكشف الملاّ صدرا في مفاتيح الغيب[٢]، فإنّ العقل الذي هو العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة المتهيئة منه لقبول ذلك العلم، والذي هو خاصة من خواص الروح أيضاً، يمكنه إدراك حقائق الأمور، ومعرفة الأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العلمية، باعتبار أن هناك كثيراً من الأمور التي لا تدرك بالحواس، وقد خصّ العقل بالقوانين والمبادئ الحاكمة التي تصحح أخطاء الحواس رغم ما لهذه الأخيرة من دور في مجال العلم، إلاّ أنّ الحواس بقدرتها المعروفة في الإنسان إنّما هي أدوات برغماتية تتّسم بطابع المنفعة[٣]، مع ملاحظة أن قدرتها كما يرى «**العيسوي**» لا تتسع للإدراك الدقيق وتخضع للخداع والعجز حيث يتعذّر الإبصار في الظلام مثلاً ويبقى العقل وحده القادر على أن يصحّح أخطاء الحواس وتصورها، لكونه بوجه عام هو الذي يميّز

(١) را: ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح الطوسي، م. س، ج٢، ص٣٤٣.

(٢) الملاّ صدرا، صدر الدين الشيرازي، مفاتيح الغيب، فصل حدوث النفس، م. س، ص٥٣٦.

(٣) يقصد بالبراغماتية ما يُراد به أن معيار الحقيقة هو العمل المنتج لا مجرّد التأمل النظري، والأفكار إنما تكون صادقة وحقّة فيما تؤدّي إليه من قيمة عملاً... والبراغماتي بوجه عام، هو وصف لكل ما يهدف إلى النجاح وتحقيق منفعة خاصة به، وهذا بخلاف أحكام العقل وبديهيّاته التي من دونها لا قيمة للعلوم إطلاقاً. انظر: عبد الرحمن العيسوي، مناهج البحث العلمي، م. س، ص٩٦.

بين الحق والباطل، ويقوم بعملية البرهنة والاستدلال[1] باعتبار أن بديهيات العقل وقوانينه الفطرية هي الحاكمة على كل تحوّل إنساني مهما بالغ الحسيّون والماديون، والمثاليون في التقليل من قدرات العقل ودوره في تحقيق المعرفة الصحيحة التي يبتني عليها بتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا ما جاءت النبوة لتعزيزه وتظهيره وتحكيمه على نحو يؤدّي بالإنسان إلى معرفة الخير من الشر والحق من الباطل، لأن النبوة، هي إنما جاءت لأجل إثارة دفائن العقول، كما أفاد أمير المؤمنين عليه السلام[2].

لقد جاء في الروايات الإسلامية أن الله تعالى خلق الملائكة بعقل دون شهوة، وخلق الحيوانات بشهوة دون عقل، وخلق الإنسان بعقل وشهوة، فإذا غلب عقله شهوته، فإنه يكون أرفع شأناً من الملائكة لما يملكه من حريّة وإرادة اختيار تجعله قادراً على إحداث التمايز لنفسه في سلّم المخلوقات، وإذا كانت الحقائق الدينية مرتكزة إلى إثارة العقل على النحو الذي يجعله مدركاً للحق وعارفاً بحقائق الأمور، فإنّ الإنسان هو وحده المخصوص بالقلب والعقل والإرادة دون غيره من المخلوقات. وكما يقول العضيمة: «**هو وحده الذي يمتلك القدرة على الارتقاء في المراتب المعنوية والدرج العقلية، حتى يبلغ رتبة الملائكة، في حين إن الحيوانات والنباتات تبقى كما هي مخلوقة... والإنسان بإرادته يملك إمكانية إدراك عاقبة الأمر، وطريق الصلاح بالعقل، إذ من العقل ينبعث شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها... فإنّ الشهوة مثلاً تنفر من الدواء والعمل الجراحي، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها... ولو خلق الله تعالى العقل المعرف**

(١) م. ع، ص٩٧.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته... ويثيروا لهم دفائن العقول، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويروهم آيات المقدرة...». نهج البلاغة، م، س، الخطبة: ١، فقرة: ٣٧.

بعواقب الأمور ولم يختلق فيه هذا الباعث المحرك للأعضاء، الذي هو الإرادة، على مقتضى حكم العقل، لكان حكم العقل ضائعاً على التحقيق[١]، ولعلّ هذا ما عناه الغزالي بصفة العلم الذي محله خزانة القلب[٢].

ثم إنّه يمكن للباحث أن يتأمّل جيداً في مفاد قول أمير المؤمنين في معنى العقل المطبوع والعقل المسموع، المشار إليهما في كلام الرسول في أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أكرم عليه من العقل، ذلك أن أدنى تدبّر لا بدّ أن يكشف عن حقيقة هذا العقل المطبوع الذي هو ما فطر عليه الإنسان، وما نفخ فيه من روح الله تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[٣]، فالآية ناظرة إلى حقيقة ما فطر عليه الإنسان، وما خصّ به من تشريف بأن خصّ بلطيفة نورانية روحانية تشكل حقيقة الإنسان العالمة والمدركة، وكما يقول الشيرازي: «**إن هذه الروح التي نفخت فيه هي التي تشكل جوهر العقل، وقد أضيفت إلى الله تعالى، ويقال لهذه الإضافة، إضافة تشريفية، لأنّ الله تعالى لا روح له ولا جسم، ولأجل هذه الروح الإلهية سجد الملائكة المقرّبين لآدم وإلاّ فالطين والتراب لا قيمة لهما، وهذا تأكيد شديد على أهمية وقيمة العقل...**»[٤].

كما يمكن لأي باحث أيضاً أن يتأمل جيداً فيما تعنيه خزانة القلب الإنساني من علم إلهي له طابع التكوين كما في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴾[٦]، إلى غير ذلك مما شرّف الإنسان وجعله متميزاً في روحه ونفسه وعقله وقلبه، الذي هو في الحقيقة تميّز واحد له

(١) را: صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، م. س، ص٣٣٠.
(٢) الغزالي، مجموعة رسائل، م. س، ص٣١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٤) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص ١٣٩ (بتصرُّف).
(٥) سورة الرحمن، الآيتان: ٣ ـ ٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٣١.

حقيقة واحدة هي تلك اللطيفة الربانية التي تستوي على كل مفردات القرآن، سواء أكانت تعني القلب، أم الروح، أم النفس، أم العقل، باعتبار أن ذلك كله يعني الإنسان في وحدة روحه ونفسه وذاته، وهو من خلالها ومن خلال ما خصّ به من تشريف وتكليف يرتقي في مدارج الكمال وتكون له مراتب الملك والملكوت، ويأتي العقل بما هو مطبوع ومسموع ليحدث تحوله المعرفي في ضوء هدى الله تعالى، لما جاء في الروايات الإسلامية عن أهل البيت عليهم السلام، كما في قول الإمام موسى الكاظم عليه السلام في مخاطبة هشام بن الحكم بقوله له: «**يا هشام؛ ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلاّ ليعقلوا عن الله تعالى، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة**»[1].

نلاحظ أن الإمام الكاظم عليه السلام ربط بين العلم والعقل، وبين كمال العقل وارتفاع الدرجات في الدنيا والآخرة، وهذا ما كان ليتمّ إلاّ لأن الله تعالى بعث الرسل والأنبياء لإثارة دفائن العقول من خلال الوحي، بحيث يتعاضد وحي الداخل مع وحي الخارج ليكون للإنسان مساره التكاملي، وتحققه العلمي الذي يؤدّي به إلى نيل الدرجات، وتحقيق السعادة. ذلك هو معنى القلب والعقل في القرآن، وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الله تعالى في القرآن قد خصّ العقل بالفعل، ولم يأتِ به مصدراً أو اسماً للتدليل على أن ما يكون للإنسان في مسار تعقله، هو إنما يكون له بما يأتيه من فعل، ويقوم به من توظيف للقدرات والطاقات العقلية والكسبية في طريق الكمال، وهذا سرّ من أسرار القرآن على الباحثين أن يتدبّروا فيه جيداً، حيث قال تعالى عن الكفار: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فكل الآيات جاءت بصيغة الفعل، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على حقيقة الفعل وما يمكن أن يتميز به الإنسان من درجات في نيل المراتب، فيما لو استجاب لأمر ربّه

(١) را: الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، (ت ٣٢٩هـ)، مطبعة الحيدري، دار الكتب الإسلامية، ط٣، ١٣٨٨هـ، ج١، ص١٦.

وعقل عنه سرّ نفسه، وقد أشار الأئمة إلى هذا التمايز بين أن يستجيب الإنسان لمعرفة، أو يعلم بعقل بحيث يكون له كمال العقل بعلمه، حتى يتميز في درجته سواء في الدنيا أم في الآخرة.

كما أن هناك الكثير من الأحاديث النبوية التي ترشد إلى أهمية العقل ودوره في تحقيق الكمال الإنساني، حيث قال ﷺ: «**ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ... ، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل والعقلاء هم أولوا الألباب ...**»[1].

وقال ﷺ: «**إنّ الرجل ليكون من أهل الجهاد، ومن أهل الصلاة والصيام، وممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يُجزى يوم القيامة إلاّ على قدر عقله**»[2].

هناك مئات الأحاديث عن العقل التي تؤكّد على دوره، بما هو عقل مطبوع ومسموع، مرتكزه الفطرة والقلب والروح، وصيرورته أن يكتسب حقيقته بما يعقله عن الله تعالى، وقد قيل إن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس، لكن الخلاف في الكسب، فهم يختلفون في درجة توظيفهم للعقل، لذلك كان التعبير القرآني عن العقل بالفعل دون المصدر أو الاسم للدلالة على أن الإنسان مطالب بأن يوظف العقل، وأن يعمل فيه بهدى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وفي آية أخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[4]، إلى غيرها من الآيات التي لا يمكن الفصل بينها وبين روح

(١) انظر: البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، كتاب المحاسن، (ت ٢٧٤هـ)، تحقيق الحسيني، دار الكتب الإسلامية، (لا ت)، ج١، ص١٩٢. وقا: مع شبّر، عبد الله، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ص٦٩.

(٢) را: ريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، م. س، ج٣، ص٣٥. وقا: مع الطبرسي، أبي علي الفضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، (ت ٥٦٠هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج١، ص٧٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٤) سورة طه، الآية: ١٢٣.

الإنسان ونفسه، باعتبار أن حقيقة الإنسان واحدة هي تلك اللطيفة الربّانية التي تتأثر حتماً بفعل الإنسان وما يكتسبه فيما يكون منه من عمل، سواء بالجوانح أم في الجوارح، بدليل أن الكسب أيضاً، هو مما خصّت به القلوب، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾[2]، وبما أن الكسب يبدأ من النية وينتهي بالفعل، فإنّ ذلك يؤكّد لمتدبّر بصير أن كلمة عقل جاءت بالفعل لتدلّل على أنّ للعقل أداء وظيفيًّا، والفعل هو الصيغة الوحيدة التي تدلّل على العمل، ويكفي تدليلاً على ذلك ما ألمح إليه الراغب في مفرداته من أن العقل المسموع هو ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «**ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى**» فالإشارة إلى الكسب في الحديث، فهي إنما ترشد إلى حقيقة ما يكون للإنسان من فعل وعمل، فهو إما أن يعقل عن الله تعالى، فيصحّ قول الله تعالى به: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[3]، وإما أن يضلّ ويتردّى، فيصحّ فيه قول الله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[4].

يبقى أن نقول دون أن نسجّل تكراراً في الكلام، أن القلب متضمن للعقل بما هو عقل مطبوع، وقد اشتملت عليه تلك اللطيفة الربانية التي خصّ بها الإنسان من لدن عليم حكيم، وغفور رحيم، إذ لا تمايز إلا في كمال النضج وعدمه، لأنّ القرآن تحدّث إلى العباد بلغة مفهومة وواضحة، هذا فضلاً عن كون القرآن يبيّن للناس حقائق الأمور بحسب ما يكونوا عليه من اختلاف في الهيئات والاستعدادات، وإذا كانت التعريفات اللغوية قاصرة عن استيفاء المعنى الحقيقي الكامن فيما وراء اللغة، فإن هذا لم يمنع العلماء من القول والتدبّر في آيات الله تعالى على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

النحو الذي يؤدّي بهم إلى إدراك حقيقة المعنى المراد، وطالما أن استجماع الرأي اللغوي يُفيد تحقق المعاني بنحو ما، فإنّ ذلك مما يساعد على بلورة موقف إسلامي (قرآني) من حقيقة هذه المفردات من حيث كونها تشكّل مفاهيم ثابتة تمتدّ في حياة الإنسان، ولا يأتي عليها زمان أو مكان، لكونها ذات أثر بالغ في استيعاب الرؤية الإسلامية من دون أن يكون لاختلاف الرأي حولها أي تأثير سلبي على حقيقة ما تنطق به هذه المفردات في سياقاتها القرآنية المتعددة، بل يبقى لها الثبات في توضيح الرؤية، وتنقيح المناط مهما اختلفت تعابير اللغة، وتباينت آراء الباحثين في الشأن الإسلامي، والقرآني تحديداً، لأن القرآن يوضح أن هذه المفردات لها مرتكز واحد هو ما تنبثق عنه من لطيفة ربّانية ذات معطى إلهي نافذة في حياة الإنسان، وتشكّل وحدته، وقد تحيّرت العقول والأفهام بها.

وبما أنّ العقل، كما أشرنا، هو خاصة من خواص هذا المعطى الإلهي، فإنّ ذلك مما يعزّز رؤية الباحث في توحيد الرؤية وإخراجها عن كونها مجرّد رؤية حيّة لتكون رؤية قلبية، سواء بالعقل أم بالقلب، أم بالروح، أم بالنفس، أم بغير ذلك من المفردات التي تنطوي على معنى القلب والروح والعقل والنفس، فهذا كله إنما يمكن فهمه من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[1]، فهي أمر ربّاني يقف خلف حقيقة الإنسان خلقاً ووجوداً وفعلاً، وهذا ما يعزّز لدينا فكرة توحّد الرؤية في القلب لكونه يتميز بالذاتية والكلية في الحركات والأفعال، وفي الكسب أيضاً...

انطلاقاً مما تقدّم، نرى أن اختلاف المفردات فيما عبّرت عنه من حالات وأفعال، يمكن فهمه من خلال رؤية موضوعية تضمّ الآيات بعضها إلى بعض لاستخلاص موقف واضح من هذه المفردات، وهذا ما قام به ثلّة من العلماء الأفاضل قديماً وحديثاً،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ولكننا أردنا في هذا المبحث المتواضع أن نقدّم رؤية حول ما يعنيه القلب في القرآن من خلال سياقات قرآنية مختلفة، وقد تبيّن لنا أنه لا شيء مستقلّ عن القلب أو غير خاضع له، لما يفيده القلب من تحويل وتقليب ومركزيّة في جسم الإنسان وروحه، إذ به المضغة التي إن فسدت فسد الإنسان، وإن صلحت صلح الإنسان، وإذا كان للقلب هذه المحورية، وهذا المعطى الإلهي، فلا بأس أن نقول بأن القلب أطلق ليدلّ على المتعلّق بالقلب الحسّي، وأطلق أيضاً ليدلّ على الأمور المعنوية، كما أفاد أهل التحقيق في معاني القلب، وبهذا يكون القلب شاملاً للخواطر والانفعالات والرغبات والنوايا، وشاملاً للعقل وأعمال التعقّل والتذكّر والتفكّر والتدبّر، وغير ذلك مما هو داخل في مهام العقل، وشاملاً أيضاً للروح، شمولاً حقيقياً لا مجاز فيه على هذا المعنى المذكور، على اعتبار أن كل صلاح وفساد مرتبط به في ضوء ما يأتيه الإنسان ويكتسبه ويتحقّق به من حقائق الإيمان، أو عدم ذلك، ولهذا جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء**»[1]، فالكل مستند إلى القلب، والقلب بيد الله يقلّبه كيفما يشاء، وقد جاء في الدعاء: يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب...

(١) انظر الكراجكي، ابن الفتح بن علي، كنز الفوائد، (ت٤٤٩هـ)، قم، مكتبة المصطفوي، ط٢، ١٤١٠هـ، ص٨٨.

الفصل الرابع

القلب والفؤاد والصدر

إنّ ما تقدم من شروح وتفصيلات في الفصول السابقة يمكن أن يكون كافياً لبيان معنى ما تتمايز به المفردات القرآنية، رغم اختلاف اشتقاقاتها، وتباين تحولاتها في ضوء ما يكون لها من كمال النضج في تحولات الإنسان ومعارفه، فهذا مما يمكن للباحث أن يفصّل فيه الكلام، رغم أن العلاّمة مصباح اليزدي لم يعطِ مزيد اعتبار لهذا الاختلاف في مبحثه عما يرادف كلمة الإنسان في القرآن[1]، فهو وإن كان يرى هذا البحث مفيداً في الاشتقاق اللغوي، إلاّ أنّه لا يعتبره أساساً للتفسير، هذا فضلاً عن كونه يصرّح بالاختلاف الواضح بين المفسرين لجهة استعمال هذه الكلمات، أهي مرادفة أم بينها فروق؟ وإذا كانت فروق بينها أتعود هذه الفروق إلى ناحية اللغة أم إلى ناحية المعنى؟

كما أنه تساءل أيضاً لماذا يستعمل القرآن في مجال لفظة البشر، وفي مجال آخر كلمة الإنسان؟ فلعلّ ذلك لسرّ لا يزال خافياً علينا...[2].

وهنا مركز البحث الذي لا بدّ أن نسلّط الضوء عليه، طالما أن العلاّمة يقول بالسرّ الخافي في طريقة استعمال القرآن للمفردات، ونحن نرى أنّ هذا السرّ قد لا يكون خافياً فيما لو علمنا أنّ السياق له دلالاته في القرآن، وأنّ القرآن لا يمكن أن يأتِ بالمفردة جزافاً، بل لحكمة، كما أنه لا يمكن أن نرد ذلك الاستعمال إلى مقتضيات الفصاحة والبلاغة، لأنّ القرآن، كما ذكرنا في تمهيدنا ليس كتاباً تعوزه المفردة أو يعجزه التعبير، مما يدعونا إلى التدبّر جيداً في ما تعنيه مفردات القلب والفؤاد والصدر طالما أجمع أهل اللغة والاصطلاح العلمي والشرعي على أن القلب هو الروح والنفس، بل هو الإنسان نفسه بما هو وحدة حقيقية، وربما أفادت اللغة

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج٣، ص١١.
(٢) م. ع، ص١٢.

حقيقة التميّز بمعزل عمّا يورثه الاشتقاق وأقسام الكلمة من معانٍ ومفردات، وذلك من خلال المفهوم القرآني، الذي يمكن التدبّر فيه لاستكشاف معنى كل مفردة في ضوء ما تأتي به من سياق. وهنا تجدر الإشارة مثلاً إلى الروح في القرآن وما جاءت به من سياقات، إذ هي تارةً تعني الحقيقة التي تدبّر الإنسان، وتارةً تأتي بمعنى الملاك جبرائيل، أو روح القدس الذي تجلّى للصدّيقة مريم عليها السلام، وثالثة تأتي بالمعنى الذي يستفاد منه أمر الله تعالى، أو فعله كما يرى العلاّمة اليزدي[1].

وهكذا، سائر المفردات القرآنية التي يمكن أن تترادف، إلاّ أن مفهومها وتحولاتها في الاستعمال والتحقق لا بدّ أن يتكشّف بأدنى تأمّل فيما أشارت إليه الآيات القرآنية من اختلاف في التعبير، ولكن يبقى على الباحث أن يتدبّر في المفهوم في ضوء الجذر اللغوي والاصطلاحي لتنكشف له مدلولات المفردات على النحو الذي يمكنه من ملاحظة حقيقة الفروق، سواء من حيث قواعد اللغة أم من حيث المعنى، لأنّ القرآن كما نعلم، يرشد الباحث ليس فقط إلى المنهج القويم وحسب، بل إلى المدلول أيضاً بما هو رؤية كاشفة في كل زمان ومكان لتعالي هذا النص وإطلاقيته، ونسبية كل فهم بشري له...

مما تقدّم نستطيع القول: إنّ المفردات القرآنية تعني الإنسان أولاً وأخيراً، فهي تتحدّث عن قلب الإنسان وعقله وروحه ونفسه وصدره ولبّه وفؤاده، وعن كل ما يتمايز به هذا الإنسان في تحوله، سواء من الباطن إلى الظاهر، أم من الظاهر إلى الباطن، والكلام ذاته يمكن أن يُقال في معنى العقل واللبّ، فالإنسان هو المتحوّل من كونه إنساناً عاقلاً، ليكون إنساناً ذا لبّ مخاطب في القرآن، واللبّ هو ما تحت القشور، فقد يكون الإنسان عاقلاً، ولا يكون متميّزاً أو متعقلاً ومستبطناً لحقيقة أمره، فلا يكون له معنى الاعتبار، وإن كان له عقل يتمايز به عن سائر الحيوانات والجمادات[2].

نعم، إنها مفردات تعني الإنسان في حقيقته، وما يمكن أن يلحظ من تمايز هو

(١) م.ع، ص٥١ـ٥٢.

(٢) انظر: صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن، ط١، ١٩٩٤، ص٣٢٩.

في الحقيقة إشارة إلى ضرورة التحقق من سياق كل مفردة قرآنية في ضوء الرؤية الموضوعية التي نرى أنها الوحيدة التي يمكن من خلالها الكشف عن حقيقة الأمر المراد من الخطاب الإلهي للإنسان، باعتبار أن الإنسان هو الوحيد الذي خصّه الوحي بمزيد من المعرفة الإلهية لتجاوز العقل والحسّ إلى باطن قلبه وسرّ روحه التي هي من أمر الله تعالى، ونعني بهذا التمايز ما خصّ به الإنسان من نبوّة ووحي لتحقيقه على مستوى الوجود والرؤية الحقيقية، وهذا هو معنى التركيز القرآني على البصيرة وعلى الرؤية القلبية التي هي من تعابير الروح بما هي قلب خصّه الله بمزيد من الاهتمام لكونه مرجع العقل على حدّ تعبير الفخر الرازي، هذا فضلاً عن كونه لطيفة ربّانية، وليس مجرّد قلب صنوبري الشكل في تجويفه دم أسود وباعث على الحياة الحيوانية. وإذا كان للعقل هذا المعنى والمفهوم، فلا يبقى إلاّ أن نسلّط الضوء على قلب الإنسان وفؤاده وصدره بما هو مخصوص به من بروز في النص القرآني، وفي كثير من الآيات، دون أن نغفل عن معنى العقل الذي له هذه اللطيفة في القلب من حيث هو قوة مدركة وعالمة بحقائق الأمور، وكاشفة عن حقيقة تحوّل الإنسان فيما ينبعث فيه من شوق، يحفّز إليه من إرادة تجعله قادراً على التحقق، وحاكماً على صوابية وحقّانية كل أمر في ضوء مبادئه وقوانينه وبديهيّاته، ولا نقول إدراكاته، لأنّ العقل وفق ما خصّ به من بديهيّات ليس قادراً على ملامسة أفق الغيب، وإنّما يختصّ بها قلب الإنسان في التوجيه والتأثير لما يتميّز به من ذاتيّة وكليّة في الرؤية والعمل، وسلطنة على الجسد، وكما يقول دستغيب: «**إنّ القلب سلطان الجسد، وأقوال اللسان وجميع الأفعال الاختيارية، مرتبطة بإرادة القلب، فمن الواضح أنه كلما كان القلب مريضاً، فإنّ الأقوال والأفعال تكون كذلك أيضاً. ولهذا، فإنّ على الإنسان أن يهتمّ بسلامة قلبه أكثر مما يهتمّ بسلامة بدنه، وكما قال الشاعر: «الجسم سيّئ لأن القلب فاسد، ظلم الجيش دليل على ضعف الملك..**»[1].

(١) انظر: دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ترجمة الشيخ كوراني، دار البلاغة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص٣٥.

يبدو أن بعض الباحثين قد ربط بين الأفئدة والإصغاء على نحو يستفاد منه الإصغاء السلبي والمرضي، بحيث يفهم أن الفؤاد، أو الأفئدة هي مما يلتبس الأمر بشأنه في سياق الكلام الإلهي، إلاّ أن هذا ينتفي بأدنى تأمّل فيما أعطي الفؤاد من معاني الرقة واللين والرحمة وما إلى ذلك مما ينبغي أن يكون عليه الفؤاد. وإذا كانت الآيات القرآنية قد نسبت الإصغاء للأفئدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[1]، فهذا مما يمكن أن نلاحظه في مجال تعريف الفؤاد بأنه الغشاء الذي يحوي القلب، والإصغاء هو فعل متحقق في جميع حالات الفؤاد، فإذا كان الإصغاء للذين آمنوا كان له فعل الإيمان في القلب، وإن كان للذين كفروا، كما هو ظاهر الآية، كان له فعل الكفر، وفعله لا يكون سوى صدور هذه الأفعال عنه على نحو ما بيّنا في كلامنا. وهكذا، فإنّ سلبيّة الإصغاء إنما تكون ناتجة عمّا يرد إلى القلب من أحوال الدنيا والآخرة، باعتباره مركزاً للجسم والروح، وإماماً للحواس والأفكار، وحوله تحوم منازع الهوى، وقد أشرنا سابقاً إلى معنى أن يكون الوحي هو الذي يثبّت القلوب والأفئدة لعجز العقل والحواس عن تحقيق ذلك كما ثبت بالتجربة والبراهين القاطعة، على ما أفاد العلاّمة اليزدي في معارف القرآن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2]. فالآية، كما نلاحظ تتحدّث عن تثبيت الأفئدة بالقرآن، وهذا ما لا يستطيعه العقل والحواس، وكل من لا يأخذ بالوحي سبيلاً إلى حياة القلوب والعقول والأفئدة، وكل مَن لا يُخضع حواسه الظاهرة والباطنة للوحي، فإنّه لن يستطيع الإصغاء للحق بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

﴿أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ...﴾[1].

إذاً، الوحي هو حياة الأفئدة، ولا بدّ في طريق المعرفة والكمال من الإصغاء له، وإلاّ تحوّل القلب والفؤاد عن كونه حيّاً بحياة الوحي ليكون قلباً مريضاً، أو كافراً، أو جاحداً أو منافقاً، وما إلى ذلك مما خصّ به القلب من أمراض تصرفه عن الإصغاء للحق، وتدفع به إلى تقلّبات تستحوذ على الفؤاد، بحيث لا يكون منه إلاّ القسوة واليبس والزيغ، وهذا هو ملخّص كلامنا فيما نراه عن حقيقة التمايز بين القلوب والأفئدة لجهة كون الأسماء لمعنى واحد[2]، ولكنها تفترق في تحقيق الكمال، فمنها ما يكون له منتهى الكمال، ومنها ما يكون له شيء من ذلك، ومنها ما يكون مريضاً، ومنها ما يكون كافراً...

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.

(٢) هناك خمس عشرة آية في القرآن جاء فيها لفظ فؤاد، وهو في أهمية لا يقلّ عن أهميّة القلب ودوره، لكنه يمتاز عن القلب في كونه متّصف بالليونة، وتتسرّب منه الأحوال إلى حبّة القلب، وإذا كان القرآن قد ركّز على القلب في عشرات الآيات. فذلك لأنّ القلب له معنى العقل والتعقّل والثبات، وهو يشترك مع الفؤاد من حيث التعبير عن العقل وارتباطه بالمسؤولية واشتراكه مع الحواس في العمل، وقد نجد من الباحثين مَن لم يعر اهتماماً لهذا التمايز لقناعته بأن الأمر لا يتجاوز التنوع في استعمال المفردات القرآنية، وهذا ما لا نرى له وجهاً في القرآن. وكما سنرى في مبحث القلب والفؤاد بأنّ القرآن لم يعطِ القلب صفة أو حالة الهواء، كما أعطى الفؤاد، بمعنى أن القرآن لم يقل بأن القلوب تهوي، أو قلوبهم هواء، بل قال: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾، وهذه استعارة، والمراد بها صفة القلوب بالخلوِّ من عزائم الصبر والجلد لعظيم الإشفاق والوجل، وكما يقول الشريف الرضيقدس سره» «إنه من عادة العرب أن يُسمُّوا الجبان يَراعة جوفاء، أي ليس بين جوانحه قلب... ويسمّون الشيء إذا كان خالياً «هواء»، أي ليس فيه ما يشغله إلاّ الهواء». انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص١٨٤.

لقد أعطي القلب مركزية ما في الآيات القرآنية، لأنه قائم بذاته وتتجاذبهُ مؤثرات الإيمان والكفر، فليس من الحق حصر القلب بالمعاني العاطفية وحدها أو بالمعاني العقلية، والفؤاد يشكّل الغشاء الذي منه تنفذ هذه المؤثرات، بحسب ما يكون له من لين وقساوة، ما يجعل له أهمية قصوى في ما يتحصّل للإنسان من معرفة، ولهذا، نجد أن الفؤاد قد جمع مع السمع والبصر ليدلّل القرآن من خلال ذلك على ما تتحقق به المعرفة، هذا فضلاً عمّا أرشد إليه القرآن من مسؤولية يتحملها الإنسان فيما جعل له من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أ. القلب والفؤاد

تضمّن القرآن الكريم، كما قلنا، عشرات الآيات القرآنية التي تأتي على مفردة القلب، أو القلوب، في حين أتى على بعض الآيات التي تستعمل مفردة الفؤاد، وبعضها أفئدة، كما أن القرآن حينما تحدث عن المسؤولية والشهادة على الأعمال في الآخرة، قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[1]، ولعلها الآية الوحيدة التي جاءت لتجمع بين السمع والبصر والفؤاد في نطاق تحمّل المسؤولية فيما لو أتى الإنسان بأمر أو قال بقول من دون علم، بل لا بدّ أن يكون مسؤولاً عن كل ما يأتيه بالسمع أو بالبصر، أو بالفؤاد، وهو أتى بحاستي السمع والبصر دون غيرهما لكونهما عمدة الحواس»[2]، فإذا كان البصر في الآية يعني الرؤية البصرية، والسمع يعني حاسة السمع، فإنّ الفؤاد، الذي هو القلب، يعني العلم، فلا يقول الإنسان على ما أفاد القرطبي في تفسيره «**رأيت وهو لم يرَ، وسمعت وهو لم يسمع، وعلمت وهو لم يعلم**»[3].

إذاً، هذه الآية وحيدة في القرآن لم يجمع فيها البصر والفؤاد، كما في آيات أخر، حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[4]، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٢، ص٣١٢. يقول قدس سره الحواس هي العمدة في مبادئ العلم. ومبدأ الفكر هو الفؤاد.

(٣) القرطبي، لأبي عبد الله بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت (٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج١٠، ص٢٥٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٨٧.

(٦) سورة السجدة، الآية: ٩.

فنلاحظ أن الآيات التي جمعت فيها الأفئدة كلها تدعو إلى ضرورة أن يقوم الإنسان بالشكر لله تعالى على ما مَنّ به عليه من حواس ظاهرة وباطنة، لكون الآيات جاءت بمفردة الجعل، وهو جعل إنشائي كجعل النفس الإنسانية كما أفاد العلامة الطباطبائي ﷺ في الميزان[1]، وهو جعل يلحظ حقيقة ما خصّ به الإنسان في خلقه وتكوينه من تمايز، سواء في حواسه أم في نفسه المتفكرة، والعالمة والمدركة التي يتميّز بها عن سائر الحيوان[2]، أما آية الإفراد التي أشرنا إليها، فهي تتحدّث عن المسؤولية سواء شكر الإنسان أم لم يشكر، إذ هو محاسب في النهاية على ما يأتيه من أقوال وأعمال، فإما أن يثاب، وإما أن يعاقب، لأن مقتضى المسؤولية أن يكون للإنسان جزاء أعماله، وهذا ما لحظته الآية المباركة لجهة تحمّل كل إنسان نتائج أعماله إن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشرّ... كان لا بدّ من هذا التأسيس في سياق الكلام عمّا يعنيه القلب والفؤاد في القرآن، حيث ذكرنا أنه في نطاق تحمّل المسؤولية جاء القرآن بلفظ «**الفؤاد**»، وفي دائرة الخلق والتكوين للإنسان جاء القرآن بجمع مفردة الفؤاد، فقال «**والأفئدة**»، ولعل هذا التمايز في الجمع والأفراد ناشئ عن كون الإنسان يأتي في الحساب وتحمّل المسؤولية فرداً، أما في الخلق والتكوين والإنشاء، فالكلام لاحظ لحقيقة إحداث الشيء ابتداءً وتربيته، فيكون الكلام شاملاً للجميع، هذا ما يمكن ملاحظته من خلال رؤية موضوعية جامعة للآيات، ولكن يبقى السؤال، لماذا جاء التعبير بالفؤاد والأفئدة ولم يأتِ بالقلب؟

هنا لا بدّ من ملاحظة السياق القرآني أولاً، وقبل ذلك ينبغي العودة إلى الجذر

---

(١) يقول الطباطبائي: «ليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان، بل خلقه وإحداثه من دون سابقة في مادته، كما أشار إليه في قوله تعالى يصف خلقه طوراً بعد طور: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾، فصيرورة المضغة إنساناً سميعاً بصيراً متفكراً بتركيز النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانخ أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة، ثم مضغة، فإنّما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنساناً ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء. را: الميزان، م. س، ج١٩، ص٣٦٣.

(٢) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، م. س، ج٣، ص١٧ ـ ١٩.

اللغوي لمفردة الفؤاد، بعد أن استوفينا الكلام في معنى القلب لغة واصطلاحاً. فنقول: إنّ اللغة يمكن أن تشير إلى تمايز ما بين المفردات دون اكتراث منّا لما ذهب إليه بعض أهل اللغة وغيرهم من العلماء في المساواة بين القلب والفؤاد، منطلقين من قاعدة الترادف، وقد تقدّم الكلام في معنى أن يكون الترادف في الأصل وليس في كمال النضوج على اعتبار أنّ تحولات الإنسان لا تبقي له شأناً واحداً، أو حالة واحدة، فهو قد يتدرّج في مدارج الكمال، وقد يتسافل فيما يكون له من تحوّل في قلبه وروحه ونفسه، فهو له قلب وفؤاد مثله مثل أي إنسان آخر، ولكن حالات القلوب تتمايز، فمنها ما تزداد اللمظة فيه ليكون أكثر إيماناً، ومنها ما يكون له رقّة ولين، ومنها ما لا يكون له شيء من ذلك، ومن هنا يتكشّف لنا معنى كلام رسول الله فيما أشار إليه من قلوب أهل اليمن بقوله: «**جاءكم أهل اليمن أرقّ قلوباً، وألين أفئدة**»، ففرّق بينهما، وخصّ القلب بالرِقة، والفؤاد باللين...

وقد أشار ابن منظور إلى هذا المعنى دون أن يتوقف مليّاً عنده، فقال: «**كأن القلب أخصّ من الفؤاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أصبت حبة قلبه، وسويداء قلبه...**»[1]. وهناك من أهل اللغة أيضاً من بسّط الكلام دون فقه في مدلول المفردات، فقال: ربّما يكون القلب بمعنى الفؤاد تماماً، لكن النبيﷺ وزّع الأوصاف إليهما على سبيل الترادف والتنويع في الكلام، لا على سبيل الافتراق، ساهياً عن معنى الفؤاد في اللغة لجهة ما يعنيه من توقّد من التفؤّد، إذ يقال في اللغة: فأدت اللحم: شويته، ولحم فئيد: مشوي، وتفأدت النار: تحرّقت وتوقّدت، وفي التنزيل العزيز: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[2]. ويقال هو فارغ الفؤاد، لا همّ عنده ولا حزن، وبه قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾[3]. وجمعه أفئدة[4]. فالقرآن، لم يقل وأصبح قلب أم موسى فارغاً، ولا قال ما كذب القلب ما

(١) ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج٥، ص٣٧١٤.
(٢) سورة النجم، الآية: ١١.
(٣) سورة القصص، الآية: ١٠.
(٤) را: المعجم الوسيط، م، س، ص٧٥٣.

رأى، وإنما جاء بمفردة الفؤاد ليدلّل من خلالها على معنى آخر ومفهوم يتمايز عن معنى القلب بما له من تحويل وتقليب وخصيصة في الاستعمال لما أشار إليه النبيﷺ من رقة القلب ولين الفؤاد، يقول الرازي في تفسيره: «**ومن الناس مَن فرّق بين القلب والفؤاد، فقال: القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد، ومنهم من قال: القلب والفؤاد لفظان مترادفان، وكيف كان يجب أن يُعلم أن من جملة العضو المسمّى قلباً وفؤاداً موضعاً، هو موضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع، كما أن سائر الأعضاء مسخّرة للقلب، فإنّ العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه، أعني العقل والفرح والحزن، وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيشبه أن يكون اسم القلب اسماً للأجزاء التي تحلّ فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد، يكون اسماً لمجموع العضو، فهذا هو الكلام في هذا الباب...**»[1].

لا شكّ في أن الكلام الحاكم في هذا المجال يبقى لرسول اللهﷺ الذي لم يأتِ الكلام منه على سبيل الترادف والتنويع في الاستعمال، وإنّما لتأكيد حقيقة التمايز بين أن يكون القلب رقيقاً، والفؤاد ليناً، وكمال المعرفة والتحوّل من الإيمان يحتاج إلى أن يكون الإنسان جامعاً للرقة والليونة، ومتوقداً في كمال التعقّل والنضوج، كيما تصحّ منه حقيقة التحول، بحيث تكون له رؤية حقيقية في القلب، وبصيرة نافذة في العلم والمعرفة، ولربما يكون هذا المعنى ملحوظاً في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. والفؤاد هو قلب الرسولﷺ لما اشتمل عليه من جامعية واستواء على معاني الحق والنور، فكان منه التجوهر في الملكوت على نحو لا يكون فيه زيغ ولا طغيان، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[2]، وهذا ما لحظه ابن قيّم الجوزية في تبيان

(١) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، مجموعة مصادر، (ت ٦٠٦هـ)، ط٢، دار إحياء التراث، ج٢٤، ص١٦٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٧.

أقسام القرآن[١]، وأبو هلال العسكري في الفروق اللغوية[٢]، والطبرسي في مجمع البيان[٣]، والطباطبائي في الميزان[٤]، حيث أكدوا جميعاً على أن كمال المعرفة والتحقيق إنما يكون باجتماع رقّة القلب إلى لين الفؤاد، الذي يكون محصّله الرحمة والإحسان، ومعرفة الحق وقبوله، باعتبار أن اللين يوجب القبول والمعرفة والفهم، والرِقة تقتضي الرحمة والشفقة، وهذا هو العلم والرحمة وبهما كمال الإنسان[٥].

إنّ ما يؤسف له ويعجب منه أن يطلق الكلام، سواء في اللغة أم في تحديد المفاهيم على عواهنه، بحيث يُسوّي بين المعاني، ويجمع بين المفردات لتكون ذات دلالة واحدة ومفهوم واحد، رغم أن القرآن واضح الدلالة في الإشارة إلى حقيقة التمايز بين مفردة القلب ومفردة الفؤاد، فهو أشار إلى الفؤاد في بدء الخلق والإنشاء، ثم خصّه بالرؤية في كلام الرسول في سورة النجم، هذا فضلاً عمّا خصّه به من تمايز في حمل المسؤولية، ناهيك عمّا جاء به القرآن من تعابير عن هواء الأفئدة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٧]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الواضحة الدلالة على أن الفؤاد هو غشاء القلب وبابه، فإذا لم تستوِ حالته، ويفرغ من هوائه، بحيث يلين لخيوط النور، وتنتفي عنه الأهواء، فلن يكون العبور آمناً إلى حبّة القلب وسويدائه، لتكون له حقيقة الرؤية للآيات الكبرى، سواء في عالم الملك، أم في عالم الملكوت، لأنّ الفؤاد مجاله حماية القلب في لين تحوّله وتقلّبه، فإمّا أن يستجمع المعاني المستوية إليه من عقل وفرح وحزن وشعور ووجدان

(١) ابن قيّم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، (ت ٧٥١هـ) بيروت، (لا.ت) ج١، ص٢٣٩.
(٢) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، (ت ٣٩٥هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٢هـ، ص٤٢٣.
(٣) الطبرسي، محمد بن الحسن، (ت ٥٤٨هـ) تفسير مجمع البيان، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٩٥.
(٤) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٣٤، وقا: القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القرآن، (ت ٣٢٩هـ)، مؤسسة دار الكتاب، ١٤٠٤هـ، قم، ط٣، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٣٢٥.
(٥) ابن قيّم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، م. س، ج١، ص٢٣٩.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.
(٧) قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم: ٤٣).

وعواطف، على ما أفاد الرازي، وإمّا أن تشوبهُ القسوة واليبس، فلا يكون منفذاً للحق إليه، فيؤول الحال به إلى أن يكون هواءً لا استواء له على حق، ولا سبيل له إلى رؤية، يقول العسكري: «**الفؤاد غشاء القلب إذا رقّ نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ تعذّر وصوله إلى داخله، وإذا صادف القلب شيئاً علق به إذا كان ليّناً**»[١].

إنّ معنى أن يتوقّد القلب ليكون نوراً وجامعاً لشتات تحولات الإنسان، هو هذا، أن يكون له نضوجه وإنارته، باعتباره موضعاً للعقل والاختيار، ومركزاً لجسم الإنسان وروحه، وكلما كان الفؤاد ليّناً، كلما كان القلب رقيقاً، فإذا ما انعكس الأمر وكانت للفؤاد قسوته، فلن تكون للقلب رقّته، لما أفاده الطبرسي في تفسيره بأن الفؤاد هو محل القلب وغشاؤه[٢]، فما لم يتميز الفؤاد بأن يتطهَّر من علائق المادة فلا يلبث أن يتحوّل القلب عن كونه قلباً ليكون هواءً، وما أدراك ما هواء القلب، هوىً يميل بالإنسان إلى الشهوات والملذّات، فلا يصدُف شيءٌ من الآثام والذنوب إلاّ التقطه، وهذا ما يؤدّي بالقلب إلى أن يكون كاسباً للذنوب، ومنتهياً إلى الشتات، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ...﴾[٣]، الذي يعني امتلاء الأفئدة بالهواء واختلاف العقول والآراء[٤].

نعم، هناك مَن رأى من العلماء والمفسرين، أن العقل عندما ينضج يطلق عليه «**فؤاد**» وكما أفاد الراغب أن الفؤاد يعني القلب مع زيادة الإنارة واللمعان، ولكن هذا الكلام يمكن فهمه على نحو آخر بأن نقول: إنّ القلب هو العقل، ولكن المستفاد من الآيات المباركة، بحسب منهجنا الموضوعي، هو أخذ القلب بكليته من حيث هو موضع العقل والاختيار، هذا فضلاً عن كونه مجال الحواس الظاهرة والباطنة، ومرتكز حقائق الإيمان، وهذا يعني فيما يعنيه أن لا نخصّ العقل في الرؤية الموضوعية

(١) العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، م. س، ص٤٣٣.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج١، ص٩٥.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٤) انظر: الدامغاني، قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص٣٨٩.

للآيات بالقلب دون الفؤاد، حتى إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ...﴾[1] ليس ناظراً إلى جزئية في عمل القلب، ولا إلى حالة نضج فيه وحسب، وإنما هو ناظر إلى ما يكون للقلب من مركزية في تحقيق التحولات الإيمانية التي تؤدي بالإنسان إلى الرؤية القلبية[2]، وتجعله قادراً على التحوّل والتقلّب في مجالات النور والحق والإحسان، وغير ذلك مما يعنيه لين الفؤاد ورقة القلب، على اعتبار أن النضج العقلي هو يأتي في مجال النضج الروحي للإنسان، وذلك من حيث كون العقل هو خاصة من خواص الروح، فإذا ما استوت هذه الأخيرة على جودي روحانيتها وربّانيتها، فإنه يكون لها حقيقة التجوهر في العلم والمعرفة، وبهذا يمتاز القلب عن الفؤاد، في أنه ملحوظ على جهة الكسب، بخلاف العقل والإرادة وما يحدثانه من إرادة باتجاه الفعل، باعتبار أن العقل إنّما سمي عقلاً لكونه يمنع من السيئات، ويميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخطأ والصواب، وهذه خاصة من خواص العقل، وقد

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) لقد فاتنا أن نؤكد أنه من أساليب اللغة العربية أن يستعمل الجزء ويراد به الكل، أو الكل ويراد به الجزء، وقد استعمل هذا التعبير في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ...﴾، فالقائل هو واحد، فجاء التعبير بـ يقولون، أي بالجمع، وهكذا الحال في آيات القلب والفؤاد والعقل واللبّ، فقد يأتي الاستعمال لواحد ويراد به المجموع، لأنّ القرآن لا يتحدث عن أجزاء في جسم الإنسان، بل ينظر إلى الإنسان نظرة شاملة لكل قواه وملكاته، والذي يستجمع كل هذه المفردات هو حقيقة الإنسان بما هو وحدة حقيقية، فلا يقال إن اللفظ القرآني خاطب هذه الملكة أو تلك، أو خصّ القلب بشيء، والعقل بشيء آخر، نظراً لكون القلب، كما سبق الكلام في الفصول السابقة، هو المركز الرئيسي الذي تتصل به كافة القوى، وتنبثق عنه التحولات كافة، من موت وحياة، وصحة وضعف، وحب وكره، وكل ما يتصل بالفكر والعاطفة، وقد مثل في الحكمة الإسلامية أن القلب يشبه إلى حدّ كبير استخدام لفظ النفس في القرآن، وهو يعني الكائن الحي عقلاً وفكراً وحسّاً وشعوراً، ويعني كل ما يتصل به أيضاً من خير وشرّ، لكن تبقى ميزة الفؤاد أنه يعني التوقد في حالة التحوّل القلبي، الذي يستتبع معرفة وفهماً في الدنيا، ومسؤولية في الآخرة، هذا فضلاً عمّا يعنيه الفؤاد من لين تبقي رقة القلب أسيرة له فيما يرد عليه من أحوال، وفيما يصدر عنه من إرادة وفعل، سواء في الخير أم في الشر، فإذا ما استوت حالة القلب في الظاهر والباطن، فإنّ الصدر هو الذي يكون موضع استجماع المرض أو الشفاء، هذا هو معنى أن يكون الشفاء في الصدور والعلاج فيها حينما تكون حالة القلب والفؤاد باعثة على التحول باتجاه الخير أو الشرّ، باعتبار أن الصدور هي مجلى ومظهر القلوب، والله عليم بذات الصدور...

ألمح العلاّمة الشيرازي في تفسيره الموضوعي إلى هذا المعنى فيما أشار إليه من تدرّج في حقيقة المعرفة التي تبدأ بالسمع بما هو علوم نقلية، وتنتهي بالفؤاد الذي هو العقل عند نضوجه، لأنه ـ أي الفؤاد ـ، هو أعلى درجة من العقل[1].

وعليه، فإنّ ما نريد التأكيد عليه في مبحثنا هذا، هو أن القلب والفؤاد ليسا شيئاً واحداً، وإن كانا يترادفان من حيث الأصل، بل هما يتفاضلان في درجات الكمال والنور والحقيقة القلبية، لكون هذه الرؤية خصّت بالفؤاد تماماً كما خصّ الحساب والمسؤولية به، بعد أن كانت هذه الحواس قد خلقت وكوّنت ابتداءً لتؤدّي دورها في الشهادة على نفسها فيما يكون منها من سمع وبصر وفؤاد، وليس من الصدفة أبداً أن يأتي الكلام الإلهي بهذا التدرّج ليعطي الفؤاد خاتمة التحول بما يكون له من شهادة؛ هي في الحقيقة جامعية النفس الإنسانية المفكرة التي ميّزت الإنسان عن سائر الحيوان، كما رأى الطباطبائي قدس سره[2]، حيث رأى أن ذلك من أعجب ما يستفاد من آيات الحشر أن يوقف الله تعالى النفس الإنسانية فيسألها عمّا أدركت، فيشهد الإنسان على نفسه، والفؤاد هو الذي يشعر به الإنسان ويدرك[3]. ولعلّنا لا نخطئ القول في أن آيات الأفئدة في القرآن ليست ناظرة إلى مكانة الفؤاد وحسب، وإنما هي لاحظة لطبيعة الدور والوظيفة المناطة به، على اعتبار أنه إذا لم يكن الفؤاد، بما هو وعاء وغشاء للقلب، مستجمعاً لحالات الرقّة واللين بما ينطويان عليه من رحمة وشفقة وعلم، فلن تكون له حالة الهَوي المشار إليها في كلام النبي إبراهيم عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[4]. فهذه الآية ناظرة إلى ما يكون للفؤاد، وليس للقلب، وإلاّ لجاء القول بالقلوب، من

(١) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ص١١٥.
(٢) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٣٤ ـ ٣٥.
(٣) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٩٥.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

حالة استحضار روحي ومعرفي تدفع بالإنسان إلى أن يكون في هوى إلى أهل البيت لكونهم الكلمة الباقية في عقب إبراهيم عليه السلام، فما لم يكن الإنسان متحققاً بالكمال الروحي والنفسي والمعرفي، فلن يكون له معنى الهَوي الذي أريد له أن يكون نزوعاً إليهم عليهم السلام وليس مجرّد ميل أو حنين، وهذا ما لم يلحظه العلاّمة الطباطبائي في الميزان، مقتصراً في تعبيره على الحنين إليهم[1]، ولو أنه لحظ رحمة الله عليه ما أورده العلاّمة الشريف الرضي لكان قد استتمّ له المعنى، ذلك أن معنى الحنين أن يكون الإنسان مستقراً في مكانه، بينما الهوي لا يكون إلاّ بحالة النزوع من المكان إلى حيث تحيا القلوب والعقول، وتزكّي الأرواح والنفوس.

---

(١) نعم، لقد فات العلاّمة الطباطبائي أن يشير إلى حالة النزوع إلى المقيمين بالمكان، واكتفى بعبارة الحنين والميل، يقول قدس سره في معنى قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾. من الهوي، بمعنى السقوط، أي تحنّ وتميل إليهم بالمساكنة معهم، أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم...

وكما نلاحظ العلاّمة لم يأتِ بعبارة النزوع بدل الميل والحنين، وإن كان قد لفت النظر إلى المساكنة معهم والحج إلى البيت، في حين إن الآية لا تريد في ظاهرها الإشارة إلى الميل ولا إلى الحنين، ولهذا جاءت بصفة للأفئدة تفيد المبالغة بالنزوع إلى المساكنة، وهذا ما أجاد في بيانه الشريف الرضي قدس سره بقوله: «إنها من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوى النزول من علوٍّ إلى انخفاض كالهبوط، والمراد به هنا المبالغة في صفة الأفئدة بالنزوع إلى المقيمين بذلك المكان، ولو قال سبحانه: تحنّ إليهم، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله تعالى: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ لأنّ الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه، والهُويُّ يفيد انزعاج الهاوي من مستقرّه...».

را: البيان في مجازات القرآن، م. س، ص١٨٤.

وإذا كان لنا من رأي، يمكن التعقيب به على ما ذهب إليه العلماء الأجلاّء، فهو التأكيد على ما ذهب إليه الشريف الرضي، مع إضافة اختصاص الأفئدة بالهوي، وليس القلوب، ما يعني ضرورة أن يكون الهوي بكلّية الإنسان في رقّته وليونته، في عقله وقلبه وروحه، بل في حبّة قلبه وغشاء فؤاده، بحيث يكون هوياً واعياً وهادفاً وعارفاً بحق من ننزع إليهم من مكاننا، ونحجّ إليهم بالقلوب والعقول لما خصّوا به من سببيّة في الوجود والهداية، فما لم يكن الفؤاد مستحكماً، فلن يكون للإنسان كمال في معرفته، ولا تحقق في وجوده، على اعتبار أن الجامعية لا تكون إلاّ بأن يهوي الإنسان بكلّيته إلى مواطن تعبد الله تعالى.

وبما أن الأفئدة هي مسارب حبّات القلوب، ومفاتيح الرحمة والخلود، فما على الإنسان إلاّ أن يستجمع قواه القلبية والعقلية والروحية والنفسية والمعرفية لكي يصحّ منه الهُوي إلى حيث يوجد السرّ في الوجود والخلود معاً. والله من وراء القصد.

وهذا أمرٌ من الأهمية بمكان، لكونه يُعطي الفؤاد والأفئدة امتيازاً في القرآن على القلب، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، حيث إنّ الآية تفيد فراغ الفؤاد من كل شيء إلاّ من النبي موسى عليه السلام لكونه ملك عليها قلبها وفؤادها، لا بمعنى خلوّ الفؤاد من الرقّة واللين، أو من الخوف والحَزَن، بل بمعنى اليقين، وقد جاء الربط على قلبها بما هو تقوية لها ليزيد من قوة إيمانها ويقينها، فصبرت لتكون بذلك من المؤمنين بوعد الله تعالى لها بأن يرده إليها ويجعله من المرسلين... هذا فضلاً عمّا يعنيه الفؤاد في الآية من حضور كامل للقلب من حيث كمال الرؤية القلبية، لأن ظاهر الآية يُفيد حالة النزوع لقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي ..﴾، فكان الربط على قلبها ارتكازاً إلى تمام بصيرتها، وحقيقة رؤيتها، فأدّى الأمر بها إلى أن تكون على يقين بوعد الله تعالى لها، ولو لم يكن الأمر كذلك لما استحال أمرها إلى الإيمان. وهذا ما يُفيده دائماً اطمئنان القلوب لجهة التحقق المعرفي، وقبله الروحي، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، فهو قلب متحقق بالمعرفة، ومستجمع لصفات الكمال، ولكنه احتاج إلى مزيد ربط ليكون له تحوّله في الإيمان الكامل، وهذا كما بيَّنّا، لا يكون إلاّ باستجماع الرقّة واللين، والرحمة والعلم، الذي مؤدّاه حقيقة الرؤية القلبية والتسليم المطلق لله تعالى.

ب ـ القلب والصدر

يجمع أهل اللغة على أن الصدر يعني القسم الأمامي مما يلي وجه الإنسان، وقد لخّص هذا المعنى العلاّمة الشيرازي بقوله: «**يطلق الصدر على القسم الأمامي الذي تحت الرأس في الجسم، ومن ثمّ أطلق على القسم الأعلى والمقدم لأي شيء مثل صدر المجلس، أي أعلاه، وصدر الكلام: أي بدايته، وصدر النهار: أي**

(١) سورة القصص، الآية: ١٠.

أوله، كما جاء ذلك في لسان العرب، لابن منظور[1]، والمفردات للراغب[2]. وعلى

(١) يقول ابن منظور: «الصدر أعلى مقدّم كل شيء وأولهُ، حتى إنهم يقولون صدر النهار والليل، وصدر الشتاء والصيف.. والصدر: واحد الصدور. وصدر كل شيء: أوّلُه، وكل ما واجهك صَدْر، وجمعه صدور، ولا يكسّر على غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، إنما جرى على التوكيد، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم ...﴾ والقول لا يكون إلاّ بالفم، لكنه أكّد بذلك...» انظر: لسان العرب، م. س، ج٤، ص٢٤١١. وقا: مع الفيروز أبادي، محي الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد وتقديم المرعشلي ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ، ج١، ص٥٩٤.

(٢) يضيف الراغب الأصفهاني في تعريف الصدر كلاماً، هو في الحقيقة مرتكز فهمنا، وسرّ ما نذهب إليه في معنى تمايز القلوب والصدور إذ هو يقول بالإضافة إلى ما قاله ابن منظور وسائر اللغويين إن الصدر استعير لِمُقدم الشيء كصدر القناة، وصدر المجلس والكتاب والكلام... والمصدَرُ في الحقيقة صَدَر عن الماء. قال بعض الحكماء: «حيثما ذكر الله تعالى القلب، فإشارة إلى العقل والعلم، نحو ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ...﴾. وحيثما ذَكَرَ الصَّدر، فإشارة إلى ذلك، أي إلى العقل، وإلى سائر القوة من الشهوة والهوى والغضب ونحوها، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، فسؤال لإصلاح قواه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى اشتفائهم، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، أي العقول التي هي مندرسة فيما بين سائر القوى وليست بمهتدية، والله أعلم. را: الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٢٨٤.

إن إشارة الراغب إلى الصدر بما هو قلب وعقل وعلم، إضافة إلى ما هو مستجمع له من سائر القوى، هو مرتكز بحثنا في أن مفردة الصدر في آيات القرآن ليست مجرّد تعبير، وإنما ناظرة إلى أن كمال القوى لا يتحقق إلاّ بإصلاحها جميعاً، هذا فضلاً عمّا تعنيه الصدور من مقدمية في العلم والمعرفة فيما لو صلحت وشُرحت بالإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، الذي يُفيد كمال التحقق في المعرفة والرؤية على نحو الذاتية والكليّة، إذ كان في هذا الشرح لصدر الرسولﷺ تمام استجماع القوى العقلية والروحية والنفسية، فلا يكون شيء منها مُندرِس وغير مهتدٍ، بل تكون جميعها مهتدية بنور ربها، هذا فضلاً عمّا يكون لهذه القوى من استحقاق في تصدّر مواقع الهداية، كما سنرى في هذا المبحث حول قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، فالآية لم تقل «في قلوب الذين أوتوا العلم، بل هي تهدي إلى الصدور فيما تعنيه من حقيقة الهداية والعلم، وتؤشّر إليه من صَدارة وتصدّر في المجالس والمواقع، بحيث يصدر جميع الناس إليها، ولا نقول عنها، لما يفيده أهل اللغة في معنى الصدور عن، أو ب إلى، فيقال صدر القوم عن المكان، أي رجعوا عنه، وصدروا إلى المكان صاروا إليه. فالصدر هو المقدم لكل شيء وأوله، ولا بدّ أن لهذه الأمة أيضاً صدرها وصدورها، وطالما أن القرآن هو في صدور الذين أوتوا العلم، فهذا يقتضي في أن نتدبّر في الآيات من خلال الرؤية الموضوعية التي تؤدّي بالباحث إلى استكناه حقيقة المفردات فيما ترمز إليه من دلالات. والله أعلم.

نحن نزعم أن أحداً لم يذهب إلى هذا الفهم، ونسأل الله تعالى التوفيق والهداية، ولعلنا في ذلك نكون قد وفّرنا مادة بحث جديدة حول المفردات القرآنية تساعد الباحثين على ردّ قولنا أو تصويبه ليكون أكثر فائدة، والحمد لله ربّ العالمين.

كل حال، بما أن العقل عضو مهم ويقع في الجزء الأعلى من البدن فأطلق عليه صدر، وخاصة أن القلب الجسماني يقع في وسط الصدر...»[1].

كما نلاحظ أن القرآن الكريم قد أتى على مفردة الصدور في كثير من الآيات، التي تشير في سياق الدلالة والمفهوم إلى معنى القلب والفؤاد والعقل والروح، وغير ذلك مما لا يمكن إدخاله في باب الترادف والتفريع وحسب، على رأي من يذهب إلى القول بذلك، وإنما يمكن لحاظه في معنى المجاز والاستعارة، لما أكّدنا عليه من أن المفردات وإن كانت تعني في الجذر اللغوي واشتقاقاته وحدة المعنى، والأصل، إلاّ أنها تختلف وتفترق في مؤدّيات التحوّل بما يؤول إليه الإنسان من أعمال وتحققات غالباً ما تؤدّي به إلى أن يكون مختلفاً في تحولاته العقلية والنفسية والروحية، بحيث تكون له درجات مختلفة ومتباينة لجهة كمال النضج وعدمه، لأنّ الترادف لا يفيد التماثل في المعنى لما أفاده الغزالي بأن منزلة البصيرة من العقل هي بمنزلة نور العين من العين، فالأسماء قد تترادف، ولكن المعاني ليست واحدة فيما يكون لها من تحوّل قلبي ومعرفي.

لقد رأينا في ما سبق أن القلب هو أخصّ من الفؤاد في الاستعمال، وأن الفؤاد هو غشاء القلب، وكما أشار الرازي في تفسيره أن القلب قد يكون اسماً للأجزاء التي تحلّ فيها المعاني الحقيقية من عقل وفرح وحزن، وشعور وعواطف، وأن الفؤاد قد يكون اسماً لمجموع العضو المعروف[2]، وشاملاً لكل ذلك لكونه غشاءً للقلب، وبما أن الصدر هو محلّ الفؤاد، تماماً كما هو الفؤاد محلّ القلب، والقلب محلّ العقل، كما أفاد القرطبي في تفسيره[3]، فإنّ الله تعالى قد خصّ الصدر بالذكر لكونه محلاً لكل ذلك، وقد جاء بالمفردات والتعابير على معنى المجاز للإشارة إلى ما يعنيه هذا القلب، وإلى ما له من دور ووظيفة في كينونة الإنسان وصيرورته، وقد

(١) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ص١١٥ ـ ١١٦.
(٢) الرازي، فخرالدين، التفسير الكبير، م. س، ج٢٤، ص١٦٨.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج١٠، ص٢٥٥.

بيّن أهل التحقيق أنه لا يمكن الفصل أو التنكر للعلاقة الوثيقة بين انقلاب القلب العضو المعروف، والانقلابات العقلية، لأنّ هذا القلب، سواء بمعناه المادي أم بمعناه المعنوي، هو مركز الجسم والروح معاً، ولا بدّ أن تكون لهذا المركز صيرورة تحول، وتفاعلات تجعل كل منهما مؤثراً في الآخر على نحو ما بيّنا في بحوثنا السابقة. فالصدر ليس تعبيراً حقيقياً عن القلب أو الفؤاد، وإنما هو استعمال للفظ على غير ما وضع له، فيكون معناه المجاز، إلاّ أن يكون له معنى حقيقي يستفاد من سياق الكلام ودلالاته كأن يقال مثلاً: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[1]، فإن حصل التقليب في الدنيا، فيكون له معنى الاستعارة، وإن حصل التقليب على قراميص الجمر في نار جهنّم، كما جاء في بعض الروايات، فإنّه يكون له معنى الحقيقة. لكن الكلام في معنى الصدور، والعلم بذات الصدور، وأن الآيات البيّنات هي في صدور الذين أوتوا العلم...إلخ، فهذا كلّه يرمز إلى معنى القلب والعقل والروح وإلى كل المعاني التي تستوي على القلب، أو يستوي القلب عليها، ويكفي استعمال مفردة الصدر والصدور والعلم بها للدلالة على هذه المعاني وما يكون لها من أحوال مادية وروحية...

إنّ الصدر هو مفردة قرآنية استعيرت لتؤكّد على المعنى الكلي لحالات الإنسان، على قلبه، وروحه، وفؤاده، وعقله، وعلى كل ما له مقدّمية اعتبار، وعلوّ مقام في حقيقة الإنسان، باعتبار أن الصدور هي جامعية الرؤية القلبية وحقائق الإيمان وكل البيّنات، وهذا كله يبيّن بل يؤكّد على أن الصدر له رمزية القلب والفؤاد بكل ما ينطويان عليه من تجلّيات تخرج الصدر عن كونه مجرد تعبير مجازي ليكون له معنى النفس الإنسانية المفكرة والعالمة التي تشكل حقيقة الإنسان وجوهره. وعليه، فإنّ معنى أن تحلّ مفردة مكان أخرى في الدلالة القرآنية، أن لا يظهر الصدر على أنه شيء آخر خلاف القلب والفؤاد، بل هو استعاره لتبيان حقيقة الصدر بما هو

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

مكان لحقيقة التجلّي الإنساني بأوسع معانيه، ولهذا، نجد الخطاب الإلهي إلى الرسول بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[2]، إلى غيرها من الآيات التي يستفاد منها توسعة في الصدر في مقابل الضيق والحصر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[4]. وفي معنى الحصر جاء التعبير القرآني باستعمال بما يُفيد الشدة والضيق، حيث قال تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ...﴾[5]، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾[6].

لقد ورد في القرآن أكثر من أربعين آية جاء فيهن لفظ الصدر، وفي سياقات قرآنية مختلفة، منها ما يفيد الشرح، ومنها ما يفيد الضيق والحصر، بحسب ما تكون عليه أحوال الإنسان من كفر وإيمان، وشعور ووجدان، وذكر ونسيان، لكون الصدر وما يحويه من مبعث الحياة الروحانية، تماماً كما هو مبعث الحياة الحيوانية، وقد خاطبه القرآن الكريم مستعيراً له كل مفردات الحياة، ليدلّل على أن هذا الصدر بما هو صندوق للقلب، هو هذا المحتوى الروحي للإنسان، كما تقدّم بيانه، من أن القرآن في زمن البعثة لم يكن مشغولاً أو مهتمّاً بالقلب العضو المعروف في صدر الإنسان، وإنما بما هو وراء ذلك من حقيقة إيمانية وروحانية متجلّية في فطرة الإنسان ونفسه، التي تشكل حقيقة الإنسان، يقول حسن مصطفوي: «**إن القلب**

(١) سورة الشرح، الآية: ١.
(٢) سورة طه، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٩٠.
(٦) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

والصدر أعمّ من الظاهر المادي، والباطن الروحاني، وكما أن القلب المادي مركز الحياة الحيوانية والصدر صندوق له ويحويه، كذلك القلب الروحاني، فإنه مركز الحياة الروحانية والصدر يحويه. فالقلب مركز الصدر، والصدر مرتبة مُتَّسِعة ثانوية مستنيرة من القلب، وعلى هذا يختلفان في مقام النسبة، فيقال في النسبة إلى القلب، أمن واطمأنّ، وخشع وسلم، وقسى، وزاغ واهتدى، وعَمِي، وخُتِم، ولا تنسب هذه الأمور إلى الصدر... والحاصل أن الصدر والقلب كالمشكاة والمصباح، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، والقلب مظهر القوة والحياة، والصدر فيها تلك القوة، وعلى هذا عُبّر بقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]، فإنّ التمحيص هو التخليص من العيب والشوب مع التجلية، وهذا المعنى يناسب أصل القوة ومركزها، ولا معنى لتخليص المحيط وتجليته مع وجود خلط وشوب في المظروف، والمناسب بالمحيط والمظروف هو الاختيار والامتحان والابتلاء...»[2].

نعم، يمكن ملاحظة الآيات القرآنية التي تمايزت فيما أعطته لكل من القلب والصدر من حالات ومفردات، فقالت تعمى القلوب، ولم تقل تعمى الصدور، وقالت بهداية القلب، ولم تقل بهداية الصدر، وقالت بأقفال القلوب، ولم تقل ذلك في الصدور إلى غير ذلك مما تمايزت به المفردات، وتحققت به الحالات، وتنوعت فيه الاستعارات، فلكل مفردة ما يلائمها في سياق التعبير للتدليل على أن هناك ظرفاً يحوي ومظروفاً، والصدر هو الصندوق، بل هو مصداق مرحلة الصدور، ومنه يتحقق صدور الحياة من القلب إلى البدن، ولهذا استعيرت له مفردات قرآنية تتناسب وخصوصيّته، من حيث هو محل الابتلاء، بعد أن جعل القلب محلّ التمحيص والتجلية،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الإرشاد، قم، ط١، ١٤١٧هـ، ج٦، ص٢٠٨.

التي لا بدّ أن يكون الصدر متنفساً لها سواء بالمعنى المادي أم بالمعنى الروحي والمعنوي[1]، بدليل أن الإنسان في كثير من حالاته المادية يُظهر اهتماماً ملحوظاً في تصرفه المادي بالجزء المقدم والأعلى من رأسه لكونه مبعث الضيق أو الفرح، ويكفي أن نشير هنا إلى حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان قد يلتبس عليه المعنى، فيعتقد أن الإنسان ينطوي على مناطق نفوذ تسيطر عليها قوى مختلفة في جسم الإنسان، أو قد يظن أنّ الصدر هو القلب أو الفؤاد، أو غير ذلك مما تنوعت مفرداته واختلفت

(١) يرى مصطفوي أن القلب والصدر قد يشتركان في انتساب بعض الأمور إليهما كانتساب الإضاءة والحرارة إلى المشكاة والمصباح، وذلك كالغلّ والكبَر وغيرهما مما يصحّ أن ينسب إلى كلّ منهما، ولو باعتبار غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ...﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ فظهر أن ما نسب إلى الصدر في القرآن (يكون له) بمناسبة الموضوع، كما أن ما نسب إلى القلب (يكون له) بمناسبته، وقد لوحظ لطف التعبير وحفظ خصوصيات كل منهما في جميع موارد استعمالها، وهذا التوضيح يؤيد كون تسمية الصدر باعتبار وقوعه في مرحلة متأخرة عن القلب فيه يتجلى ما في القلب، فكأنّه صادر ومظهر ومجلى عن القلب. را: حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٧هـ، ج٦، ص٢٠٨.

يُستفاد من كلام المحقق أن القرآن قصد في استعمال مفردة الصدر إلى اعتبار يناسبه من حيث كونه مظهر لتحولات الإنسان، بمعنى أنه ليس مجرّد مفردة تعني القلب، فإذا كان أهل اللغة يعتبرون استعمال القلب في القرآن بمعنى العقل والفهم والعلم، فهم قصدوا هذا المعنى في إطلاق الصدر على ذلك، ولكن الحقيقة تتجلّى في انتقاء المفردات لكل من القلب والصدر معاً لجهة جامعية الصدر لكل قوى الإنسان، كما أفاد الراغب في مفرداته، وهذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي بكليّة ما فيها، لا في القلب وحسب، بل في قوى الإنسان، سواء العاقلة أم قوى الشهوة والغضب، فالله عالم بكل ذلك، وهناك عشر آيات تقريباً جاءت بذات الصدور للتدليل على المعنى الكلي والذاتي للإنسان بما هو متجوهر به من حقيقة واحدة هي النفس العالمة والمدركة، كما أفاد ابن سينا، والطباطبائي، والغزالي، والملاّ صدرا، وغيرهم كثير، حيث رأوا جميعاً أن الخطاب الإلهي، وأنَّ تصوّره الإنسان جزئياً في فعل ما يؤديه، إلاّ أن الحق يتجلّى في خطاب الروح والنفس الناطقة، الذين يشكّلون حقيقة واحدة في مذاهب أهل الحكمة والعرفان.

ولعل أعظم دليل مما يمكن الارتكاز إليه في معنى تمايز الصدور عن القلوب من حيث كمال النضج، هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فالآية، والله أعلم، ناظرة إلى أن القرآن، وإن جعل القلب موضعاً للعقل والاختيار، إلاّ أنه لحظ الشفاء للصدور وليس للقلب، نظراً لجامعية الصدور وتمظهر كل القوى الإنسانية بها. والله أعلم.

تسمياته، وقد يكون منشأ هذا الالتباس، أن الإنسان تأخذه حالات معينة باتجاه تجزئة ذاته، تماماً كما يفعل حينما ينسب فعل الأنا إلى أعمال ونشاطات مختلفة، كأن يقول: أنا شربت، وأنا أكلت، وأنا كتبت، ساهياً عن أن الأنا التي فعلت أو قامت بذلك هي واحدة، وهي نفسه التي بين جنبيه، والتي تشكّل حقيقته، فإذا ما قال الإنسان صدري وقلبي وروحي وعقلي، وفؤادي، فهذا لا يستفاد منه تنوع الفعل من جهة الأنا، ومن جهة حقيقة ذلك، تماماً كما فهمنا من معنى مسؤولية السمع والأبصار، والأفئدة، وسائر الحواس الظاهرة والباطنة، حيث بيّنا أن المسؤولية التي يتحمّلها الإنسان هنا ليست في الحقيقة مختلفة ومتعددة، وإنما هي حقيقة واحدة هي النفس العالمة والمفكرة والمدركة التي تثاب وتعاقب بحسب ما يكون لها من تجلٍّ أو تأمل.

إنها حقيقة الإنسان المتجلية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[2]، إلى غيرها من الآيات التي تخصّ الإنسان في قلبه وروحه وصدره وفؤاده، وكل حالاته وحواسه الباطنة والظاهرة، وما قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[3] إلاّ خير دليل على ذلك. فهو تعالى لم يقل صدره، وإنّما قلبه لما يعنيه من حصرية في الفعل والصدور وإن كان الفؤاد والصدر هما اللذان يتوليان عملية الترجمة والتعابير في مظاهر الحياة المختلفة، لأن قولنا: إن الصدر هو مصداق مرحلة الصدور، كما أفاد المصطفوي في تحقيق كلمات القرآن الكريم، يُفيد أن للصدور معناه عن القلب؛ ولازم ذلك أن تكون للصدر خصوصية بهذا الاعتبار، لا لجهة أنه مرحلة مستقلة في الفعل والتأثير، وإنما لجهة الصدور عن الجهة المدبرة التي هي القلب بما هو مركز ثقل الحياة الروحية ذات الدلالة الخاصة على معنى

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٢) سورة الانفطار، الآية: ٦.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الحيلولة، التي يمكن التعبير عنها بقوة التدبير المنتسبة إلى الله تعالى بما نفخه في الإنسان من روح، فهذه القوة التي عبّر عنها في الرؤية الإسلامية باللمظة، أو بالجوهر العقلي، هي التي جعلت موضعاً للعقل والاختيار، كما أفاد الرازي، وهي التي تدرك حقيقة ما يحول بينها وبين فعلها، قبل أن تدرك ذاتها، وهذا ما أفاده الطباطبائي قدس سره في مباحثه، حيث أكد على أن قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[1]، هو خير دليل على حقيقة التوحيد، سواء في النفس أم في الوجود، لكون هذه النفس المدبرة والمتفكرة في وحدة أفعالها، وفي حقيقة الصدور عنها لها امتداد التحقق في الروحية والتدبير، هذا فضلاً عمّا لها من أوجه تتلاقى بها مع أدلة التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي، فيما يخص الذات الإلهية، وهذا ما سبق الكلام فيه لجهة القول بمجهولية القول في معنى هذه الروح لكونها من أمر الله تعالى[2].

وكيف كان، فإنّ ما جاء في معنى الصدر في القرآن ليس أكثر من توسعة في الكلام على سبيل الاستعارة والمجاز، لأن حقيقة التوسعة في الألفاظ والمفردات، تستدعي حتماً التوسعة في المعاني، ومن خلال هذا يستطيع الباحث أن يؤسس لمفاهيم جديدة في مجال المفهوم والرؤية المعرفية والإنسانية على اعتبار أن القرآن، كما نرى، لم يرد تقديم مفردات مختلفة في التعبير ومتفقة في المعنى وحسب، وإنما أراد أن يكشف عن التحولات الإنسانية بما هي مرتكزة إلى وحدة حقيقية تؤدي أفعالاً مختلفة، ولكنها متميّزة فيما يكون لها من تكامل في ما تؤدّيه

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٢) يرى العلاّمة الطباطبائي أن حيلولته سبحانه وتعالى بين المرء وقلبه، يقطع منبت كل عذر في عدم الاستجابة لله تعالى والرسول إذا دعاه لما يحييه، وهو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقّة، فإنّ الله تعالى لما كان أقرب إلى الإنسان من كل شيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شيء، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف إليه من قلبه، الذي هو وسيلة إدراكه وسبب أصل معرفته وعلمه... فكأنّ الآية تقول: واعلموا أن الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهو أقرب إليكم من كل شيء، وأنه ستحشرون إليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذٍ فلا يُغني عنكم منه شيء...
را: الميزان، م. س، ج٩، ص٤٧.

من أعمال ووظائف، سواء باتجاه الخير أم باتجاه الشرّ، وبهذا تنتفي التجزئة بين أن يكون للقلب فعله، وللنفس فعلها، ولعلّ من أفضل الأدلّة على هذا المنحى هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]، وهذا يفسّر معنى استخدام الصدر، شرحاً وضيقاً، مكان القلب في آيات كثيرة، لأن الصدر ليس مفهوماً مجرداً، ولا القلب كذلك، فضلاً عن الفؤاد، وإنما لكل مفردة سياقها ومفهومها في السياق القرآني، ولها تعبيراتها المختلفة في ما يتقلّب فيه الإنسان من أحوال، وفيما يتبصّر به من أمور، سواء أكانت من أمور الدنيا أم من أمور الآخرة، ويكفي تدليلاً على ذلك الإشارات القرآنية في آيات القلب والفؤاد والصدر إلى ما يتصل بقضايا الموت والحياة، فضلاً عمّا يكون لهذه الألفاظ من معانٍ ظاهرة وباطنة فيما تحتويه من غلّ وكبر، وإسرار وإعلان، وضيق ووسع، إذ إنّ كل ذلك هادف إلى تبيان حقيقة المعنى من خلال التركيز على حقيقة القلب لجهة ما أسند إليه من وظائف تتصل بالتفكير والعقل تارة، وبالإلهام والإحساس والمشاعر تارةً أخرى. وبما أن القلب له هذه الجامعية، فقد اختير له أن يكون إماماً ومركزاً تتمظهر به الحياة، وتصدر عنه الأفعال بما نفخ فيه من روح شكّلت جوهرة وشرّفها الله تعالى بإضافتها إليه، وهذا ما تجلّيه الفطرة الإنسانية التي فطر عليها الإنسان، واختلف في شرحها البيان، فكانت قاب قوسين أو أدنى من العيان، ذلكم هو معنى المجاز والتوسعة في الصدر لاستيعاب كل القوى في الإنسان لتكون له تجلّياته الروحية والمعرفية، وهذا هو معنى أن يكون القلب صادراً عنه من حيث كونه له صدارة التحقق، وتجلّيات الأفعال، بحيث تطاله دعوة الشرح والضيق، ويكون له كلّية المعنى في احتواء الآيات البيّنات، والصدور عنها وإليها، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[2]، فهذه الآية جاءت بمفردة الصدور، ولم تأتِ بمفردة القلوب، ولعل ذلك ناظر إلى أن الذي عنده علم الكتاب، قد استوفى بل

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

استجمع كامل الصفات الروحية والنفسية والعقلية لكون الصدر هو صندوق القلب والفؤاد معاً، فلو استعمل القلب لما استفدنا هذا المعنى، هذا فضلاً عن أن المجيء بالصدر دون القلب مفيد لحقيقة مهمة جداً مؤدّاها – والعلم عند الله – أن الذي حفظ عنده القرآن، وجعل شهيداً عليه. وكما في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾[1] هو الذي له مقام الصدر، بل المقام الأعلى لما تفيده اللغة من مقدمية وعلوّ مكانة وشأنية بحيث يثبت له حق القيام بهذه الآيات لما سلف قوله من أن الصدر لغة يعني صدر المجلس، وصدر الكلام، وغير ذلك مما تعنيه الصدارة هنا من علم وعمل، فضلاً عن الكمال النفسي والعقلي، واستجماع صفات الرقة واللين في قلوب أولئك الذين اصطفاهم الله تعالى وجعلهم أبواباً لمعرفته[2]. فلو أن المفردة جاءت بالقلب لما كان بالإمكان استفادة ذلك منها مما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) لقد أجمع المفسرون على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ...﴾، هم الأئمة ، وهذا المعنى مروي في الكافي، وفي بصائر الدرجات بعدة طرق، وهو من الجري، كما يرى العلاّمة الطباطبائي، بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية، إذ جاء عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر قال: قلت له: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فقال: أنتم هم، من عسى أن يكونوا، ومما يدلّ على هذا المعنى ما ذهب إليه المفسرون بأن الآية تعني الرسول ، بما هو آية من آيات الله تعالى، وقد ذهب بعضهم إلى تلوين الكلام بالإشارة إلى أن الآية تعني المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول ﷺ ، وحفظوه بعده، كما عن الشوكاني، وأنها تعني أصحاب رسول الله ﷺ، كما جاء في تفسير القرطبي، وقد أفاد غيرهم أنها تعني المؤمنين والعلماء الذين حفظوا القرآن، وهم في جميع ما ذهبوا إليه لم يعلنوا عن حقيقة المعنى الذي يفيد بأن المصداق الأبرز للذين أوتوا العلم هم الأئمة لكونهم قرنوا مع الكتاب، وخصّوا بالتطهير والاصطفاء، فلا معنى لما قد يختاره بعضهم من التواء في ما تعنيه الآية من أن الله تعالى قد حفظ هذا القرآن من أن تطاله يد التحريف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

انظر الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٦، ص١٤٢، وقا: مع الصنعاني، عبد الرزاق، وقا: مع الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير (ت: ١٢٥٠هـ)، عالم الكتب، ج٤، ص٢٠٧. تفسير القرآن، (ت: ٢١١هـ)، الرياض، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٩٩.

وقا: مع القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج١٣، ٣٥٤. وقا: ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل، تفسير القرآن (ت ٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ، ج٣، ص٤٢٨.

يجعلنا نعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الإشارة إلى الصدور هي من الأهمية بمكان، فإن قيل: إن القلب هو أيضاً يُفيد المركزية في الجسم والروح، وله مكانة الصدور من حيث صدور الأقوال والأعمال عنه، قلنا: إنّ ذلك حجة ولكنه غير كافٍ لاستفادة المقدمية والوجهة العليا من رأس الإنسان، تماماً كما في الإشارة إلى وجه الإنسان في القرآن الذي يطلق لغة على مقدمية الشي، ولكنه يرشد إلى حقيقة ما يكون للإنسان من شأنية في قومه، أو في عشيرته، أو في مجلسه، بحيث يُقال: إنّ فلان وجه قومه، أي كريمهم، ومركز الرأي فيهم...

نحن إنّما نذهب إلى هذا القول للتدليل على أن قاعدة التمييز بين المفردات لا يمكن أن تكون من اللغة فقط، بل لا بدّ من ملاحظة السياق القرآني وحاكميته على اللغة والاصطلاح معاً. فالقرآن هو الذي يحدّد الرؤية والمفهوم، ويُعطي معنى التفرقة في المفردات في ضوء ما يكون له من وحدة أصل، أو اشتقاق، وفي جميع الأحوال، لا بد من إعادة النظر في مبحث الترادف، وقد سبق إلى هذا الأمر العلاّمة اليزدي في معارف القرآن، وبيّن حقيقة المشتركات اللفظية والمعنوية، وأرشد إلى أن المفردة الواحدة قد ترشد إلى عدة معان، كما في مفردة الروح مثلاً، حيث أطلقت في القرآن في مجالات متنوعة، على الملائكة، وعلى الأنبياء، وعلى الروح المدبّرة للإنسان، وهذا كله يمكن ملاحظته في سياق الآيات القرآنية. لذا، فإنّ ما نصرّ عليه هو أن لا نأخذ الآيات في سياق واحد، معتمدين على الجذر اللغوي فقط، لأنّ من شأن ذلك أن يذهب بنا إلى القول بالترادف، وبما أنه لا ترادف في القرآن، كما نرى، فذلك يقتضي من الباحثين إعادة التدبّر في مدلول الآيات للوقوف على حقائق الأمور، وذلك كله لا يكون ممكناً إلاّ باعتماد المنهج الموضوعي، الذي يمكن أن يؤدّي بنا إلى مزيد من المعرفة فيما يعرض له القرآن في مجال القلب والفؤاد والصدر وغيرها من المفردات ذات الدلالات المختلفة... وبالله نستعين.

الفصل الثاني

أنواع القلوب في القرآن

تمهيد الباب

بعد ما تقدّم من تأسيسات في معنى المفردات القرآنية، وما توارد بشأنها من أقوال في المجاز والترادف والاختلاف بات ممكناً الحديث عن أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم، نظراً لكون القرآن قد انطوى على مئات الآيات التي تتحدث عن حقيقة القلوب وما يكون لها من تحولات وتبدلات، فضلاً عمّا يكون لها من انقلابات في الأعمال والأحوال. إذ نجد القرآن يُعطي لكل قلب حالته، مميزاً بين القلوب في ضوء ما يكون لها وعندها من إيمان وكفر، وموت وحياة، لكون هذه القلوب المُستَكِنّة في الصدور لم تترك هملاً ولم تُخلق سُدى، بل كان لها منذ جعلها وإنشائها ما تختلج به في صيرورة نبضها، حيث قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وهكذا، فإنّ الهبوط كان على وقع القلوب، فاحتدم فيها العقل والتفكير، واستوت على نفخة الروح فيها منازع التدبير، فكانت لها الحياة بعد الموت، والعلم بعد الجهل، بما حُقِّقت به من وحي وإلهام لتخرج عن كونها أسيرة الهوى، فتكون قلوباً موحدةً، وعقولاً مستنيرة، وأرواحاً مستقرّة في الصدور، تنزعُ إلى أن تكون حيّة في ملكها وملكوتها، وحاكمة في مبادئء تحولها وتبدُّلها، فلا تعمى عن الحق والنور، ولا تكون هواءً في مسالك العبور، بل تحيا بذكر ربّها، وتصدر عن سرّ فطرتها، فتشهد لخالقها كما جرى لها في سابق عهدها، حيث قالت: ﴿بَلَىٰ﴾ في جوابها على سؤال

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

ربّها، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ...﴾[1]؟.

إنها القلوب والأرواح التي بيّن القرآن الكريم ما لها من حالات وتبدّلات، حيث جعل لها أبواباً تنفذ فيها إلى سرّ الحياة، حتى لا يستبدّ بها كفر ونفاق، ولا يأخذ بها مرض إلى هوان وشِقاق، فأوحى لها ما أوحى لتهتدي إلى سبل النجاة، وتخرج من الظلمات إلى النور، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾[2].

ذلكم هو معنى أن تهتدي القلوب بأمر ربها وسرّ وحيها، أن تتجلّى في الحياة فتقيم وجهها لله تعالى الذي خلقها وسوَّاها، فألهما فجورها وتقواها، وأخرجها من عهدة فطرتها لتكون شاهدة لربها بما أودعه فيها من أسرار الخلقة في حركة وجودها، وامتداد نورها، إذ هي الشاهدة على نفسها في حركة الوجود نحو معبودها، شهادة التجلّي بالحق فيما يكون منها ولها في كل لحظة تستوي على سرّ نشأتها، وتبدّل حالاتها، وكما يقول مطهّري قدس سره: «**إنّ حركتنا في كل لحظة هي بنفسها «أشهد»**، إنها شهادة على ذي الجلال السرمدي. إن دوران الرحى» هو «**أشهد**» على وجود ساقية الماء، وكما يقول الشاعر:

يا خفي الذات محسوس العطا أنت كالماء ونحن كالرحى[3]

لقد بيّن القرآن الكريم في كثير من الآيات القرآنية أن القلوب هي مركز الهدى، وقد خصّها بكثير من الآيات لكونها مبعث الحياة، وسرّ النجاة، ومهبط النور، هذا فضلاً عن كونها سرّاً ربّانياً شريفاً، لا بما هي قلوب مادية ومركز للروح الحيوانية، بل بما هي روح ونفس وعقل تتجلّى فيها نفخة الروح في الحياة، التي هي من أمر الله تعالى، وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حينما سئل: يا رسول الله: أين الله في

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٧٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٣) مطهري، مرتضى، مفاهيم إسلامية، دار التيار الجديد، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٥٩.

الأرض أو في السماء؟ فقال: في قلوب عباده المؤمنين»[1].

وفي الحديث القدسي، قال الله تعالى: «**لم يَسَعْنِي أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن...**»[2].

ولئن كان القرآن الكريم قد نوّع في المفردات، واختار للقلب أوصافاً وحالات، فيما يكون للقلب من تحولات وانقلابات، فإنّ ذلك لا يستفاد منه، كما بيّنا في التأسيس لهذا الباب، أنّ هناك قلوباً متمايزة من حيث الفطرة والوجود، أو من حيث نفحة الروح، وإنما هو تمايز في تحققات الأعمال، واختلاف في مصائر الأحوال...

كما تبيّن أيضاً أن القرآن لم يأتِ بالمفردات على سبيل الترادف، باعتبار أن ما خُصّت به القلوب، أو العقول، أو الصدور، فهو كلّه ناظر إلى ما تعنيه كل مفردة في سياقها القرآني، إذ إنّه ما من مظروف إلاّ وله ظرف، وقد جاءت الاستعارات القرآنية لتوضيح معنى التمايز، بحيث يفهم الباحث أن المجاز في اللغة، أو التوسعة في إطلاق الكلمات، إنّما يهدف إلى تبيان حقيقة المعنى في ما يؤول إليه من تحوّل وتبدّل، فإذا كانت القلوب قد وصفت بالرقّة، والأفئدة باللين، فذلك لا ينفي التجذّر اللغوي، بل يفيد المزيد من المعنى في دائرة اللفظ. ولهذا، فإنّ القرآن قد خصّ كل حالة بما يتّسع لها من الكلمات لتفيد تمام المعنى فيما يكون للقلب، أو الصدر، أو الفؤاد من تبدّل وتحوّل في الباطن والظاهر، لكون القلب هو الذي يؤاخذ بما يكون له من كسب، ويستجمع حالات الوجدان والتفكير، والكفر والإيمان، وما إلى ذلك مما فصّلنا الكلام فيه مراراً وتكراراً، وخاصة في مجال كلامنا عن الصدور، حيث رأينا أن القلوب التي في الصدور لا يستفاد منها التأكيد وحسب كما زعم ابن منظور في لسان العرب، بل هي تعني تمام التجلّي ومظهريّة القلوب، فإذا كانت القلوب قد

(١) وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ حين سُئل أين الله؟ فقال: عند المنكسرة قلوبهم... انظر: الشهيد الثاني، (ت ٩٦٦هـ)، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ، ص١٢٢.

(٢) انظر: المجلسي، بحار الأنوار،م. س، ج٥٥، ص٣٩.

خصّت بالعمى والختم والقفل.. إلخ، فإنّ الصدور قد خصّت بالشفاء والوسوسة، وغيرها من الآيات التي توضح أن القرآن لم يهدف إلى التأكيد وحسب، وإنما إلى التوسعة أيضاً في المعنى للتدليل على إضافة في المنطوق والمفهوم[1]، إذ إنّ هذه التوسعة لا تجري في الأحكام وحسب، بل تجري على غيرها أيضاً...

إنّ تمهيدنا في هذا الباب يقتصر على الإشارة إلى اختلاف العلماء في مباحثهم حول القلوب وأوصافها وأعمالها وحالاتها الداخلية والخارجية، إذ إن منهم من تحدّث عن القلوب وأنواعها بما يتجاوز ما بيّنته الآيات في المجموع[2]، ومنهم مَن اقتصر على الإيجاز فيها إلى حدّ اعتبارها قلوباً ثلاثة، ولا شكّ في أن مقتضى المنهجية الموضوعية في دراستنا هذه أن نضمّ الآيات بعضها إلى بعض لاستخلاص موقف إسلامي لا لبس فيه، لأنّ الآيات القرآنية الخاصة بالقلوب، ومن خلال السياقات المختلفة التي جاءت فيها. تظهر أن المرض القلبي يمكن استفادته من الآيات التي تتحدّث عن مرض القلوب، وهناك آيات تتحدّث في مضمونها وسياقاتها عن القلب الميت أو الكافر، إضافة إلى ما خصّه القرآن بالمدح وهو القلب السليم الذي تشير إليه آيات كثيرة في القرآن، وهذا ما سنتوقف عنده ملياً في فصول هذا الباب.

ثمّ، إنّ ما ذهب إليه العلماء في أنواع القلوب لم يكن منهم حسماً لموقف قرآني جامع، وإنّما جاء منهم على سبيل التقسيم للآيات بحسب ما تأتي به من تعبير

(١) عرَّف الأصوليون المنطوق والمفهوم، بأنّ المنطوق هو ما دلّ عليه اللفظ في محلّ النطق، والمفهوم هو ما دلّ عليه اللفظ لا في محل النطق، هكذا عرفوهما وفي المعنى فإن المعيار في الفرق بينهما هو كون حالة المدلول أي الموضوع في محل النطق وعدمه، والمقصود من المدلول هو الحكم أو الوصف... وقالوا أيضاً إنه إذا تعارض المنطوق والمفهوم فيقدم المنطوق... انظر: القمي، ميرزا أبو القاسم، قوانين الأصول، (ت ١٢٣١هـ)، طبعة حجرية، ص١٦٧.

(٢) نقصد بذلك أن بعض الباحثين تحدّث عن القلوب بعدد الآيات، فرأى القلب المريض يتمايز عن القلب الأعمى، والقلب المختوم غير القلب المطبوع، والقلب المطمئن غير القلب السليم.. إلخ، وهذا التقسيم من شأنه أن يُبهم الموقف القرآني ويجعله مستعصياً على الفهم، في حين إن المطلوب هو توضيح الرؤية....

ومفردات، وقد رأينا بعض الباحثين يأخذ المفردة ويجعل منها نوعاً من أنواع القلوب، فهذا الغزالي مثلاً قد جعل القلوب ثلاثة[١]، في حين نجد الروايات عن الأئمة عليهم السلام تتحدّث عن أربعة قلوب[٢]، وفي رواية أخرى عن ثلاثة قلوب، كما عن أبي جعفر عليه السلام، قال: القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير والشرّ فيه يعتلجان فأيهما كانت منه غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر ولا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن[٣]. وغير ذلك كثير ممن اختار أن يجعل القلوب بحسب أوصافها القرآنية. أما نحن في بحثنا هذا، فإنّنا نريد أن نتحدّث عن أنواع القلوب من خلال الإشارة إلى القلوب المريضة، والقلوب الميتة، أي الكافرة، والقلوب السليمة، جامعين بين القلب المريض بالنفاق والقلب المطبوع على اعتبار أن القرآن قد ميّز بين القلب الكافر، والقلب المريض بالنفاق أو بالشهوات والشبهات، كما ميّز بين هذين القلبين والقلب السليم، جاعلاً لكل قلب من هذه القلوب أوصافاً وأعمالاً، هذا فضلاً عمّا خصّ به القلب السليم من مدح حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤]، وهذا يعني فيما يعنيه أن القلب الوافد على رحمة ربه هو قلب واحد هو القلب السليم، وقد جعلت لهذا القلب أوصافٌ في القرآن، أما القلوب الأخرى، كالقلب الكافر، والقلب

(١) يرى الغزالي أن معرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين، وأساس طريق السالكين. انظر: إحياء علوم الدين، م. س، ج٣، ص٨.

(٢) تقول الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان إذا أدرك الموت صاحبه على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجا. وقلب منكوس، وهو قلب المشرك، وقلب مطبوع هو قلب المنافق، وقلب أزهر أجرد، وهو قلب المؤمن فيه كهيئة السراج إن أعطاه الله شكر، وإن ابتلاه صبر». انظر: مجمع البحرين، م. س، ج٣، ص٥٣٨.

(٣) انظر: الكافي، الكليني، م. س، ج٢، ص٤٢٢. يقول المازندراني في شرح أصول الكافي: «قوله عليه السلام القلوب ثلاثة لا ينافي ما مرّ من أن القلوب أربعة، لأنّ قوله: وقلب فيه نكتة سوداء يشمل القسمين منها وهما قلب فيه نفاق وإيمان وقلب المنافق الذي لم يؤمن يحسب الباطن أصلاً...». را: المازندراني، مولى محمد صالح، شرح أصول الكافي، م. س، ج١٠، ص١٤٧.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

المريض بالنفاق، فقد ذمّهما القرآن وأعدّ لهما عذاباً وسعيراً. مما يؤكّد لنا أن القرآن الكريم يكشف عن ثلاثة أنواع من القلوب لكون الروايات قد جمعت بين القلب الأزهر والقلب السليم، وبين القلب المريض بالنفاق والقلب المريض بالذنوب والشهوات والشبهات كما في قول المعصوم: «**قلب فيه نفاق وإيمان**».

إنّ منهجنا في هذا البحث سيأخذ بالآيات التي تتحدّث عن مرض القلوب، وليس جميع الآيات، وإنما استخلاص الآيات التي تتمايز بهدف استخلاص موقف ورؤية قرآنية كاشفة عن هذا النوع من القلوب، والذي يحدونا إلى ذلك هو وضوح النص القرآني فيما يخص القلوب من أوصاف وحالات، هذا فضلاً عن ملاحظة حقيقة الأوصاف بحسب ما تأتي فيه من سياق قرآني، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1]، فهذا القلب المقفل، أو المطبوع، أو المختوم، وهي أوصاف تتناسب رغم اختلاف معانيها بحسب السياق، ما يعني أن الباحث يمكنه، بحسب المنهج الموضوعي، أن يلحظ هذا التمايز في سياق واحد لاستحالة أن يستوفي هذا البحث كامل المعنى في القرآن، إلاّ أنه يمكن الإشارة من قريب إلى تحققات هذه الأوصاف وما تتدرج فيه من سياق يخصّ الإنسان الكافر، أو المشرك، أو المنافق، وقد بيّن العلماء أن هناك العشرات من الآيات التي تخصّ كل قلب من هذه القلوب، باعتبار أن القلب هو جوهر الإنسان، وهو مركز الروح فيه، وحساب الإنسان إنما يكون بحسب ما يكون عليه في قلبه، فإن كان مريضاً ـ وقد بيّن القرآن أسباب وحالات مرض القلب ـ كان له ما يستحقه يوم تفد القلوب على ربّ العالمين، وإن كان كافراً أو مشركاً، فإنّه يكون له بحسب ما اختاره لنفسه، وإن كان قلبه سليماً، فله ما بحسبه أيضاً، ومن خلال ملاحظة الأوصاف يمكن للباحث أن يتوقف مليّاً عند النصوص وسياقاتها ليستخلص الموقف المناسب حول كل قلب

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

مـن القلوب، وهذه منهجية يمكن الاسـتفادة منها، كما رأى العلاّمة الشـيرازي في نفحات القرآن، شـرط أن نلحظ الآيات من خلال المفهوم أيضـاً، لأنه توجد الكثير من الآيات المستنبطة لمعنى القلوب وصفاتها، وهذا ما يمكن للباحث ملاحظته لما أشار إليه الشيرازي في منهجه الموضوعي أن الآية الواحدة في التفسير الموضوعي فيهـا أبحاثٌ عديدة مـن جهات مختلفة، وفي كل بُعد من أبعادها يجب بحث فصـل خاص به، في حين تفسير الآية في التفسير الترتيبي يأخذ تفسيراً واحداً فقط[1].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة يمكن الاقتصار بها على مبحث القلب المريض في القرآن نظراً لما تنطوي عليه الآيات الكثيرة من دلالاته، ولكننا اخترنا إجمال القول في القلوب على النحو الذي يؤدي بنا إلى ملامسة بعض الحقائق القرآنية، التي نرى أنها ذات دلالات مفيدة بعدما سبقنا كثير من العلماء إلى مثل هذه المباحث، وكلنا أمل أن نوفّق لاستخلاص مواقف ورؤى جديدة، أو على الأقل إلى تبويب بعض المباحث لتكون أكثر فائدة، ويكفينا للتدليل على ما نذهب إليه من صعوبة القول وعقبات البحث أن نلفت أنظار الباحثين إلى ما أجاد وأفاد فيه العلاّمة «**جوادي آملي**» في مبحث ختم القلوب وأقفالها[2]، حيث إنه أظهر عبقرية فريدة في تناول هذا المبحث، لكونه استوفى البحث في جملة من الآيات القرآنية، بالشكل الذي يؤكد حقيقة ما ذهب إليه الشيرازي بأنّ للآيات أبعاداً كثيرة قد لا يستطيع الباحث أن يتوقف عندها، وخاصة إذا كان لهذه الآيات أبعادها العقائدية والعلمية، وهذا ما أفاده «**الآملي**» لجهة تأكيده على أن القفل على القلوب والصرف لها وجعل الكنان عليها، إنّما يكون لها بجعل إلهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ...﴾[3]... وكذا ختم قلب الإنسان، فإنّه رغم ختمه، إنما هو مختوم بختم

(١) الشيرازي، نفحات القرآن، م.س، ج١، ص١٨.

(٢) جوادي آملي، علي بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤م، ط١، ص٧٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

إلهي[1].. لا على نحو الجبر أو الظلم، بل على نحو تحقق الأسباب والمسببات التي مقاليدها بيد الله تعالى، وهذا ما سيكون مدار بحث وتدبّر في فصول هذا الباب... إن شاء الله تعالى.

(١) م.ع، ص٧٧.

الباب الثاني

القلب المريض في القرآن

أولاً: صفات القلب المريض.

أ ـ القلب المريض والنفاق.

ب ـ القلب المريض وتنوّع الصفات.

ثانياً: أفعال القلوب وحجب الذنوب

أ ـ أفعال القلوب وآثار التربية والاعتبار.

ب ـ القلوب وحجب الذنوب

أولاً: صفات القلب المريض

انسجاماً مع ما ذكرنا في تمهيدنا، نستعرض جملة من الآيات التي تتحدّث عن القلب المريض، لنرى أن مواصفات هذا القلب في جميع الآيات تلتقي عند وصف يميّز هذا القلب، مع تسليمنا المطلق أنه ما من آية تكرر ذاتها، أو تظهر المدلول ذاته، وخاصة في الآيات التي تأتي على ذكر الكافرين والمنافقين، حيث إنّ ما يميّز هؤلاء بعضهم عن بعض هو أن الكافرين بعضهم أولياء بعض[1]. والمنافقين بعضهم من بعض[2]، ولا شكّ في أن لهذا الكلام القرآني مدلوله الخاص، وانعكاسه الحقيقي في تعبيرات وسلوكيات أهل الكفر والنفاق، هذا فضلاً عن أن صفات القلوب المريضة تختلف باختلاف التقلّبات التي تتعرّض لها، فتارةً يكون الوصف بلحاظ العقيدة، وتارةً يكون بلحاظ الالتزام الأخلاقي والعملي للناس، إلى غير ذلك مما يختلف معناه ومدلوله في سياق الآيات القرآنية، كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ...﴾[3]. فالآية ناظرة إلى قضية أساسية تتعلق بتحقيق الإيمان في القلوب، إذ لا يكفي أن نقول أسلمنا، وإنما لا بدّ من الإيمان الذي مركزه القلب، والذي لا بدّ أن يكون متحققاً

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ (الأنفال: ٧٣).

(٢) ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ ﴾ (التوبة: ٦٧).

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

بالإيمان على نحو يجعل باطن الإنسان وظاهره مسلماً لله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ...﴾[1].

إذاً، يمكن لمتدبّر بصير أن يلحظ الآيات القرآنية المتعلقة بمرض القلوب على نحو مجمل بهدف استخلاص الموقف والرؤية التي تحدّد ما يكون لهذا القلب من تحوّلات وتبدّلات في الظاهر والباطن، وهذا ما سنحاول القيام به في مبحثنا هذا لعلّنا نوفّق إلى ما استكناه حقيقة الموقف، **فنقول**: إنّ جملة الآيات القرآنية الناظرة إلى القلب المريض، تفيد بأنّ صاحب هذا القلب هو الذي تأسره الشهوات والملذات، ويتلهّى عن ذكر الله تعالى، ويكون له حالات من التقلب تجعله موصوفاً بكثير من الصفات التي تدلّ على مرض في قلبه، كأن يكون معلناً بخلاف ما في قلبه، أو شاكّاً، أو مستنكفاً عن الدعوة إلى الله سبحانه ورسوله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، فهذه الآية استجمعت صفات وحالات ثلاث تؤدي بهم في النهاية إلى الظلم، لكونهم أعرضوا وشكّوا وخافوا، وهذه صفات تنمّ عن أنّ هؤلاء لا إيمان حقيقي في قلوبهم يدعوهم إلى التسليم بحكم الله تعالى، وإلى اليقين والاطمئنان بأن الله تعالى لن يحيف عليهم ورسوله، ما أدّى بهم إلى أن يكونوا على حالة من المرض تكشف حقيقة ما هم عليه في الباطن، وهم وإن أظهروا خلاف ما في باطنهم، فإنّ حالهم ستؤول إلى النفاق، وهو مرض، كما يبين في القرآن، ويستجمع الكثير من الآيات، وهو لا يقتصر على عقائد هؤلاء في باطنهم، وإنما يتجاوزه إلى السلوكيات والأعمال والأخلاق. ومن هنا نلاحظ كيف أن القرآن يوصّف حالة هؤلاء على النحو الذي يُمكّن الباحثَ من استخلاص رؤية كاشفة عن حقيقة هؤلاء في العلم والعمل...

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة النور، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.

نعم، يمكن للباحث أن يقتصر في الكلام على ما سبق للعلماء أن درجوا عليه في بحوثهم بأن يقسم القلوب إلى ثلاثة أنواع، كما فعل الغزالي في إحياء علوم الدين، فيقول: «**والقلوب في الثبات على الخير والشرّ والتردّد بينهما ثلاثة:**

قلب عُمِر بالتقوى، وقلب مخذول ، مشحون بالهوى، ومفتوح فيه أبواب الشياطين، وقلب: تبدو فيه خواطر الهوى، فتدعوه إلى الشرّ، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير...»[1].

ولكن بما أن هذا التقسيم ينسجم مع منهجية التفسير الموضوعي، فإنّ مبحثنا سينحو بالبحث إلى مزيد من التفصيل من خلال التفسير الموضوعي أيضاً، بحيث نعرض لجملة من الآيات، ثم يأتي التعقيب والتفسير لها بحسب ما يقتضيه المنهج من تبيان قواعد، وجمع معلومات نخلص منها إلى نتائج واضحة ومحدودة في أنواع القلوب وفق ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام بأنّ القلوب أربعة، وقد أردنا الجمع بين القلب المريض بالنفاق والقلب المطبوع، لأن مؤدّى النفاق وتراكم الذنب أن يختم ويطبع على القلب، لا ابتداءً، وإنّما مجازاة ومعاقبة، وبالله التوفيق.

أ. القلب المريض والنفاق

قلنا في تمهيدنا إن القرآن الكريم يميز بين الكافر والمنافق، ويرشد في كثير من الآيات إلى أن المرض القلبي ليس هو الكفر فقط، بل قد يجتمع مرض القلب مع الإيمان، حيث قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[3] فالآيات المباركة تبيّن أن المسلمين الذين في قلوبهم مرض

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، م. س، ج٣، ص٩ ـ ١٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣١.

ذكروا منفصلين عن الكافرين والمنافقين، وتظهر أيضاً أن الإنسان قد لا يكون كافراً، ويكون مبتلى بالأمراض النفسية، وقد أرشده القرآن إلى السبل الكفيلة بمعالجته، حيث وصف له الدواء لشفاء عقله وقلبه وصدره، وهو القرآن من خلال اتباع تعاليمه، والاهتداء به لتحقيق السلامة النفسية والروحية والعقلية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾[1]، وهذه الهداية ليست منحصرة في الهداية إلى سلامة الأعمال، بل هي ناظرة إلى القوامية في مجال القلوب أيضاً، لكون الأعمال، هي في الحقيقة، ترجمة لما في القلوب من هداية، ولهذا جاء التعبير بأقوم على وزن أفعل، أي أنّه قد توجد سبل للهداية، ولكن القرآن يبقى هو الوسيلة المثلى لتحقق الهداية في الباطن والظاهر، وفي القول والعمل...

كما نلاحظ من السياق القرآني أنّ جملة الآيات التي تتحدّث عن مرض القلوب، وعن النفاق فيها، هي في الكثير منها تتعلق بالتجربة الإنسانية، لكون المنافقين قد خرجوا من باطن قلوبهم إلى واقع الحياة واختاروا أن يكون النفاق مسلكاً إلى الفوز بالدنيا، فكانوا يتلوّنون في حالاتهم لنيل رضى المسلمين في الوقت الذي كانوا يظهرون فيه الميل والمودّة لأعداء المسلمين، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[2].

فقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ ﴾ مرشد إلى أن هؤلاء قد تجاوز بهم المرض القلبي حدّ الخطّ الأحمر الذي يؤدي بالمنافق في كثير من الأحيان إلى أن يكون كافراً، فإذا كان معنى القلب المريض أنه القلب الذي له شيء من الحياة، ومحكوم للتجاذب بين أن يكون مؤمناً أو كافراً، فإنّ الأمر قد يصل به

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

إلى حدّ الموت، بحيث لا يبقى له معنى الحياة في شيء من الأقوال والأفعال، فضلاً عمّا يكون له في باطنه من تحولات تخرجه إلى الكفر، تماماً كما بيّن القرآن في الآية المباركة، حيث إن المنافقين قالوا للمؤمنين لا يكون بينكم وبين أعدائكم قتال، **«ولو علمنا أنه يكون قتال لخرجنا معكم، وأضمروا في باطنهم عداوة النبي، والمؤمنين، فقال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لأنهم بهذا الإظهار إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان، إذ كانوا قبل ذلك في ظاهر أحوالهم إلى الإيمان أقرب حتى هتكوا أنفسهم عند مَن كانت تخفى عليهم حالهم من المؤمنين الذين كانوا يحسنون الظنّ بهم، وليس المراد أنّ بينهم وبين المؤمنين قرباً يوجب دخول لفظة أفعل بينهم... وإنما هو مثل قول القائل. وهو صادق. لمن هو كاذب، أنا أصدق منك، وإن لم يكن بينهما مقاربة في الصدق»**[1].

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[3].

نلاحظ أن الآيات تتحدّث عن مرض القلب والنفاق في سياقات متعددة، منها ما يظهر حالة المرض والنفاق في دائرة قبول القرآن أو في رفضهم له، وقد حذّرهم القرآن أن تنزّل سورة تنبئهم بما في قلوبهم، ثم نرى الآية الثانية تتحدّث عن إخلاف الوعد، والتكذيب، بعد أن أشار القرآن إلى حالة الاستهزاء التي كان يعبر بها المنافقون عن قلوبهم، سواء بحق القرآن أم بحق النبي ﷺ، فهم في جميع حالاتهم

(١) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن (ت ٤٦٠هـ) مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٩هـ، ج٣، ص٤٤.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

القلبية الظاهرة والباطنة ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[1]، في حين نرى سياق الآية الثانية يشير إلى أن أهل النفاق بخلوا بما آتاهم الله من فضله،.. فأعقبهم نفاقاً، أي أورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم إلى يوم يلقونه، ففي الآية المباركة إشارة إلى عمل قلبي وآخر سلوكي، لأنّ الاستهزاء والتكذيب ناشئان عن كون مرضى القلوب والمنافقين يعبّرون عن اعتقاد راسخ لديهم أنّ الله تعالى ليس مطلعاً على ما يكتمونه، أما البخل، فهو ناشئ عن كونهم لا يعتقدون بالمعاد، فأورثهم البخل نفاقاً إلى يوم يلقونه، كما جاء في تفسير الصافي، حيث بيّن أن مرضى القلوب ليسوا فقط منحصرين بأعمالهم القلبية، وإنما لمرضهم آثار اجتماعية وسياسية لكونهم منعوا حقّ الله منه، وتولّوا معرضين عن طاعته[2]، وقيل كما عن الطبرسي قَدَّسَ سِرَّهُ، فأعقبهم الله بذلك حرمان التوبة كما حرم إبليس، وأراد بذلك أنه دلّنا على أنّه لا يتوب، كما دلّنا من حال إبليس على أنه لا يتوب، لأنه سلب عنه قدرة التوبة[3]. وإلى مثله ذهب الطباطبائي في الميزان، إذ رأى أن هؤلاء على نفاقهم إلى أن يموتوا، دون أن يقال: فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغيّر لحالهم فيما بعد الموت على أي حال[4].

إن هذا المرض، كما بيّن القرآن، فيما لو انتشر في المجتمع البشري، سواء في ما ينطوي عليه من اعتقاد في القلب أم في السلوك، لا بدّ أن يكون من مؤدّياته الهلاك للمجتمع، ولهذا قيل: إن الكافر مفضوح بكفره، وأما المنافق، فهو الذي يظهر الإيمان ويستبطن الكفر، وهذا ما يُخشى منه على المجتمع، لأنه يؤدي إلى

(١) ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء: ١٤٢).

(٢) انظر: الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، (ت ١٠٩١هـ)، تحقيق الأعلمي، ط١، ١٤١٦هـ، مؤسسة الهادي، قم، ج٢، ص٣٦١.

(٣) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٥، ص٢٦٥.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٩، ص٣٥.

تلبيس الأمور على الناس في دينهم ودنياهم، بل في حربهم وسلمهم، وفي كل شأن من شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع، لكون أهل النفاق هم أخطر الأمراض التي يمكن أن يتعرض لها مجتمع إنساني لما عرفناه عنهم فيما خصّوا به من مواصفات في القرآن، ويكفي أن نشير إلى أن ما أورده العلماء في تفاسير القرآن عن مرض القلوب فهم يؤكّدون أن الشيطان هو لسان هؤلاء وقلبهم، وقد أعقبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه لما هم عليه من ثبات في مرض قلوبهم... كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1]. فالآيات، كما نلاحظ، تستجمع صفات هؤلاء في العلم والعمل، في الاعتقاد وفي السلوك، وتؤكّد على أن صفات هؤلاء في الكذب والخداع، هي أهم ما يميّز هؤلاء عن الناس، هذا فضلاً عمّا تنفيه الآيات عنهم من إيمان، وتنسبه إليهم من إفساد في الأرض، فهم مرضى العقول والقلوب، ومتميّزون في إدراك أفعالهم من حيث كونهم واعين بالأهداف، وهذا من أهم ما يمكن استنطاقه من الآيات المباركة أن مرض هؤلاء ليس مجرّد مرض نفسي، وإنما يتجاوز ذلك ليكون مرضاً لا تزيده الأقوال والأفعال إلاّ مرضاً، كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾[2]، أي زادهم شكّاً إلى شكّهم، فكان لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة بما كانوا يكذبون. وهنا تجدر الإشارة في سياق الرؤية الموضوعية التحليلية أن نشير إلى أربعة مظاهر من مظاهر النفاق في الآية، فهم يدّعون الإيمان مع إخفاء نقيضه، ويخدعون أنفسهم ظنّاً منهم أنهم يخادعون الله تعالى والمؤمنين، وثالثاً: إنّ الله يعلم بحالة المنافق وأنه مصاب بحالة مرضية في قلبه، فزاده مرضاً حتى يتناسب مع العقوبة التي يستحقها مرض النفاق، ورابعاً: نرى

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ ـ ١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

التوصيف الحقيقي لحالة المرض بما هي كذب على الله ورسوله والمؤمنين إذ نرى الآية تجعل من النفاق والكذب توأمان وعقوبتهما واحدة.

وكيف كان، فإن هذا المرض الذي يرى العلماء أنه قابل للشفاء، ويجعلون منه حالة وسطية، بمعنى أنه قد يشتدّ، وقد يضعف بحسب ما يكون للإنسان من قوة في قلبه وإيمانه لمواجهة الأهواء والشهوات، ولكن القرآن يتحدّث عن هذا المرض بلغة أخرى، وذلك من خلال تأكيده على أن مرض النفاق هو في كثير من الأحيان ليس قابلاً للشفاء، وقد جاءت سورة «**المنافقون**» في القرآن لتؤكّد هذا المعنى، وقد استشرى هذا المرض لدرجة أنه جعل من الأمة الإسلامية في تاريخها أمة تائهة ضائعة ومنحرفة في كثير من قضاياها المعنوية والمادية، فضلاً عن سائر شؤونها الاجتماعية والسياسية والحضارية... والحديث ذو شجون.

فالقول بأنّ هذا المرض، مرض متذبذب بين السلامة والفساد، يعلو حيناً ويهبط حيناً، وتتجاذبه حالات الإيمان والكفر، وأنه مما يمكن شفاؤه، هو غير مرض النفاق الذي تحدث عنه القرآن في آيات كثيرة، لأن القرآن يُبَرِز هذا المرض، ويدعو العباد إلى الوقاية منه بالاستجابة لله تعالى ورسوله فيما أمر به ونهى عنه، وتطهير القلوب على النحو الذي يؤدّي بها إلى العقل عن الله تعالى، وقد بلغ القرآن في توصيفه لهذا المرض حدّ القول فيه إنه من أشدّ الأمراض التي تفتك بالمجتمعات الإنسانية، لما يؤدّي إليه هذا المرض من شرور وآثام، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1]، حيث نلاحظ أن الآية قد فصلت بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ما يعني أن المرض القابل للشفاء، والذي يمكن أن يؤول أمر أصحابه إلى السلامة والإيمان، هو الذي لا يكون على حدّ الشرك والكفر والنفاق، أما المرض الذي يكون على حدّ ذلك، فهو

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

قلب مختوم ومطبوع ومنكوس على حدّ تعبير الفقهاء، وهذا ما ينبغي التمييز بينه في بحوث العلماء والباحثين، لكون القرآن قد فصل الكلام في كثير من الآيات عن حالات المنافقين، وقد لاحظنا فيما عرضنا له من آيات كيف ميّز القرآن بين القلب المريض بالأعراض والأمراض والخطايا والذنوب، والقلب المريض بالنفاق، مبيّناً أن مرض النفاق هو أخطر على الناس من كل الأمراض الأخرى، وقد ابتليت به جميع الأمم قديماً وحديثاً، وإذا كان القرآن قد وضع إلى جانب مرض النفاق صفات وحالات أخرى تساوي هذا المرض أو تترتّب عليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1]، فإننا نقول بأن القرآن يقدّم مرض القلب دائماً على سائر الأوصاف الأخرى، وخاصة القلب المريض بالنفاق الذي يستتبع كل الصفات الرديئة والقبيحة من شك، وريب، وخوف، وحيف، وغير ذلك مما يلحق بهذا المرض وينشأ عنه. أما إذا كان منشأ الأمراض هو الشهوات والملذّات، فإنّ كثيراً من المسلمين والمؤمنين قد تلحق بهم هذه الأمراض، وقلّما نجد إنساناً مسلماً قد تطهّر من مرض التلوّث وعدم الثبات في طريق العبودية والميل للباطل واتباع هوى النفس، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2]، وكما روي عن الباقر عليه السلام أنّ المراد بالشرك في هذه الأمة، الشرك في الطاعة وليس شرك عبادة، وهو يعني أن الناس يعبدون الله بالوحدانية، ويطيعون الشيطان ويتبعون أوامره في ارتكاب الذنوب[3].

إذاً، لا بدّ من التمييز بين القلوب الكافرة والمنافقة والقلوب المريضة بالتلون وعدم الثبات، وهذا ما خصّص له القرآن الكثير من الآيات، فإذا قلنا: إنّ القلب تتجاذبه حالات الإيمان والكفر، فليس بالضرورة أن نعني به القلب المريض

(١) سورة النور، الآية: ٥٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٣) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص١٦٣.

بالنفاق، بل هو القلب الذي يعبد الله بالوحدانية ويطيع الشيطان. أما القلب المنافق والمريض بكل ما يستتبعه النفاق من أوصاف، فهو قلب غلبت عليه الشقوة، واستبدّت به القسوة حتى قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]، وخطورة هذا القلب أن الشيطان بلغ منه مبلغاً أدّى به إلى أن يكون على حدّ الكفر بالله ورسوله، وإذا ما بلغت القلوب هذه الحال، فإن الشيطان لم يعد له أثر في هذا القلب لكونه قد استحوذ عليه، ولم يعد له مطمع فيه، ذلك أن القلوب المريضة إذا آل أمرها إلى القسوة، فلا تلبث أن تموت، وإذا ماتت هجرها الشيطان لقسوتها وموتها، ولهذا نجد القرآن في بعض آياته يعرض لأقاويل الشيطان في سياق المجادلة مع الذين وقعوا في شراكه، إذ يقول لهم، كنت قد أمرتكم فاستجبتم لي، مظهراً الخوف من الله تعالى أمام الذين كفروا، حيث قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

إن الشيطان يستمر في مهاجمة القلوب المريضة، فإذا قست وماتت، فلا يبقى له ما يعمل عليه من إغواء وتضليل، بل هو في شغل شاغل مع تلك القلوب المريضة التي لا يزال فيها أمل الشفاء والحياة، وقد أجمع المسلمون على أن الشيطان لا يقترب من قلوب الأولياء والصدّيقين، لأنه يحترق باعتبار أن هذه القلوب محروسة بحقائق الإيمان التي تشكّل درعاً واقعياً للحيلولة دون نفوذ الشيطان إليها...

يبقى أن نشير إلى أن هذا النوع من القلوب المريضة، والتي يمكن إيجاد الشفاء

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

لها، قد ميّزها القرآن عن النفاق والكفر، وهذا ما سيكون موضوع بحثنا في الدراسات المقبلة، على اعتبار أن القلب المريض القابل للشفاء، هو القلب الذي يأخذ بالقرآن ويهتدي به للخلوص من شوائب ما يرد إليه من ملذات وشهوات. القلب الذي تأخذ منه الدنيا حيّزاً، وكما فصلنا الكلام سابقاً بأن القلوب ليست مجرّد عواطف ووجدانيات، بل هي بالإضافة إلى ذلك عقول وأرواح ونفوس، فهي عقل وتفكير إلى جانب كونها مركز الوجدان والأحاسيس، وبما أن المرض الذي يطال القلب ويتعرض له، لا يأخذ حيّزاً من القلب دون آخر، بل يطاله في وحدته وذاتيته، فيكون له الاستحكام عليه، سواء في العاطفة والوجدان أم في العقل والتفكير، باعتبار أن الأمراض نوعان، نوع يتعلق بالجوارح وهي الشهوات، وآخر يتعلق بالعقول، وهي الشبهات، وقد جاء عن أئمة أهل البيت في الحديث الصحيح، قولهم: «**إنما نخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**»[1]، والمضلات هنا هي الشبهات التي تعرض للعقول، وقد بيّن القرآن معنى أن تكون الشبهة سبيلاً إلى المرض العقلي، داعياً إيّاهم، أي الناس، إلى أن يكونوا على منهاج واضح فيما يتعلّق بأمور دينهم ودنياهم، بحيث لا يقولوا من غير علم، وأن لا يعبدوا الله من حيث يُعصى، وأن يكونوا على بيّنة من دينهم بحيث يعرفوا أن الحرام بيِّن والحلال بيِّن، وبينهما شبهات، وأن لا يحوموا حول الحمى، لأن مَن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه[2].

(١) جاء في الكافي مرفوعاً إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: نستهدي الله بعصم الهدى ووثائق العرى، وعزائم التقوى، ونعوذ بالله تعالى من العمى بعد الهدى، والعمل في مضلات الهوى... انظر: الكافي، الشيخ الكليني، (ت٣٢٩هـ)، م. س، دار الكتب الإسلامية، ط٣، ١٣٦٧هـ، ج٥، ص٣٧١.

(٢) عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ الحلال بيّن وإنّ الحرام بيّن، وبينهما شبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وأن لكل ملك حمىً، ألا وأن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب. انظر: محي الدين بن النووي، المجموع في شرح المهذب (ت ٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، لا ـ ت)، ج٩، ص١٤٩.

ب ـ القلب المريض وتنوع الصفات

إذا كان مرض النفاق هو أخطر مرض يمكن أن تصاب به القلوب، فإنّ هناك أمراضاً أخرى قد تتعرّض لها القلوب في معترك الحياة، ومخاضات الأحداث، وقد بيّن القرآن الكريم جملة من هذه الصفات فيما عرض له من آيات مختلفة تنوعت فيها الأوصاف، واختلفت في تظهيرها المفردات، وتكاد تبلغ هذه الصفات مستوى أن يكون القلب جامعاً لها لما تتوارد عليه من أحوال وأهوال، وملذّات وشهوات ومضلات، ويكفي هذا القلب أن يكون عرضة للشيطان، الذي يعده ويمنّيه، وهو ما يعده إلاّ غروراً، إضافة إلى ما تقدّم، فإنّ الصفات التي يذكرها القرآن الكريم بخصوص هذا القلب المريض ليست محصورة به، وإنّما تتعدّاه لتكون مواصفات عامة لكل القلوب التي تتّبع الشيطان من دون الله تعالى، وتعطيه مقاليدها وزمامها ليكون ناطقاً بلسانها، ومستحكماً على قلوبها حتى ينتهي به الحال إلى الفراغ منها بالموت....

ونظراً لكون حالات الإنسان القلبية تتفاوت بين إنسان وآخر، بين إنسان يتجاذبه الإيمان والكفر، وآخر يتغلّب فيه الإيمان على الكفر، وثالث يتغلّب فيه الكفر والنفاق على الإيمان، فإنّه يمكن للباحث المتدبّر أن يعرض لمجموعة من الآيات التي تخصّ القلوب المريضة، التي تراوح أمرها بين أن تكون على مرض قابل للشفاء، وأخرى لا شفاء لها، وهذا ما يدعونا أيضاً إلى أن نربط بين الآيات على النحو الذي يمكننا من استخلاص موقف ورؤية حول صفات القلوب، باعتبار أن الآيات القرآنية ترشد إلى أن منافذ القلوب من أسماع وأبصار وأفئدة، فضلاً عن الصدور، التي هي مجلى ومظهر هذه القلوب، ليست هي التي تعمى، أو تصمّ لكونها تشكّل حواساً ظاهرة تعضدها حواساً باطنة، تخرج بها العقول والقلوب إلى حدود الفعل والعمل، بحيث يكون البصر بصيرة، والسمع إصغاءً إلى نداء باطني رغم التعبير عن ذلك بحاسة

ظاهرة، وهي قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1]. فالقرآن يتحدّث عن القلوب، فيقول: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[2]، ويقول: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3]، إلى غيرها من الآيات الكثيرة التي تتحدّث عن ختم الأسماع والأبصار والقلوب، وهذه كلها أوصاف لا تطال الحواس الظاهرة وحسب، وإنما هي تلحظ حقيقة القلب كمركز وجوهر تصدر عنه حالات الإنسان، فيما يكون له من تحققات في العلم والعمل، وفي الحلال والحرام والشبهات...

لقد ظهر لنا أن القرآن في صفات القلوب المريضة يركّز على صفة المرض القلبي بما هو داء معنوي يصيب الإنسان ويحملهُ على الكذب والاستهزاء وغير ذلك مما عرض له القرآن من صفات هذه القلوب، ولعل أكثر الآيات قد جاء بهذه المفردة، مفردة المرض، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...﴾[4]، إضافة إلى صفات أخرى من قبيل الإشارة إلى القلوب اللاهية[5]، أو الزائغة[6]، أو الغافلة[7]، أو المصابة بالعمى[8]، أو بالغلظة[9]، أو بالتفرقة[10]، أو بالحسرة[11]، أو المخالفة[12]، والمرتابة[13]، ويأتي في طليعة هذه المواصفات، أنها قلوب مصروفة

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٥) قال الله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ (الأنبياء: ٣).
(٦) قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ...﴾ (آل عمران: ٧).
(٧) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ...﴾ (الكهف: ٢٨).
(٨) قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).
(٩) قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).
(١٠) قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ...﴾ (الحشر: ١٤).
(١١) قال الله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ (آل عمران: ١٥٦).
(١٢) قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ (آل عمران: ١٦٧).
(١٣) قال الله تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥).

عن الحق[1]، وهذا غيض من فيض مما جاء من مواصفات لهذا القلب المريض، وكما يقول الشيرازي: «**ومما يلفت النظر أن جملة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تكررت اثنتي عشرة مرة في القرآن، مما يكشف الأهمية التي أولاها الله تعالى لهذه المسألة، مع الالتفات إلى أن أغلب هذه الآيات عنت المنافقين...**»[2].

وعلى أية حال، فإنّ المستفاد من الآيات هو أن الإنسان كما يصاب جسمه بأمراض، كذلك روحه، فإنها تصاب بأمراض سببها «**النفاق**» تارةً، والأهواء والميول تارةً أخرى، وقد عرضنا لهذا المعنى سابقاً، إلاّ أنه ينبغي الإشارة أيضاً إلى أن هذه المواصفات للقلوب ليست مجرّد أحوال القلب الجسماني أو الروحاني، وإنما هي تتعداه إلى الحياة العملية، لأنّ مَن تُغيّر مزاجه الأمراض فهو مثلما أنه لم يعد قادراً على الاستواء على مذاق نفسه بحيث يميز بين ما هو كريه وما هو لذيذ، فكذلك هو قد يُصاب بالأمراض النفسية والقلبية التي تحول بينه وبين أن يكون له سلامة في عقله وروحه ونفسه، فلا يعود قادراً على إدراك الحقائق ووعي الأمور، لأنّ تغيّر المزاج الروحي نتيجة المرض لا بدّ أن يُحدِث تقلبات في ذات الإنسان، وممّا لا شكّ فيه أن هذه المواصفات للقلوب ليست مقيّدة بحالة الإنسان المادية، لكون الغلظة، أو الغفلة، أو الزيغ، أو الحسرة،... إلخ، هي مما تنفعل فيه القلوب، وتؤدّي إلى انفعال الإنسان عنها لتكون له حالات مختلفة ومتباينة في إدراك الحقائق وفهمها، وقد يبلغ الأمر بالإنسان المريض، وخاصة بالنفاق، إلى أن يعبّر عن ذاته بالانحراف عن فطرته، سواء بالتكذيب أم بالتأمر أم بالكيد، وهذه الصفات بجملتها تعني أن الإنسان المريض لا يعقل عن الله تعالى، ولا يستثير دفائن عقله بالوحي، بل يتنكّر لذلك، ويدعو إلى عبادة الهوى فيما يتّخذه لنفسه من آلهة سواء بالقول أم بالفعل،

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ...﴾ (التوبة ١٢٧).

(٢) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، تفسير موضوعي، م. س، ج١، ص١١٧.

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1].

كما نلاحظ أنّ الآية المباركة قد قدمت الختم على السمع والقلب، لكون السمع هو الذي تعرف به العلوم النقلية، وتسمع بها الآيات الرحمانية (الإلهية) من خلال الإصغاء إلى الأقوال، ثم ذكرت القلب بعد السمع لكون القلب هو الذي يدرك به الحقائق غير المحسوسة، ثم جاء البصر الذي به يميز بين الأشياء بعد مشاهدتها، وقد قلنا سابقاً إن الفؤاد هو العقل عند نضوجه، فهو أعلى درجة من العقل[2]، وقد جاء القلب هنا والختم عليه ليُفيد معنى الفؤاد الذي يؤدي الختم على السمع إلى أن يكون غشاء القلب قاسياً فلا تعلق به الشوائب على ما أفاد العسكري في معجم الفروق اللغوية، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]، يقول ابن شهرآشوب: «**ليس فيها أنه يفعلها الله تعالى في القلب أو يصدّ بها عن الإيمان، وإنّما أراد بالغشاوة الفهم للكفر ومحبتهم له، ولم يقل تعالى إنه جعل على قلوبهم غشاوة بل أخبر أنه كذلك[4]، فهم لما عدلوا عن الحق جعلت الأكنّة على قلوبهم والوقر في آذانهم أن يفقهوا عقوبة لهم لاختيارهم ذلك، ولم يقل لئلا يفقهوه، وهذا عدول عن الظاهر**»[5].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[6]، فهو مفيد لحقيقة ما علمه الله تعالى من أنه لا يستحق الثواب ولا يهتدي، كما أفاد ابن الجوزي في تفسيره[7].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص١١٥.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٦ـ٧.

(٤) ابن شهرآشوب، متشابه القرآن، م. س، ج١، ص١٥١.

(٥) م. ع، ص١٥٢.

(٦) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٧) ابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين، (ت ٥٩٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٧، ص١٢٧.

وهكذا، نلاحظ أن تنوّع الصفات للقلوب هي أحوال باطنة لها ويمكن أن تكون لها تمظهرات خارجية بأن يتحول الإنسان ويتقلب بحسب ما تكون الغلبة للهوى أو للعقل، باعتبار أن كلاهما فيه، يقول الغزالي: «**فهو معترك الفكرين، الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، فهو أبداً بين محاربتهما وتقاتلهما وتناقضهما، وحقّ للثغر أن يُحرس ويُحصّن ولا يغفل عنه، لأن الآفات إليه أسرع، والانقلاب إليه أقرب، ولقد قيل: «إنّ القلب أسرع انقلاباً من الْقدْر في غليانها، ثم إن زلّ القلب، فَزَلَلُهُ عظيم ووقوعه أصعب، أدناه قسوةٌ وميلٌ إلى غير الله تعالى، ومنتهاه ختم يكفر بالله تعالى..**»»[1].

لقد بيّن العلاّمة الشيرازي في تفسيره الموضوعي لجملة من الآيات القرآنية التي تعرض لمرض القلب مؤكداً على أنّ الآيات التي تجمع صفات القلوب، هي في الحقيقة حجب المعرفة، فالرين والزيغ، والقسوة، والطبع، والختم، وعدم الفقه، وجعل الأكنّة، وغيرها من الصفات لم تأتِ في القرآن لتفيد وحدة المعنى والمفهوم، وإنّما جاءت لتؤكّد على أن القلوب المريضة تتقلّب، وتؤول إلى الهواء تدريجيّاً، لتكون حجباً، باعتبار أن الخواطر للقلوب المريضة كالسهام، بل كالمطر، لا تزال تمطُرُ عليه ليلاً ونهاراً لا تنقطع، فهو بخلاف العين التي بين جفنين تغمّض وتستريح،... بل القلب غرض للخواطر، لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال، ثم النفس مسارعة إلى اتباعها، وقد بيّن الشيرازي أن هذا النفوذ التدريجي للحجب على القلوب، في ظلّ سهام الخواطر، هو دائماً يلحظ في القرآن في ضوء رؤية عامة لما خصّت به القلوب والصدور والأفئدة، فإذا ما أراد الإنسان أن يتعرّف إلى حقيقة الرؤية القرآنية، فلا يسعه إلاّ أن يتبصّر بمراد القرآن من هذا التنوع في الصفات على النحو الذي يؤدّي به إلى الكشف عن حقيقة الموقف.

(١) الغزالي، أبو حامد، منهاج العابدين إلى جنّة ربّ العالمين، تحقيق حلاوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ص١٧٨.

لقد ذكرنا سابقاً من أن الإنسان هو الذي يختار ما يؤول إليه حاله القلبية والنفسية والروحية، وهو ليس بملجأ إلى أي شيء من ذلك قهراً، أما تسمع قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، فكان الكبر في قلبه، فحمله على الإباء والكفر بظاهره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[2]. فكان الميل واتباع الهوى بقلبه، فحمله على ذلك الذنب المشؤوم بنفسه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3]، ولهذا المعنى، كما يرى الغزالي، خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم، وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها، كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[4].

غاية القول: إنّ القلوب المريضة في كل حالاتها، وفي ظلّ ما يتحقق لها من أوصاف في أعمال القلب وتقلّباته، وبالأخص منها القلوب المصابة بمرض النفاق، هذه القلوب إنما يكون لها ذلك، أي أوصافها المختلفة، وأحوالها المباينة بما تتقلّب فيه في الباطن، فيكون لها الختم والقفل والطبع... إلخ، وهذه المفردات التي استعملها القرآن هي لم تأتِ إلاّ لفائدة في المعنى والمفهوم. وبما أنّ القلب فيما يكتسبه من الذنوب والآثام، أو فيما يصلح به حاله، هو دائماً في تعبير عن ذاته، فإن صلح كان الصلاح في الظاهر والباطن، وإن فسد كان الفساد في الظاهر والباطن، لأن القلب هو ترجمان كل تحوّل إنساني في النفس والواقع معاً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[5]، هو ناظر إلى حقيقة الوحدة في ذات الإنسان لجهة تقلّب القلب في حالاته وأحواله، وما لم يصلح الداخل، فإنّ الخارج

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١١.

سيكون تعبيراً وانعكاساً لعدم صلاحه، فالقلب هو موضع نظر ربّ العالمين[1]، فضلاً عن كونه ملك مطاع ورئيس متّبع، فالأعضاء كلها تبع له، فإذا صلح المتبوع صلح التبع، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنّ في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، وإذا كان صلاح الكل في ذلك وجب صرف العناية إليه على حدّ تعبير العلاّمة الغزالي[2].

ثانياً: أفعال القلوب وحجب الذنوب

إنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسوّاه ونفخ فيه من روحه، ثمّ هداه النجدين، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، وكلّفه بما يحقق له سعادة الدنيا والآخرة، فكان له نورٌ يهتدي به في الناس، وإيماناً يخرج به من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾[3]، هذا فضلاً عمّا خصّ به الإنسان من إرادة واختيار ليكون مسؤولاً عن فعله، وشاهداً على نفسه، فلو لم يكن الإنسان مختاراً في أفعاله، صالحة أم طالحة، وفي انتخاب طريقة حياته، إيماناً أو كفراً، لما صحّت نسبة الفعل والمسؤولية إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[4]، وقال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ

(١) قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». فالقلب الإنساني، كما يرى الغزالي، هو موضع نظر ربّ العالمين، فيا عجباً ممن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظّفه من الأوساخ... ولا يهتمّ بقلبه الذي هو موضع نظر ربّ العالمين، فيطهّره ويزيّنه ويطيّبه، كي لا يطلع الربّ سبحانه على دنس فيه، بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح، لو اطّلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرّؤوا منه وطردوه... انظر: الغزالي، منهاج العابدين، م. س، ص١٧٦.

(٢) م. ع، ص١٧٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1]، وقد أرشد الأئمة عليهم السلام إلى هذه الحقيقة مؤكّدين على مسؤولية الإنسان وحريته في اختيار طريق حياته، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «**ألا أعطيكم في هذا أصلاً لا تختلفون فيه، ولا يخاصمكم عليه أحداً إلا كسرتموه؟ قلنا: إن رأيت ذلك، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ لم يطع بإكراه، ولم يُعصَ بغلبة، ولم يهمل العباد في مُلكه، هو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعة، لم يكن الله عنها صادّاً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصية، فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه، ثم قال عليه السلام: من يضبط حدود هذا الكلام، فقد خصم من يخالفه،...**»[2].

لقد سبق الكلام في البحوث السابقة عمّا خصّ به هذا الإنسان من عقل وحواس وقلب يهتدى من خلاله إلى بناء حياته وتنظيم معاشه، وقد أثبتت التجارب أن الحسّ والعقل عاجزان عن تعيين منهج وثيق للحياة، وكما يقول اليزدي في معارف القرآن: «**إنّ الحواس والعقول ليست قادرة بشكل عام على إصدار أي حكم فيما يخصّ عالم الآخرة وعلاقاته بهذا العالم، لأنّ عالم الآخرة هو خارج عن نطاق الحسّ والتجربة... والحكمة الإلهية تقتضي أن يكون الله تعالى قد جعل للإنسان طريقاً يهتدي من خلاله ليس إلى نظم علاقاته الدنيوية وحسب، وإنّما إلى تحقيق كماله، وهذا الطريق ليس هو إلاّ طريق الوحي...**»[3].

وهذا ما يطالعنا به القرآن في لحظة الهبوط الآدمي إلى الأرض التي أراد الله تعالى أن يكون الإنسان خليفته فيها، فقال له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) الشيخ المفيد، محمد بن النعمان، الاختصاص، (ت ٤١٣هـ) تحقيق علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ص١٩٨.

(٣) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، م. س، ج٤، ص١١٥.

هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[2]، وقد جاء هذا الهدى لهدي القلوب وإرشاد العقول إلى سبل السعادة والكمال، فمن أخذ به فقد أخذ بحظّ وافر ونال شرف الانتماء للسماء فيما اختاره لنفسه من دين قيّم، وتعاليم سمحاء ليفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة...

إذاً، الإنسان لم يُخلق سدى، ولم يترك هملاً، وإنما اختير له أن يكون خليفة في الأرض، وحاملاً للأمانة، مميّزاً عن سائر الكائنات بما خصّ به عقل وقلب وحواس، حيث أراد الله تعالى له أن يتربّى ويصنع على عينه تعالى فيما أوحاه إليه من دين، وفطره عليه من توحيد، فكانت له تربيته الخاصة، وهدايته التشريعية بعد التكوينية لأجل أن لا يخاف ولا يحزن، ولا يضلّ ولا يشقى، بل يسعد في دينه ودنياه وآخرته.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن قلوب الناس وعقولهم لم تترك لتكون كالنبات ليس لها زارع ولا لاختلاف أحوالها صانع، بل عهد إلى الأنبياء والرسل تربيتها لإخراجها من الظلمات إلى النور، وهدايتها إلى سبيل الرشاد من خلال إثارة دفائن عقولها حتى تهتدي إلى نور ربها فتتحقّق به؛ لما أجمع عليه العلماء وأهل الحكمة بأن القلب هو خزانة كل جوهر للعبد نفيس، وكل معنى خطير، أولها العقل، وأجلّها معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين... وهذا القلب ما كان ليترك دون عناية ولا هداية لكي تستبدّ به الأهواء، وتأخذ به المضلات إلى حيث لا سعادة ولا منازل ولا درجات، فجاء الوحي مع الأنبياء لتتميم مكارم الأخلاق، وتربية العقول والقلوب وتطهيرها لإجلاء الشياطين عنها، ولهذا نجد أن أكثر آيات القرآن فيما خوطب به الإنسان تأتي بمفردة «ربّك»، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٢) ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣).
(٣) سورة العلق، الآية: ١.
(٤) سورة الانفطار، الآية: ٦.

﴿بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ...﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات التي تستوقف الباحث طويلاً لاستكناه معنى التربية في خط الهداية للقلوب والعقول لكي لا يطالها الختم، والطبع، والقفل، وغير ذلك مما وصفت به القلوب المريضة بسبب هجرانها لأسباب حياتها، يقول العلاّمة مطهّري قدس سره في كتابه التربية والتعليم في الإسلام: «**إنّ التربية هي عبارة عن التنمية، أي إظهار القابليات الكامنة في باطن الإنسان، والموجودة بالقوة فيه إلى مرحلة الفعلية، ولذا تصدق التربية فقط على ذات الأرواح، وإن استخدمنا هذه الكلمة في غير ذات الأرواح، فيكون ذلك مجازاً...**»[2]، وإلى مثل هذا ذهب العلاّمة مغنية في فلسفة الأخلاق[3]، وسيّد قطب في معالم الطريق[4]، حيث رأوا أن الدين يوفّر التربية الصحيحة للإنسان لتكون له السلامة في الباطن والظاهر...

أ. أفعال القلوب وآثار التربية والاعتبار

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[6].

وقال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[7].

وقال الله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[8].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) مطهري، مرتضى، التربية والتعليم في الإسلام، المنامة، مكتبة فخراوي، ط١، ١٩٩٣م، ص٣٣.

(٣) مغنية، محمد جواد، فلسفة الأخلاق في الإسلام، بيروت، دار الجواد، ط٥، ١٩٩٢م، ص١٩٤.

(٤) سيد قطب، معالم في الطريق، دار دمشق، (لا. ت)، ص٢١٩.

(٥) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٦) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٨) سورة النور، الآية: ٥٠.

إنّ منهجنا في التفسير الموضوعي يفرض علينا أن نلحظ الآيات وفق سياقها القرآني، وكما أشرنا سابقاً إلى أن ضرورات المنهج تقتضي أن نؤسّس لقواعد عامة ننطلق منها في استخلاص النتائج، وقد آثرنا أن نعرض لجملة من الآيات التي نرى أنه يمكن من خلالها الاستدلال على أفعال القلوب المريضة التي لم تتربَّ على هدى الإسلام، واختارت أن تكون العقول والقلوب فريسة لجنود الهوى، ومطية للشيطان يأخذ بها إلى حيث الهوان والعذاب، ويجعل منها شرّ الدواب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

فالآيات المباركة، كما نلاحظ في أدنى تأمّل، تدعو إلى التدبّر في القرآن لكونه سبيل الهداية إلى الحق، بحيث يفهم الإنسان عن الله تعالى ويعقل عنه، هذا فضلاً عن كونه ـ أي القرآن ـ كتاب هداية وتغيير وحياة، ومن شأن الاستجابة لما أمر الله تعالى أن يخضع الإنسان قلبه وروحه وعقله لهتاف الحق، الذي يؤدّي به في النهاية إلى أن يكون له الفوز والسعادة بما يحققه لنفسه من تربية قلب وهداية عقل، فلا يكون ممن أقفلت قلوبهم، وصمَّت أسماعهم، إلى غير ذلك من مواصفات تحقّ على أهل الضلالة والهوى. ولهذا، فإنّ ما تشير إليه الآيات بحسب الرؤية الموضوعية، هو أن العمى الحقيقي إنما يكون للقلوب التي في الصدور، لأنها لم تتدبّر في القرآن، كما يمكن الإشارة أيضاً إلى أن آية: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ...﴾، قد أسند القلب فيها إلى فعل العقل، إذ لم تقل الآية «**لهم عقول لا يفقهون بها**»، بل قالت قلوب، ما يؤكّد حقيقة احتواء القلب للعقل، وبأنه مركز الحواس الظاهرة والباطنة لدلالة السياق على جامعية القلب مع الحواس، وخاصة الحواس التي تشكّل العمدة في حواس الإنسان وهما السمع والبصر، ومثلما أن القلب في الآية قد أسند إلى فعل

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٥.

العقل، كذلك نجد أن السمع قد أسند إلى فعل ونداء باطني رغم التعبير عنه بحاسة ظاهرة وهي الأذن، وهكذا البصر، فكل هذه الحواس التي جاءت مع القلب في سياق واحد، هي تؤكّد على معنى البصيرة والرؤية القلبية، لأن الاعتبار الحقيقي هو للقلب بما هو مركز النور والإشعاع، ويستجمع كافة القوى، وإذا كان القرآن قد أرشد في بعض الآيات إلى أن القلب هو العقل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[1]، والتي فسّرت بأنها العقل، فذلك لا يدلّ على عدم احتواء القلب للعقل، بدليل أن كل شيء، بل كل فعل قد أسند حقيقة إلى القلب باعتباره جوهر الروح، واللطيفة الربّانية المدركة، وهناك جملة من الآيات القرآنية التي تفيد هذا المعنى وتنسب العقول إلى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2]، فهذه الآية ناظرة إلى أن الإنسان قد يمرّ على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية ولا يحسّ بها ولا يدرك حقيقتها، لأن بصيرته مظلمة، وقلبه أعمى، وقد تتكشّف الحقائق فيراها أمامه جليّة واضحة، يراها بقلبه وبصيرته التي هي في أعماق نفسه. إنّه القلب الذي سبق لنا أن تحدّثنا عن مكانته، وما يتميز به من كليّة وذاتية فيما يؤديه من دور ووظيفة، سواء بالمعنى المادي أم بالمعنى الروحي، ومن شأن تربية هذا القلب وهدايته أن تجعل منه قلباً واعياً وعاقلاً، بحيث لا يكون غافلاً، وهنا نتلمّس حقيقة مهمة جداً تكمن في الاستعمال القرآني لمفردة «**الغافلون**» في سياق الحديث عن القلوب التي لا تعقل ولا تفقه والأبصار والأسماع، حيث ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾. أما في قوله تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فقد جاء القرآن بمفردة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهنا يبدو السؤال

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

ملحّاً، فما هو الفرق بين أن يكون الإنسان غافلاً، وأن يكون ظالماً؟

إنّ الإجابة على السؤال كامنة حتماً في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1]، فالغفلة هنا، هي غفلة عمّا يراد بهم، وعن النظر في الآيات، غفلة تؤدّي بهم إلى أن يكونوا الخاسرين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾[2]، لأنّ مطلع الآية جاء بالطبع على قلوبهم ثم ختمت بالخسارة في الآخرة، فإذا ما ضمّت آية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[3]، إلى هذه الآية، آية الطبع، فيكون المعنى الذي نستخلصه، هو أن هؤلاء فقدوا هويتهم الإنسانية، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم، باعتبار أن الآية تلمّح إلى فريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر، كما أفاد العلاّمة الشيرازي في تفسيره[4]، أما آية: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فيما جاءت فيه من سياق، فهي تلمّح إلى العناد والكفر، لكونها أتت للتوبيخ والتقريع ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، ودلّت على أن ما كان منهم أكان بسبب النفاق الكائن في قلوبهم أم بسبب الريب، أم الخوف أن يحيف الله عليهم ورسوله، والحيف هو: الميل في الحكم، يقول الشوكاني في فتح القدير: «**ثم أَضْرَبَ عن هذه الأمور التي صدّرها بالاستفهام الإنكاري، فقال: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ليس ذلك لشيء مما ذكر، بل لظلمهم وعنادهم...**»[5].

وعليه، فإن مما تمتاز به آية الغفلة عن آية الظلم، هو أن آية الغفلة مخصوصة

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص.

(٥) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير، م. س، ج٤، ص٤٥.

بالطبع، في حين إن آية الظلم مخصوصة بالنفاق، فيكون محصّل الكلام أن القلب المريض في كلا الحالتين مآله إلى الخسران في الآخرة، ومن تتحقّق له الخسارة بسبب غفلته أو ظلمه، فلا بدَّ أن يكون عادماً لعقله، وخاتماً وطابعاً على قلبه، لكونه اختار أن يكون كالأنعام أو أضل، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وهذا ما دلّ عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[1].

إذاً، أقفال القلوب، هو تبع لحالاتها، وما تتربّى عليه، لأن التربية، كما ذكرنا، هي أساس كل تحوّل إيماني في حياة الإنسان، وهي التي تؤدّي به إلى أن يكون له قلب وبصر وسمع وفؤاد، وهي التي تنعكس في حياة الإنسان العملية أفعالاً مختلفة يؤدّيها الإنسان بوحي من إيمانه، وقد جاءت النبوات تترى وأنزلت الرسالات السماوية لإحياء القلوب والعقول وإثارتها باتجاه الحق ليكون لها أفعالها المتناسبة وهيأتها، سواء في الدين أم في الدنيا، فإذا ما انعدمت هذه التربية، أو أُديت على غير وجهها بأن سلك الإنسان سبلاً شتّى لتحصيلها[2]، فإنّه لا يلبث أن يقسو قلبه وفعله المترشّح عن حالة قلبه وقسوة فؤاده، وضيق صدره، ولا شكّ في أنه من مؤدّيات قسوة القلب، نسيان الآخرة لقول الإمام علي عليه السلام: «**أيها الناس، إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى**

(١) سورة النمل، آية: ٨٠.

(٢) يقول سيد قطب: «فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله، أفراداً أو مجتمعات، وهو التعلق بالنظرة إلى نفس الإنسان، إلى حركة تاريخه، وما يختصّ بتفسير نشأة هذا الكون، ونشأة الحياة، ونشأة هذا الإنسان ذاته ـ من ناحية ما وراء الطبيعة ـ وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب... إلخ. فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأحوال التي تنظّم حياته ونشاطه، مرتبط بالعقيدة الإسلامية ارتباطاً مباشراً، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلاّ عن مسلم يثق في دينه وتقواه... إنّ اتجاهات الفلسفة والتاريخ الإنساني وعلم النفس، ومباحث الأخلاق، والتربية وكل المذاهب الاجتماعية... هي بجملتها، فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة، لا النتائج العامة المستخلصة منها... إنّ هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي قديماً وحديثاً، متأثّرة تأثيراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات... وهذا كله يقتضي الحذر منها في تربية الإنسان عليها... معالم في الطريق، م. س، ص١٧٤.

وطول الأمل، فأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[1].

فإذا ما أدت التربية إلى رقّة القلب ولين الفؤاد وشفاء الصدر، فإنّ ذلك من شأنه أن يبقي للإنسان حالته الروحية، ويُسهِّل عليه إمكانية التحول الإيماني بحيث يكون ثابتاً في قول الحق، وفي فعل القلب، وقد أرشد القرآن فيما دعا إليه من تربية وذكر ودعاء وتفكّر وتعقّل إلى السبل الكفيلة باستحضار الآخرة في كل عمل أو فعل دنيوي، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾[2]، وأن الدنيا دار لهو ولعب وتكاثر في الأموال والأولاد، إلى غير ذلك مما ميّز به بين الدنيا والآخرة، فجعل السبيل إلى الحياة الآخرة رقّة القلب ولين الفؤاد وجعل السبيل إلى الخسران قسوة القلب ونسيان الآخرة، وهذا ما شرحه الإمام الغزالي في منهاج العابدين، بقوله: «**إنّما رقّة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة، وإذا لم يكن شيء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقّة وصفوة؟ قال الله تعالى:** ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾[3]، **فإذن أنت، والكلام للغزالي، إذا طولت أملك، قلّت طاعتك، وتأخرت توبتك، وكثرت معصيتك، واشتدّ حرصك، وقسا قلبك، وعظمت غفلتك عن العاقبة، فذهبت آخرتك، فأي حال أسوأ من هذا؟ وأي آفة أعظم من هذه، وكل هذا بسبب طول الأمل...**»[4].

لقد ربط القرآن بين فعل القلوب والعقول والسير في الأرض، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[5]، وهذا الربط هو دليل ساطع على ضرورة أن يكون العالم مجلى قلب الإنسان وعقله، يسير فيه ويعتبر منه لما في هذا السير من

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ٢٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٤) الغزالي، أبو حامد، منهاج العابدين، م. س، ص١٨٣.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٦.

تربية للإنسان، وهذا الأخير بقدر ما يكون له من اعتبار وانعكاس إيجابي، بقدر ما يكون سيره في الأرض مثمراً. ذلك أن الموعظة وحدها ليست كافية لإثارة قلب الإنسان وعقله، وإنما هي معضودة بآيات التكوين لتكون كل من آيات التشريع والتكوين مجالاً لاعتبار الإنسان، بحيث يعقل عن الله تعالى بقلبه وعقله وروحه، وتكون له البصيرة والرؤية القلبية في كل ما يتحول فيه العالم من حوله، وقبل ذلك في كل ما تتحوّل فيه نفسه ويتقلّب فيه قلبه، لأنّ الآية تلحظ معنى أن يكون فعل الإنسان نتيجة لتأمّله وتدبّره، فضلاً عن حياة قلبه وعقله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴾، حيث إنه ردّ العماية إلى القلوب التي في الصدور، لأنّ الأبصار قد تعمى، وكل الحواس الظاهرة قد لا تفيد في حقيقة الاعتبار، ولولا أن الله تعالى قد مَنَّ على الإنسان بالوحي والرسالات لما اهتدى إلى سبل كماله، ولا تحقق في معارفه وعلومه. وبما أن القلوب هي مستودع كل تحوّل، وملاك كل اعتبار، وسبب كل معرفة ورؤية، فقد جاء الوحي لإثارتها وهدايتها إلى ما ينبغي أن تكون عليه من نور وهدى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. فالآية، كما نلاحظ بدأت بالناس، وانتهت بالمؤمنين، لأنهم يحسنون العقل عن الله تعالى، ويسيرون في الأرض، ويعتبرون بآيات الله تعالى في التكوين والتشريع، ولهذا، أمر الله تعالى بالسير في الأرض، والنظر في الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ...﴾[2]. وهذه دعوة، فيما لو تدبّرنا فيها، إلى السير العلمي في الأرض بقلوب تعقل وآذان تسمع وبصائر حيّة، وصدور مشروحة، وإذا كانت هذه الآية تبدأ في الناس، إلاّ أنها فيما ختمت به، تخصّ المؤمن والمسلم الذي يأمره القرآن بالسير في الأرض والعلم والمعرفة، لأن الاعتبار المنطلق من حياة القلوب

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

وشفاء الصدور لا بدّ أن يؤول إلى معرفة حقائق الوجود، لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾. فهذه الآية ناظرة إلى حقيقة نشأة الوجود، وكيف بدأ الخلق، وكيف علّم الإنسان ما لم يعلم، آية تبدأ بالإنسان كونه المخاطب بها، وتنتهي بالوجود، بمعنى أن الآية تخاطب القلب والروح والنفس، بل وحدة الإنسان في ذاته، وما نفخ فيه من روح الله تعالى، وتنتهي بالعالم الأكبر الذي يحيط بالإنسان، وكل فعل إنساني لا بدّ أن يكون صادراً عن وعي بحقيقة هذه الوحدة التي لها وجوه ووجوه مع التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي، لأن روح الإنسان في الحقيقة هي من تجلّيات الوحدة في الألوهية والربوبية، كما ذكرنا سابقاً في وجوه التماثل والتشابه فيما تتمايز به الروح الإنسانية...[1].

ثمّ إنّ معنى السير في الأرض والنظر في الخلق ليس بهدف الاعتبار وحسب، وإنما هو دعوة، كما قلنا، للعلم والمعرفة بحقيقة الإنسان والكون والوجود، علماً يبدأ بالفلسفة الإلهية والتوحيد والفطرة الإنسانية، وينتهي بعالم الأرض وما ينجزه عقل الإنسان في طريق اعتباره، وتحولات قلبه وروحه فيما يكون لهذه الروح من وعي بحقائق الأمور، ولكن للأسف نقول: إن المسلمين لم يفعلوا شيئاً بوحي من حياة القلوب والعقول، ولم يسيروا في الأرض، ولم يعتبروا من النظر في الوجود والخلق، فكان لهم التخلّف في الدين والدنيا، في الدين لأنهم لم يثاروا على مستوى الموعظة بالقلوب والعقول، وفي الدنيا لأنهم لم ينظروا في الخلق ولم يسيروا في الأرض على النحو الذي يؤدي بهم إلى الاعتبار بحقاق الوجود في ضوء معارف القلوب، فكان لهم انحصار الصدور وضيق الصدور، فضلاً عمّا تحقق لهم من موت معرفي وقلبي

(١) يقول مطهري: «إن التوحيد النظري هو إدراك لوحدانية الله تعالى، أما التوحيد العملي فهو «توحيد» ذات الإنسان والتوحيد النظري «رؤية»، أما التوحيد العملي فهو «سلوك»، والتوحيد النظري يمنح الرؤية الواضحة للكمال، أما التوحيد العملي، فهو يوجه الحركة نحو السبيل الموصلة إلى الكمال... را: مطهري، الكون والتوحيد، دار الأمير، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٤٨.

وروحي، فحقّ القول في أكثرهم إنهم لا يهتدون سبيلاً.

لقد أدّى بهم انعدام النظر في الظاهر والباطن إلى التخلف عن ركب الحضارة، فوقعوا في الخسران المبين في الدنيا والآخرة، ولو أنهم ساروا في الأرض ونظروا إلى الخلق بوحي من فطرتهم وحياة قلوبهم، لأبصروا بعيون القلوب، وأدركوا حقائق الأمور، وفازوا بهدى الفطرة والنور، وفعلوا كل شيء يؤدّي بهم إلى السلامة في الدين والدنيا، ولكنهم أخفقوا في السير والنظر، فوقعوا أسرى الغرور والترف والبطر، واستحال أمرهم إلى مزيد من الغفلة عمّا يُراد بهم فيما جعل لهم من قلب وسمع وبصر.. إلخ.

ب ـ القلوب وحجب الذنوب

تقدّم الكلام في أن الله تعالى قد جعل للمعرفة مصادرها التي تُستقى منها، وقد احتوى القرآن الكريم على كثير من الآيات التي تتحدّث عن العقل والحواس والتاريخ، إضافة إلى مركزية الوحي في هذه المصادر، لكونه السبيل الوحيد لتحقيق الكمال بعدما عجز العقل والحواس وسائر المصادر الأخرى عن تأمين كل ما يلزم الإنسان للفوز بسعادة الدارين، وقد أوضح علماء التفسير أن هذه المصادر المعرفية يمكن أن تلحق بها الغشاوات، فلا تهتدي إلى سبيل ربها، لما قد يكتنف القلوب والعقول من التباسات وحجب تحول بين الإنسان وبين أن يكون له تواصله مع الله تعالى في طريق كدحه إليه. وبما أنه قد سلف القول منّا في معنى حياة هذه المصادر فيما عزّزت به من وحي، فقد باتَ لزاماً علينا أن نتحدّث عن حجب المعرفة التي هي في الحقيقة حجب على القلوب طالما عرفنا أن القلب هو مركز الحياة، سواء في المعنى المادي أم في المعنى الروحي، وأن كل ما يلحق به من طبع وختم وأقفال ورين وزيغ... إلخ، إنما يكون له بسبب ما يُحدثه الإنسان لنفسه، كما قال ابن شهرآشوب في متشابه القرآن: «**الختم في الشاهد غير مانع من الإيمان**

لأنه يفك المختوم من الكتب... وإنما هو علامة يُعرف بها تناول المختوم عليه، والمختوم على قلوبهم، إمّا أن يكونوا قادرين على الإيمان قبل الختم أو غير قادرين، فإن كانوا غير قادرين استحال المنع، وإن كانوا قادرين عليه قبل فهم من حال الختم قادرين، وقيل ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي تشهد به وتصدّقه، وقد ختمت عليك بأنك لا تعلم أي تشهد، ويحتمل أن يكون المراد بختم أنه سيختم ويكون الماضي بمعنى المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وقيل المعنى في ذلك إنه ذمهم بأنهم كالمختوم عليها في أنه لا يدخلها الإيمان ولا يخرج عنها الكفر، كما قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي»[1]

لقد التبس الأمر في الختم والطبع على الكثير ممن ادّعوا العلم وليسوا به، فقالوا بالجبر ظنّاً منهم أن الإنسان مجبور على فعله، ومخلوق مع عمله، وهذا ما أودى بالكثيرين إلى مزالق شتّى، رغم أن الآيات القرآنية في سياقاتها المتعددة ومن خلال ضمّ الآيات بعضها إلى بعض، يمكن أن نهتدي إلى حقيقة الموقف القرآني من استعمال هذه المفردات، لأن القرآن يشهد بعضه على بعض، ويصدّق بعضه بعضاً على حدّ تعبير أئمة أهل البيت ، ولعل من أهم الأدلة على أن الختم أو الطبع، أو الأقفال إنما يكون من اختيار الإنسان، هو ما جاء به القرآن من آيات تفسّر معنى الختم على القلوب والطبع عليها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، وهذه الآية تدلّ على أن الطبع وقع بنفس الكفر، والخصم لا يقول بذلك، على رأي ابن شهرآشوب، وبهذا يكون معنى الطبع والختم العلامة المميزة

(١) ابن شهرآشوب، محمد بن علي المازندراني، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، قم، ط٢، (لا ـ ت) ج١، ص١٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٨٨).

بين الكافر والمؤمن، والمنع إنّما يصحّ في القادر لأن من ليس بقادر على الشيء غير معقول[١].

انطلاقاً مما تقدّم، نرى أن حجب الذنوب على القلوب لم يعرض لها القرآن في سياق واحد، بل جاءت مختلفة باختلاف المواضيع والعناوين التي عرضت لها، فمن هذه الحجب الذنب الذي يُعمي الإنسان ويصمّه[٢]، ومنها حجاب الكفر[٣]، كما سلف القول، ومنها حجاب الاعتداء والعدوان[٤]، ومنها حجاب الارتداد[٥]، ومنها حجاب الكذب والافتراء، وغيرها كثير.

وبما أنه لا يسعنا أن نعرض لكل هذه الحجب لما تحتاج إليه من توسعة في اللغة والاصطلاح والمفهوم، وفي كل ما يلزم لتفسيرها في سياق موضوعي واحد، إضافة إلى ما يحتاج إليه الوقوف عندها من ملامسة لحقيقة التجارب الإنسانية، وخاصة التجربة الإسلامية، فقد رأينا أن نشير فقط إلى ما يوضّح مطلبنا في هذا المبحث الجزئي على أمل أن نوفق لهذه المباحث في بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى، كما لا يفوتنا أيضاً أن نذكر الحجب الخارجية التي تحول في كثير من الأحيان دون حياة القلوب بالعلم والمعرفة، كحجاب القادة الضالين والمفسدين، وهذا ما أجاد وأفاد فيه العلاّمة الشيرازي في تفسيره الموضوعي، حيث رأى أن هذا الحجاب له تأثير قوي على قلوب الناس لكونه يحول بينهم وبين الحق والمعرفة بما يلجأ إليه الطغاة من وسائل في التضليل والدعاية، وغير ذلك مما يشكل قوام كل سلطة ظالمة ومفسدة[٦].

---

(١) ابن شهرآشوب، متشابه القرآن، م. س، ج١، ص١٥٢.

(٢) قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ (محمد: ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١).

(٤) قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (يونس: ٧٤).

(٥) قال الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٣).

(٦) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٣٠٨.

لذا، فإن ما نقتصر على بحثه هنا، هو حجاب الذنوب على القلوب، لكونه الحجاب الذي يتسبب به الإنسان لنفسه من خلاله علمه ومعرفته، أو من خلال سلوكه، هذا فضلاً عمّا يُوَفِّره الذنب من أجواء ومناخات للسلطات الظالمة لتزيد من ظلمها وإفسادها في المجتمع، تماماً كما ذكر الإمام الصادق بقوله: «**لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا...**»[1].

إنّ الذنب الذي يرتكبه الإنسان لا بدّ أن يكون له أثر في قلبه وانعكاس في سلوكه، ونحن في هذا المبحث سنعرض لجملة من الآيات والروايات، بحسب المنهج الموضوعي، الذي يبيّن معنى أن يكون الذنب حجاباً ورِيناً وختماً وقفلاً على قلب الإنسان، فنقول: إنّ فصل الكلام عن الحجب هو مما تقتضيه المنهجية العلمية لكون القرآن الكريم يأتي بالآيات بلحاظ سياق كاشف عن حقيقة الحدث، فهو إمّا أن يكون عقائدياً، وإمّا أن يكون اجتماعياً، أو سياسياً، أو اقتصادياً، أو غير ذلك مما اشتملت عليه الآيات من مواضيع تتعلق بالدنيا والآخرة والمعاد.. كما يقتضي المنهج أيضاً أن نتوقف مليّاً عند حجاب الذنب الذي يؤسّس لكل التحولات القلبية والعقلية والمعرفية في المجتمع، باعتبار أنه يُفسد على الإنسان حياته، ويُحدث على القلب ريناً وغلافاً، هذا فضلاً عمّا يؤدي إليه الذنب من معاصٍ في العلم والعمل، وكل ذلك إنما يكون من القلب الذي يؤدي به الذنب فيما لو تراكم وتتابع إلى أن يكون مختوماً ومقفولاً، وقد جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إنّ لك قلباً ومسامع وإنّ الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ**

(١) الشيخ الكليني، كتاب الكافي، (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق غفاري، مطبعة حيدري، ط٣، ١٣٦٧هـ، ج٥، ص١٠٦، وقا: مع الطوسي، تهذيب الأحكام، (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق الخرسان، مطبعة خورشيد، دار الكتب الإسلامية، ط٤، ١٣٦٥هـ، ج٢٦، ص٣٢١.

﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[1]»، وهذه الرواية نرى أنها تتكامل تماماً مع ما جاء في حديث الإمام الرضا في تعليمه للناس أن يقولوا القول الذي يُبهت الخصم، وهو قوله: «**فإن ائتمر العباد بطاعة لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته، فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه**»[2].

لقد بيّن القرآن الكريم أن الذنوب التي يرتكبها الإنسان باختياره لا بدّ أن تقفل مسامع قلبه، وكلما ازداد هذا الذنب، كلما أودي بصاحبه إلى مزيد من المهاوي حتى يكون منكوساً، أو مطبوعاً، أو مختوماً، وخاصة إذا كان هذا الذنب محققاً في ما ينبغي أن يعتقده الإنسان وينطوي عليه قلبه من توحيد وعدل ونبوة وإمامة ومعاد، فإذا ما بلغ الأمر بالإنسان إلى حدّ الذنب في العقيدة بحيث يتنكر لربّه، أو يكذّب بيوم الدين، أو يشمئزّ من ذكر الله تعالى[3]، فهذا مما يؤدّي بالإنسان إلى الطبع الذي هو نفس الكفر، كما أفاد ابن شهرآشوب، وهذا ما لحظه القرآن الكريم في كثير من الآيات نخصّ منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4].

لقد سلف القول منّا أن الكذب والنفاق توأمان، ولهما عقوبة واحدة فيما لو آلت الأمور إلى الحساب من دون توبة، وهذا الذنب الذي هو الكذب والتكذيب، هو الذي يتسبّب به الإنسان لنفسه بعمى قلبه وضيق صدره، وقسوة فؤاده، بل هو تكذيب ناشئ عن رين القلوب، الذي لخص معناه الراغب في مفرداته، وتوسع فيه العلاّمة الشيرازي في

---

(١) انظر: البرقي، أحمد بن محمد خالد، كتاب المحاسن، (ت ٢٧٤هـ) تحقيق جلال الحسيني، دار الكتب الإسلامية، ج١، ص٢٠٠.

(٢) انظر: الشيخ المفيد، كتاب الاختصاص، م. س، ص٩٩.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ (الزمر: ٤٥).

(٤) سورة المطففين، الآيات: ١٠ ـ ١٤.

تفسيره جامعاً لمعانيه، ومعرّفاً إيّاه بأنه الصدأ الذي يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم أطلقت هذه المفردة على غلبة كل شيء على شيء آخر، يقول: «**ونستشفّ من هذه الآية أن الإثم يعكّر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق في هذه المرآة الإلهية، وإلاّ فإنّ آيات الله تعالى خصوصاً في المبدأ والمعاد واضحة لا تقبل للإنكار..**»[1].

إذاً، الذنب هو الحجاب الذي يؤسس لتراكم الرين على القلوب لتصدأ وتموت، لأن الإنسان عندما يكرر عملاً، سواء في مجال القول أم في مجال الفعل، فإنّ ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، إلى أن ينتهي حال الإنسان إلى التقلُّب بحيث يصير أعلاه أسفله، كما في الرواية عن الصادق عليه السلام، قال: «**كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله**»[2].

وهذا الانقلاب في حقيقة الإنسان الروحية، لا المادية، وإن كان لذلك تأثير في هذه، أكثر ما يتجلّى في انعدام القدرة على التمييز عند الإنسان بين الحق والباطل، والخير والشر، ما يؤدي بالعقل أيضاً إلى أن يكون فيما فطر عليه من قوانين وبديهيات مأسوراً للذنوب وآنساً بها على النحو الذي يؤدي به إلى أن يأخذ الحق باطلاً، والباطل حقاً والعياذ بالله...»[3].

وكيف كان، فإنّ ما جاءت به الآيات القرآنية في سياق الحديث عن الآثام والذنوب، سواء في مجال الاعتقاد أم في مجال العمل والسلوك والأخلاق، أم في أي ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للناس، ليس ناظراً إلى الواقع وما

(١) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٢٨٤.

(٢) النيسابوري، محمد بن الفتال. (ت ٥٠٨هـ)، روضة الواعظين، تحقيق حسن الخرسان، إيران، منشورات الرضا، (لا.ت) ص٤١٤.

(٣) يقول الغزالي: «العقل قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محلّه القلب، وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. وقد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقول الرسول صلى الله عليه وآله: «أول ما خلق الله العقل...»، انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، م. س، ج٣، ص١٠.

يلابسه من أحداث، وإنما إلى حقيقة ما يعنيه القلب والروح والفؤاد والصدر من إنسان له وحدة حقيقية تؤثر بها الذنوب وتخرجها من مجال الطاعة إلى مجال المعصية بإرادة واختيار، فيكون الذنب نتيجة لا سبباً، خلافاً لما يزعمه بعض الباحثين قديماً وحديثاً، من أهل الجبر والتفويض من أن الإنسان مأخوذ من نفسه، محال بينه وبين قلبه على النحو الذي يؤدي به حتماً إلى الطاعة أو إلى المعصية. والحق يُقال: إنّ مدرسة أهل البيت أوضحت سبل السلامة للإنسان في جميع قضايا الحياة، في الاعتقاد قبل العمل بالأحكام، وفي الدنيا والآخرة، وأرشدت الإنسان إلى أن نفسه التي هي أقرب الأشياء إليه هي التي عليها الخيار بين الفجور والتقوى، وهذا ما أجمع عليه كثير من المفسرين من أن الأعمال القبيحة توجد نقوشاً وصوراً في نفس الإنسان، وأن هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق، وأن روح الإنسان، حسب طبيعتها الأولية، صافية وشفّافة، وتدرك الحقائق، وتميز بين الحق والباطل، وبين التقوى والفجور، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

غاية القول: إن حجاب الذنوب يحول دائماً بين الإنسان وبين أن تكون له معرفة صافية، ويخرج الإنسان عن كونه إنساناً مفطوراً على التوحيد ليكون منكوساً ومطبوعاً ومختوماً على قلبه، هذا فضلاً عمّا يؤسس له هذا الذنب من كفر ونفاق، وخاصة فيما لو جاء به الإنسان ذنباً على ذنب[2]، كما في الخصال عن رسول الله

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) يقول العلاّمة اليزدي: «إن الذنب عدوّ الإيمان، ومثلما أن العمل الصالح ينمّي الإيمان، فإنّ الذنب يضعفه ويمهّد الأرضية للكفر، إنّ الإنسان لا يقع فجأة ودون مبرر في الكفر بعد الإيمان، وإنما الذنب هو الذي يُمهد لذلك تدريجياً. وهناك موارد في القرآن تصرّح بأن الذين سقطوا بالكفر والنفاق إنّما سقطوا نتيجة لارتكاب الذنب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، فهنا يصرّح تعالى بأن النفاق إنما ظهر في قلوب هؤلاء بسبب نكثهم للعهد ونقضهم للميثاق الذي واثقوا به الله سبحانه وتعالى وبسبب أكاذيبهم...» را: اليزدي، محمد تقي المصباح، السير إلى الله، ترجمة الخاقاني، دار الولاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥٥٦.

في حديث جاء فيه: «**أربع خصال يُمتن القلب: الذنب على الذنب...**»[1]، فالذنب يؤسس لموت اجتماعي وسياسي وحضاري، فضلاً عن موت القلب الروحي والمادي بما يُحدثه من معاصٍ وذنوب، وقد سلف القول بأن موت القلب ليس له مجرّد انعكاسات فردية على المجتمع، بل يُحدث حجاباً على كل تحولات الإنسان المادية والروحية، ويبعث في الإنسان روح الهزيمة، فيتخلى عن الجهاد، ويمكّن الظلمة من الفجور والاستبداد، وقد لحظ القرآن هذا المعنى بقول الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾[4]، وغيرها من الآيات التي تنظر إلى ما تعكسه الذنوب في الحياة الإنسانية من أهوال ومصائب على الاجتماع الإنساني كله. فلا يُقال بأن هذا الذنب أو ذاك هو حجاب على قلب الإنسان، بل يُقال إنه حجاب الذنوب على قلوب الناس، ما يؤدّي بهم إلى أن يكونوا أسرى الطواغيت بما أقدموا عليه من خنوع وتواكل، وقد قال أمير المؤمنين في حقّ الذين تركوا الجهاد: «**فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ ... ، وضُرِبَ على قلبه بالإسهاب وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد**»[5].

---

(١) جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: أربع خصال يمتن القلب: ترادف الذنب على الذنب، وملاحاة الأحمق وكثرة مثاقبة النساء، والجلوس مع الموتى، قيل ومن الموتى؟ . قال: كل عبد مترف فهو ميت، وكل مَن لا يعمل فهو ميت». انظر: أبو الفتح الكراجكي، كنز الفوائد، م. س، ص٢٧٢.

(٢) سورة محمد، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الروم، الآية: ١٠.

(٥) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، شرح النهج، ابن ميثم البحراني، (ت ٦٧٩هـ)، إيران، قم، مركز النشر الإسلامي، ط١، ١٣٦٢هـ، ج٢، ص٢٩، يقول: أسهب الرجل بالبناء للمفعول إذا ذهب عقله من أذى يلحقه، وأديل الحق من فلان، أي غلبه عليه عدوه...

وهكذا، فإنّ معنى حجاب الذنوب على القلوب، أن تفسد القلوب وتمتلئ بالشهوات والملذات وحب الدنيا بما يُزيّنه الشيطان فيها للإنسان بهدف إماتة قلبه، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه ووِلهت عليها نفسه فهو عبد لها**»[1].

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الحُجب على القلوب والنفوس، ولكن بما أن البحث هو عن أنواع القلوب، فقد اكتفينا بالإشارة إلى حجاب الذنوب بما يجعلنا قادرين على تقديم رؤية تكون بمثابة القاعدة والتأسيس للبحوث القادمة، على اعتبار أن القلوب المريضة، هي في الأصل مريضة بالذنوب، التي تنقسم بين ذنوب الكبائر، وذنوب الصغائر، وذنوب اللمم[2]، وطالما أن القلب المريض يتراوح أمره بين أن يكون مريضاً بالنفاق، أو مريضاً بالشهوات، فإنه يمكن للباحث أن يوجز البحث على النحو الذي يستطيع معه أن يقدّم رؤية واضحة، مفادها أن أقفال القلوب وما ينشأ عنها من تحولات، وكذلك حجب الذنوب، وما تؤدّي إليه من أزمات على مستوى النفس والواقع، كل ذلك من شأنه أن يوفّر للباحث رؤية موجزة عمّا يقدمه القرآن من توصيف لهذا القلب المريض. ولعلّنا وفّقنا إلى شيء من هذا على أمل أن نقدم رؤية شاملة حول القلوب في القرآن في البحثين المقبلين، لأننا لم نشأ الخلط بين القلب المريض والقلب الميت، والقلب السليم، إذ إنّ لكل قلب من هذه القلوب أحواله وتقلباته وانعكاساته في الاجتماع الإنساني.

إن رؤية قرآنية جامعة لن تكون ممكنة لباحث بمفرده كون المبحوث فيه هو القرآن الكريم، إلاّ أنه يمكن أن نقدم خلاصة في البحث نكشف من خلالها عن أن القلب

(١) م.ع، ج٣، ص٥٩.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ...﴾ (النجم: ٣٢). وأصل اللمم هنا ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة ولا يتعمّق فيه، ولا يقيم فيه، وقد اختلف الرأي في المعنى، والجمهور يرى أنّ اللمم هو صغائر الذنوب....

المريض، هو في الأصل، قلب مريض بالذنوب، ولولا خوفنا من إطالة البحث في هذا الجانب لكان من الممكن التوفر على رؤية توحيدية توائم بين النص والتجربة على اعتبار أن الأمة الإسلامية كانت ولا تزال مشكلتها هذه القلوب المريضة بما توفرت عليه من حجب، وتحققت به من معاصٍ ومفاسد، حيث إنّ هذه الأمة، وبسبب هذه الحجب قد آل أمرها إلى أن تكون أمة محكومة للقلوب المريضة بعد أن أصلح الله شأنها بالقلوب السليمة، ولو أن الأمة استجابت لأمر ربها، وأحيت قلبها لما كان حيل بينها وبين أن تكون خير أمة أخرجت للناس، ولعلنا لا نخطئ القول إننا أردنا من هذا المبحث المتواضع أن نبيّن أن حجب الذنوب على القلوب ليست سبباً في انهيار منظومة الأمة الإسلامية وحدها، بل هي سبب ضمور واغتراب كل الأمم عن ذاتها منذ أن خلق الله الخلق، ولا شكّ في أن كل نبيّ وكل رسول كان دوره إحياء القلوب بمكارم الأخلاق، وتعزيز الأمة بفرص النجاح في الدين والدنيا، وكانت دائماً الذنوب، سواء في الاعتقاد أم في العمل، أم في السلوك، أم في أي ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية أو السياسية، أو الحضارية، هي السبب في تخلّف الأمم وانهيار الحضارات[1]، وما لم تعد الأمة الإسلامية إلى إحياء قلبها بالاستغفار، فإنّ الله تعالى سيحول بينها وبين حياتها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

(١) كثيرون هم الذين يتساءلون عن الذنوب التي أدّت بالأمم والحضارات إلى أن تكون على شرّ حال في الدين والدنيا، ويكفي أن نجيب على ذلك بما علمنا إياه الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل إذ هو يقول: اللهم اغفر لنا الذنوب التي تغير النعم، وتهتك العصم، وتنزل البلاء، وتقطع الرجاء... فهذا جواب على أن الذنب ليس مجرد شهوة أو شبهة وحسب، بل هو يتجاوز ذلك ليكون ذنباً وحجاباً في أي عمل يأتيه الإنسان في ميادين الحياة التي يعيش فيها ويتفاعل معها. فالذنب له أثره الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، والحضاري أيضاً، وهذا ما لم يلتفت إليه كثير من العلماء في سياق التدبّر بالآيات القرآنية اللاحظة لمعنى الذنوب، حيث اقتصر التدبّر فيه على الذنب الفردي... وقد أصيبت الأمة الإسلامية بهذا الذنب ما أودي بها إلى أن تكون في تجربتها التاريخية على شرّ حال في الدين والدنيا. (المؤلف).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

الفصل الثاني

القلب الكافر (الميت) في القرآن الكريم

ظهر لنا مما تقدم أن القلب المريض هو الذي تؤدّي به الذنوب إلى أن يكون على مستوى الكفر، أو النفاق، بعدما أوضحنا معنى الفصل القرآني بين الذين في قلوبهم مرض والمنافقين، وبينهم وبين الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ...﴾[1].

وفي هذا المبحث سنتحدّث عن القلوب الميتة أو الكافرة، وهو بحث مهم على مستوى الرؤية القرآنية، لكونه، أي القرآن، يُميّز بين الكفر الذي هو بمعنى الجحود والإنكار، والكفر الذي هو بمعنى المعصية وترك الطاعة، أو الكفر الذي يأتي بمعنى عدم الشكر، وقد فصل علماء التفسير القول في أنواع الكفر بما لا يدع لنا المجال لمزيد بحث وتحقيق، ذلك أن طبيعة هذا المبحث تقتضي منّا أن نتحدّث عن القلب الكافر الذي يؤدي به الذنب التدريجي إلى الكفر والجحود، أو القلب الكافر الذي يعلم ويتنكّر للحق واليقين، وهو الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ...﴾[2].

لقد بيّن القرآن الكريم أن هناك نوعاً من القلوب إن جاءته كل آية فلن يؤمن بها، كما كان حال المشركين في مكة، ومعهم أهل الكتاب الذين تنكّروا للرسول والرسالة بعد أن كانوا يستفتحون على الكافرين بمعرفتهم لهذا الأمر، وقد خصّ القرآن هؤلاء بالآيات المباشرة التي لا يحتاج معها الباحث إلى مزيد تأمل وتدبّر، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ...﴾[1] فالآية ـ كما نلاحظ ـ تتحدّث عن عناد وكفر الذين امتنعوا عن قبول الرسالة، وأظهروا موتاً على مستوى قلوبهم وعقولهم لقلّة تدبّرهم، أو لغلبة الشيطان على مسامع قلوبهم، فاختاروا الكفر على الإيمان. ولا شكّ في أن هناك آيات كثيرة تتحدّث عن موت القلوب بالكفر، وهي تختلف عن القلوب المريضة لكون هذه الأخيرة يمكن أن تجامع الإيمان وتلتقي معه إلى حدّ ما[2]، وهذا ما أظهرته النصوص القرآنية جيداً، ولكن يبقى أن نشير إلى صفات

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) قلنا سابقاً: إنّ مرض القلب يجتمع مع الإيمان، لكون الآيات القرآنية قد اشتملت على هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ (الأحزاب: ٦٠).
وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ...﴾ (المدثر: ٣١).
فالآيات جاءت بذكر الذين في قلوبهم مرض منفصلين عن الكافرين والمنافقين، وهنا تبدو لنا مناقشة مستفيضة بين العلاّمة الشيرازي والعلاّمة الطباطبائي، حيث رأى الأول أن المراد من ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في كثير من الآيات، هو نفس المنافقين، وأن العطف عطف تفسيري، في حين رأى العلاّمة الطباطبائي أن المراد بهم مرضى ضعيفي الإيمان وهم غير المنافقين، لكن هذا لا يتناسب، كما يرى الشيرازي مع المرض في القلب، إضافة إلى أنّ الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في أوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير في حقهم.
كما يبدو بُعد الرأي الذي يُفسر المرض بالترديد والشك، لأن المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من الفقدان. وبما أن ملاحظة العلاّمة الشيرازي ذات أهمية قصوى في تبيان حقيقة الموقف القرآني. فإنّ ذلك لا يُعفيه من الإجابة على سؤال من قبيل: هل يجتمع الإيمان مع المرض في القلب أم لا؟ وهل يمكن للعلاّمة الشيرازي أن يحصر معنى المرض بالانحراف، طالما عرفنا أن المرض هو الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان كما أفاد الراغب الاصفهاني، مرض جسمي، وآخر عبارة عن الرذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق وغيرها من الرذائل الخلقية...!؟
انظر: الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، م. س، ص٤٨٦.
فإذا قلنا بالعطف التفسيري، فذلك يكون معناه حصر المرض بالنفاق وهو أحد الأمراض التي قد تصيب الإنسان، كالبخل والجبن وغيرهما، وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل»، ومن هنا، نرى أن استبعاد الرأي الذي يُفسر المرض بالضعف والشك، قد لا يكون وجيهاً نظراً لكون الإنسان قد يبتلي بالأمراض النفسية ولا يكون كافراً أو منافقاً. وعليه، فإنّ القول بالعطف التفسيري يستلزم أن يكون كل مرض خلقي نفاقاً. والتالي باطل، فالمقدم مثله. على حدّ تعبير المناطقة.
انظر: الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٢٦٠، وقا: مع الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٩، ص٣٠٢. وقا: مع الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، م. س، ج١٥، ص١٧٦.

القلوب الميتة، بحسب ما جاء من آيات قرآنية مختارة توضح برؤية موضوعية مدى ما تبلغه هذه القلوب من موت، سواء بالمعنى العقائدي أم بالمعنى العملي، لكون الاعتقاد له المدخلية العظمى في رقيّ الشعوب والأمم وتسافلها، فإن كان اعتقاداً سليماً منطوياً على إيمان صحيح كانت له آثاره الإيجابية، وإن كان اعتقاداً مشوباً بالشك والكفر وعدم اليقين، كان لهذا الاعتقاد مساوئه أيضاً على مستوى النفس والواقع، وبناءً على ذلك، فقد ارتأينا أن نفصّل الكلام إلى قسمين، قسم يتعلق بالصفات وآخر يتعلّق بالأعمال التي تترجم هذه الصفات.

أ. صفات القلوب الكافرة

رأينا في كثير من البحوث الإسلامية أن العلماء والباحثين، ولعلّ أكثرهم يذهب إلى توصيف هذه القلوب بالموت تأسيساً على ما يذهب إليه القرآن الكريم في وصف هؤلاء، حيث قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ...﴾[1]، وكما نلاحظ أن الآية تصف القلوب التي لا تهتدي بنور ربّها بالموت لانعدام الإيمان فيها، بل هي تضيف معانٍ أخرى لموت هؤلاء، إذ تصفهم بأنهم في الظلمات، وهذا تأكيد في القرآن على أن عدم الإيمان هو موت وظلام بل ظلمات، لقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، حيث تبيّن الآية أنه لا خروج من ظلمات الكفر إلاّ بالإيمان، ولهذا جاءت النبوات والرسالات لهداية الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور بإثارة عقله وفطرته ليكون على بيّنة من ربّه أولاً، وعلى طريق سعادته ثانياً، إذ إنّ مَن اختار الإيمان على الكفر، فإنّه لا بدّ أن يكون قد اختار النور على الظلام، والعقل على الخرافات والأساطير، والعلم على الجهل، ولولا أن الله تعالى قد مَنّ على الإنسان بالهداية لما استطاع الخروج من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، وهذا ما أشرنا إليه في مقدمات هذا البحث...

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

يبقى أن نقول: إن وصف القلب بالموت أو الكفر، خاصة الكفر الذي يعني الجحود والإنكار، سواء إنكار وجود الله تعالى أم الجنة والنار والقيامة، أم إنكار النبوّة وإرسال الرسل والرسالات، فهذا كله يؤدّي إلى الكفر والموت. أما ما عدا ذلك فيما يتجاوز الكفر في الأصول، فإنّه يمكن لحوق المرض بالقلوب، بحيث يكون الأمر على حدّ الصراع والتنازع بين الإيمان والكفر داخل الإنسان، وكثيرون هم الذين يظنّون أنهم بالتزام التكاليف الإلهية يمكن أن تكون لهم النجاة من العذاب، سواء في الدنيا أم في الآخرة، إلاّ أن ذلك مما لا يمكن الاطمئنان له، لأنّ المرض القلبي لا يعني الكفر في الأصول الاعتقادية فقط، بل قد يتجاوز ذلك بالذنوب إلى حدّ الكفر بعد الإيمان، كما ذكرنا آنفاً. وانطلاقاً من ذلك، نرى أن القلب الميت له أوصافه في القرآن في جملة من الآيات نعرض لها لا على نحو التفصيل، وإنّما على نحو التأكيد بأنّ هذه الصفات يمكن التفصيل فيها في مجال الرؤية الموضوعية بالارتكاز إلى جملة من الآيات المباركة التي توضح المطلب، وتكشف عن تمام الرؤية القرآنية في هذا المجال.

نعم، يمكن لبعض الباحثين أن يختاروا لبحث الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة، كحال القوم الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض[1]، أو الكفر بمعنى البراءة والتنصّل، كما قال الله تعالى على لسان النبي إبراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾[2]، أو الكفر بمعنى عدم شكر النعمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3]، إلى غير ذلك مما ذهب إليه الفقهاء من أقوال في مجال أنواع الكفر التي عرض لها القرآن

(١) قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ...﴾ (البقرة: ٨٥).
(٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ..﴾ (الممتحنة: ٤).
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

الكريم[1]، ولكن بما أن مجال البحث هو القلوب الميتة أو الكافرة وأوصافها، فإنّه لا يسعنا إلاّ أن نتحدّث برؤية مجملة عن أوصاف هذه القلوب لتبيان حقيقة الموقف القرآني على النحو الذي يؤدّي بنا إلى استخلاص رؤية حول القلوب المريضة والقلوب الميتة، أو الكافرة فنقول: إنّ نوعية هذه القلوب الكافرة ليست منحصرة بشعب أو بأمة، بل هي تتواجد في كل زمان، وقد عايشها الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعاً، وتكفي الإشارة هنا إلى أنّ أهل مكة وأهل الكتاب في زمن البعثة لم يكونوا على جهل بحقائق الأمور، بل كانوا يعون تماماً أن الإسلام حق، وأنّ النبوة عندهم كانت منتظرة ويستفتحون على الذين كفروا، ما يؤكّد أن جحودهم للنبوة والرسالة لم يكن مجرّد جهل، بل ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ...﴾[2]. إن هذا النوع من الكفر يؤدّي بصاحبه إلى أن يكون خارج دائرة الإنسانية، لكونه منطوٍ في داخله على علم بحقيقة الأمر، ولكنه اختار أن يكون جاحداً ومنكراً لما يعتقده حق، وهذا النوع من الكفر هو الذي يؤدي بباطن الإنسان إلى أن يكون كالدواب الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يعقلون، وهذا ما لحظه الباحث دستغيب في بحوثه عن القلوب في القرآن، حيث رأى أن الكافر أسوأ من الحيوان بقوله: «**إنّ القلوب الخالية من الإيمان وصفها الله تعالى بالمرض، والمختومة، والمغلقة، وأن عليها الرين، وقد اعتبرها الله رديفة الحيوانات، وشرّ من الدواب، كما قال**

(١) هناك تقسيمات للكفر عرض لها الفقهاء استناداً إلى القرآن الكريم تصل إلى حدّ القول بأن هناك ثمانية أنواع من الكفر، تبدأ بكفر الجحود والألوهية والوحدانية، إضافة إلى الكفر بالنبوة والمعاد، والكفر بكل ضرورة يؤدّي الإنكار لها إلى إنكار رسالة محمد ﷺ، وأيضاً هناك كفر الشك، والكفر بالتشريعات الإلهية، والارتداد: الفطري والملي، ثم كفر النعمة، وكفر البراءة.

انظر: الغديري، عبد الله عيسى إبراهيم، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م، ص٤٨٢.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، وهم بهذا الوصف والحال يخرجون من حدود الإنسانية إلى حدّ البهيمة ليكونوا أقبح في باطنهم من القردة والخنازير...»[2].

لقد قسّم العلماء، وخاصة علماء التزكية الكفر إلى مراحل ومراتب، فهو تارة يكون مع الجهل، وأخرى مع العلم، وثالثة يكون كفراً مع عمى مطلق للقلب، وفي كل حالة من هذه الحالات تكون للقلب أوصافه، ومن لا دين لهم هم في الحقيقة ينكرون وهم يعلمون، كأولئك الذين لم يؤمنوا بالآخرة، والذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[3]، لأن مؤدى الإنكار والجحود هو الاستكبار في الأرض والإفساد فيها، وقد أشرنا في التمهيد للقلب الكافر، أن مشركي مكة ويهود المدينة كانوا يعرفون الحق، ويؤمنون بالكتاب، وكانت نبوة النبي لهم من الوضوح بحيث إن كثيراً منهم كان قد بقي في المدينة لأنهم كانوا يعلمون أن النبي سيهاجر إليها، وقد عبّر القرآن عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4] وحول هذا الصنف من الناس قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾، فإذا كان هذا هو حال الذين كفروا مع العلم، فما هو حال الذين كفروا مع الجهل، أو تميزوا بالعمى المطلق، فهؤلاء ليسوا بأفضل حال من الكافرين مع العلم، لأن الكافر الجاهل، كما يقول دستغيب هو الذي لا يريد أن يفهم الحق وينكر ما لم يعرف ولا يقبله... ككثير من الدهريين الماديين والمقلدين الذين وصفهم القرآن باتباع الظن، كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) را: دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، م. س، ص٥٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[1]، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين ولدوا في بيئة الكفر، هم إنما كفروا بالحق من غير علم، وعدم العلم غير العلم بالعدم، فهؤلاء تماماً كمثل ولد أعمى يقول لا وجود للشمس تضيء العالم، فيقال له أنت لم ترَ الشمس الساطعة ولم تعرفها، فيجب أن تقول لا أعرفها ولا علم لي بها، وفي الحقيقة إن كلام منكري الحق يفضح عدم علمهم وجهلهم المركب، كما أن المؤمن يكشف عن فهمه وعلمه وبالإقرار بالشهادتين يثبت كماله ومعرفته...[2].

إذاً، حالات الكافرين تتراوح بين أن يكونوا دهريّين ماديين، وبين أن يكونوا كافرين وهم يعلمون الحق، وهؤلاء هم الذين ركّز على أوصافهم القرآن الكريم لكونهم أخطر الناس على المجتمع الإنساني، باعتبارهم على نفاق في داخلهم، ويصوّرون الباطل حقّاً، ويموّهون على الناس، عبر التشبث بالشبهات الواهية والتسويلات الشيطانية ليقنعوا أنفسهم ويرضوها...

وانطلاقاً مما تقدم، نرى أن هذا المبحث سيلحظ أوصاف القلوب الكافرة الميتة، والتي يمكن وصفها بالقلوب المريضة أيضاً، على اعتبار أن مرضى القلوب، وتراكم الذنب على الذنب، لا بدّ أن يؤول إلى الكفر، ويمكن للباحث أن يتدبّر الأمر ويبحث فيه من خلال التسليم بأن كل إنسان مفطور على الفطرة، وأن الله تعالى لم يُضلّ أحداً ابتداءً، وأن الإضلال وازدياد المرض في القلب، إنما يكون بلحاظ ما يؤول إليه الإنسان في ظل تراكم ذنوبه، يقول العلاّمة اليزدي: «**فكثيرون كانوا مؤمنين في البداية لكن ذنوبهم هوت بهم... وإنه لعجيب حقاً أن يصل الأمر بالمرء أحياناً بالرغم من إيمانه بالله ظاهرياً، لكنه يأبى أن يمدّ يده مستجدياً طالباً حاجته من الله، فهو على استعداد لأن يحني رقبته أمام القاصي والداني،**

(١) سورة يونس، الآية: ٦٦.

(٢) دستغيب، عبد الحسين، م. س، ص٦٤ ـ ٦٥.

لكنه لا ينادي «يا الله» متضرّعاً، وهذا من آثار التلوّث بالذنب...»[١].

وهكذا، فإنّ مآلات الذنوب هي التي تخرج الإنسان عن مجرّد كونه مريضاً في قلبه ليكون مختوماً عليه[٢]، أو مطبوعاً[٣]، أو قلبا قاسياً[٤]، أو قلباً مقفلاً[٥]، أو مكنوناً[٦]، أو مغلفاً[٧]، أو مرعوباً[٨]، أو مشمئزاً[٩]، أو قلباً لا يفقه[١٠]، أو لا يعقل[١١]، أو قلباً منكراً[١٢]، أو مغموراً[١٣]، فهذه كلها أوصاف ألحقها القرآن الكريم بالقلب الكافر، أو الميت، وهي أوصاف لم تلحق به ابتداءً، كما بيّن العلاّمة اليزدي، والعلاّمة الطباطبائي، والعلاّمة الغزالي، وغيرهم من العلماء الذين تميّزوا في شرح أوصاف القلوب، وكان آخر هؤلاء العلماء الذين لا عدّ لهم ولا حصر، العلاّمة جوادي آملي الذي توقف ملياً عند هذه الأوصاف في شرح كلمات مولانا الإمام الرضا ، يقول الآملي في شرح قوله : «**ولكن القوم تاهوا وعموا وصمّوا عن الحق من حيث لا يعلمون وذلك قوله عزّ وجلّ:** ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[١٤]. **يعني أعمى عن الحقائق الموجودة... وإنما اختلف الناس في هذا الباب حتى تاهوا وتحيّروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة في وصفهم الله بصفة أنفسهم**

---

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح، السير إلى الله، دار الولاء، م. س، ص٢٥٦.
(٢) قال الله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ (البقرة: ٧).
(٣) قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١).
(٤) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾ (المائدة: ١٣).
(٥) قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).
(٦) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ...﴾ (الأنعام: ٢٥).
(٧) قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ...﴾ (البقرة: ٨٨).
(٨) قال الله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ...﴾ (آل عمران: ١٥١).
(٩) قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (الزمر: ٤٥).
(١٠) قال الله تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ...﴾ (الأعراف: ١٧٩).
(١١) قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ...﴾ (الحج: ٤٦).
(١٢) قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢).
(١٣) قال الله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٣).
(١٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

فازدادوا من الحق بعداً، ولو وصفوا الله تعالى بصفاته، ووصفوا المخلوقين بصفاتهم لقالوا بالفهم واليقين ولما اختلفوا... والفرض هو أن لمعرفة القرآن الباحث عن الغيب شرطاً يصححه، ومانعاً يصدّ عنه، وهؤلاء الجهّال لما أخلّوا بالشرط تاهوا وعموا وصمّوا ولو أنهم لم يخلّوا به لوصلوا إلى الفهم واليقين».

يقول الآملي: «**وكل ما أفاده مولانا الرضا عليه السلام يستفاد من القرآن الكريم الدال على أن نزول البركات العينية والعلمية مشروط بالتقوى وإخلاص العمل لله ، وممنوع بالذنب والإعراض عن ذكر الله ونحو ذلك، فكما أن التقوى شريطة انفتاح أبواب الرزق العيني، حيث قال الله تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1]، **كذلك هي . أي التقوى . شريطة لانفتاح أبواب الرزق العلمي، كما قال الله تعالى:** ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2]، **وكما أن التكذيب والطغيان يمانع من انفتاح أبواب الرزق العيني والعلمي، كما قال الله تعالى:** ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[4]. **وهذا هو قفل القلب الرادع عن التدبّر في القرآن على حدّ استدلال مولانا الرضا عليه السلام، حيث أوضح أن للقلب قفلاً يمنعه عن إدراك الحقائق ويحول بينه وبين انفتاح أبواب الرزق العيني والعلمي...»**[5] إنّ كلام العلاّمة الآملي في شرح أوصاف القلب المختوم أو المقفل، وغيرها من الصفات، يوضّح مدى ما للذنب من أثر في موت القلوب، ويقدّم رؤية قرآنية بمنهجية موضوعية قلّما نجدها عند

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

(٥) جوادي، آملي، علي بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن الحكيم، م. س، ص٧٦ ـ ٧٧.

غيره من العلماء الأجلاّء، إذ هو يربط بين التقوى وانفتاح أبواب الرزق، وبين الذنب وإقفال أبواب الرزق، سواء بالمعنى العيني أم بالمعنى العلمي المادي أم الروحي، ويخرج بنتيجة مفادها أن الإنسان الكافر الذي ختم على قلبه، هو الذي أقفل أبواب الرزق عليه، وأخرج نفسه من دائرة النور إلى دائرة الظلمة بالقول على الله تعالى من غير علم، فأصمّه الله تعالى وأعمى على بصره، وختم على قلبه، يقول الآملي في بيان كيفية استناد ختم القلوب إلى الله تعالى: «**فالمذنب رغم حُجبه والكنان على قلبه، باعتراف منهم، كما في قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ...﴾[1]، **لكن ذلك الكنان بجعل إلهي، كما قال الله تعالى:** ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ ...﴾[2]، **وكذا قلبه، فإنه رغم ختمه، إنما هو مختوم بختم إلهي، كما قال الله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ ...﴾[3] [4]، **لا أنه ينختم بذاته، لأنه يصادمه النظام العِلّي الحاكم بأن كل شيء لا يكون وجوده ولا عدمه عين ذاته.. فكما أنه لا يكون انفتاح القلب وانشراح الصدر بلا سبب، كذلك لا يكون انختامه وتضييقه من دون سبب...**»[5].

غاية القول: إنّ صفات هذا القلب الكافر في القرآن تتراوح بين أن تكون أوصافاً للقلوب تتجاذبها الأمراض والشكوك لدرجة تحول بينها وبين اليقين، وأوصافاً لقلوب لم تؤمن أصلاً. وهي كلها أمراض تؤدّي بالإنسان إلى حدّ الكفر، سواء بمعنى الجهل أم بمعنى العلم، ولكن القرآن، كما أشرنا، يركّز كثيراً على أوصاف القلوب الكافرة التي أماتها الطغيان والاستكبار، وأدى بها إلى أن تكون رديفة للحيوانات،

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٤) جوادي آملي، م.س، ص٧٦.
(٥) م. ع، ص٧٧.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. ويكفي الباحث الموضوعي أن يتدبّر في سياق الآيات ليظهر له في جملة من الآيات التي تربط بين التنكّر للآخرة والاستكبار، باعتبار أن ذلك يُفيد الباحث في استخلاص نتيجة مؤدّاها أن الإيمان بالمعاد له مدخلية عظمى في تطامن القلوب، إذ قد يكون الإنسان مؤمناً بالله نظرياً، ولكن إيمانه الظاهري مع ما يكون له من الذنوب، لا يؤدي به إلى الإيمان بالآخرة، فلا ينتفي عنه الاستكبار، ولهذا نجد الكثير ممن يدعي الإيمان بالله تعالى يستكبر في الأرض ويُفسد فيها على نحو يأخذ به إلى أن يكون عمله نقيضاً للإيمان تماماً، وأكثر ما ظهر هذا الحال في بلاد المسلمين حينما تحكم الطغاة بالأمة واستبدّوا بها تحت عناوين الإيمان والعمل الصالح، وهم في الحقيقة كانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2] كما أن قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[3]، هو ناظر إلى حقيقة ما تعنيه الأصول الاعتقادية، وخاصة الإيمان بالله واليوم الآخر من تحققات عملية، بحيث يُفهم من الأمر بالقتال أن تتوفّر له شروطه من خلال تحقق المواصفات لا لأهل الكتاب وحسب، وإنّما لكل مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يُقال بأنها آية خاصة بأهل الكتاب، وإن كان أهل الكتاب هم المصداق الأبرز لها، ولكنها تفيد بدلالة السياق والنص معاً أن القتال هو لكل من يعتدي على أهل الإيمان ممن لم يؤمن بالله واليوم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٢٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

الآخر، ولم يدن بدين الحق[1] ولم يحرّم ما أحلّ الله تعالى، وقد أتينا على ذكر هذه الآية للتدليل على أن الكفر بالله واليوم الآخر أو بالنبوة، سواء العامة أم الخاصة من مؤدياته الاستكبار في الأرض والإفساد فيها، باعتبار أن الآية تستجمع مواصفات للقلوب الكافرة حتى ولو كانت تزعم الإيمان بالله واليوم الآخر، فهؤلاء كفار حقاً، كما بيّن القرآن، ولهذا جاء الأمر الإلهي بقتالهم، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، لأن المورد لا يخصص الوارد على حدّ تعبير الأصوليين...

كما نلاحظ أيضاً من آيات كثيرة في القرآن أن أوصاف القلب الكافر الميت تأتي في سياق أحداث عملية لا يقتصر التوصيف عليها من حيث كونها مجرد اعتقاد سلبي أو إيجابي، بدليل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. فنلاحظ أن السياق قد لحظ جملة من الأحداث والأقوال، تبدأ بـ/باء السببية، أي بسبب نقضهم الميثاق الذين التزموه مع الله تعالى، ثم الكفر بالآيات، ثم القتل للأنبياء بغير حق، ثم القول في توصيف قلوبهم بأنها «**غلف**»، لتنتهي الآية بتأكيد الطبع على القلوب بكفرهم، مع ما يعنيه مفهوم الطبع بأنه لم يكن ابتدائياً، وإنما

---

(١) لقد بيّن العلاّمة العظيم الطباطبائي في تفسير هذه الآية ما يُثلج صدور المؤمنين، حيث قال: إنه تعالى لم يُفرق في كلامه بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر، فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله والكفر بالله كفر بالأمرين جميعاً، وحكم فيمن فرّق بين الله ورسله، فآمن ببعض دون بعض أنه كافر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ سورة النساء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١. فعدّ أهل الكتاب ممّن لم يؤمن بنبوّة محمد ﷺ كفاراً حقاً، وإن كان عندهم إيمان بالله واليوم الآخر، لا بلسان أنهم كفروا بآية من آيات الله وهي آية النبوّة، بل بلسان أنهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر، كما أن المشركين أرباب الأصنام كافرون بالله إذ لم يوحّدوه وإن أثبتوا إلهاً فوق الآلهة...

انظر: الميزان، م. س، ج٩، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

كان بسبب كفرهم، وهي الآية التي سبق لنا أن فسّرنا بها سائر الآيات القرآنية التي يتسلّح بها قوم من الجبريين للتأكيد على مذهبهم في القول بالجبرية، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً، فلا طائل مما يذهب إليه بعضهم من تأويل للآيات بغير علم ولا هدى، بل لا بدّ من جمع الآيات وضم بعضها إلى بعض للوقوف على المدلول الحقيقي للآيات فيما تذهب إلى التأسيس فيه، سواء في مجال النظر أم العمل...

فالآية، كما نلاحظ، تأتي في سياق تحقق عملي، اجتماعي، عقائدي، للتدليل على أن كفر هؤلاء لم يكن عن جهل، وإنّما كان عن علم بحقائق الأمور، ولهذا استحقوا أن تقفل عنهم أبواب الرزق المعنوي والمادي، أو العلمي والعيني على حدّ تعبير الآملي...

والكلام ذاته يمكن أن يساق في فهم قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[2]. وغيرها من الآيات الكثيرة التي تلخّص الموقف القرآني بخصوص الأموات في قلوبهم وعقولهم، وهذه الآيات في كثير منها تظهّر الموقف النظري في سياق رؤية عملية، وأحداث يقوم بها هؤلاء يعبّرون بها عمّا يعتقدون أنه الحق، وهم يعلمون أنه الباطل، ولكنهم يموهون ويلبسون على الناس لصرف قلوبهم عن الاعتقاد السليم والحق المبين، ولعلّ هذا هو من أخطر أنواع الكفر الذي عرض له القرآن في سياق الحدث الإنساني بشكل عام منذ النبي آدم عليه السلام وحتى زمان عصر البعثة النبوية الشريفة، ولا يزال هذا النوع من الكفر ناشطاً على مستوى القول والعمل، وخاصة بعد أن توفرت للإنسان ظروف ومناخات التحول العقلي في ظلّ ما أفرزته الحضارة من تقدّم علمي، وتطوّر تقني ساعد

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.

الإنسان على التخلص قليلاً من الأساطير والخرافات والأوهام، ولكنه اختار له صنمية جديدة، وجاهلية فريدة، هي العلم الحديث، لقيادته نحو مزيد من الجحود والإنكار، بحيث عاد لسان الكثيرين اليوم إلى القول بأفواههم ما ليس في قلوبهم، بل إلى الكفر الصراح المموّه بالاعتقاد والإيمان، كما فعل بنو أمية وبنو العباس فيما مارسوه من أعمال دينية وسياسية أبان فترة حكمهم...؟!

يبقى أن نقول: إنّ أوصاف القلوب الكافرة، كما عرض لها القرآن، ليس من السهل أن يتوفر كل باحث على الشروط والمواصفات الكاملة كيما يتسنّى له تبيان حقيقة هذه الأوصاف في سياق ما جاءت به من أحداث... ولكن يمكن لمتدبّر بصير أن يقف على حقيقة هذه الأوصاف من خلال إجمال القول فيها بعد أن بيّن المفسّرون للقرآن وما أكثرهم لجملة هذه الأوصاف المتعلقة بالقلب الكافر، أو الميت الذي لا يفقه عن الله تعالى ولا يعقل عنه، حيث إنّهم أكدوا في جملة شروحاتهم أن هذا القلب هو الذي يخلو من الإيمان وجميع الخير، فهو قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه، لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن، وقد سبق لأمير المؤمنين أن وصف هذا الشيطان بأنه يستدرج قرينته، ويستغلق رهينته، حتى إذا تمكن من ذلك، أنكر ما زيّن، واستعظم ما هوّن، وحذر ما أمّن، وقال في خطبة له: «**اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً**[1]، **واتخذهم له أشراكاً**[2]، **فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرّج في جحورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل**[3]، **وزيّن لهم الخطل**[4]، **فعل من قَد شَركه شَركهُ**[5] **الشيطان في سُلطانه، ونطق بالباطل على لسانه**»[6].

(١) ملاك الشيء، بكسر الميم وفتحها: قوامه الذي يُملك به.
(٢) الاشراك، جمع شَركَ وهو ما يصاد به، فكأنهم آلة الشيطان في الإضلال.
(٣) الزَّلَل: الغلط والخطأ.
(٤) الخَطَلَ: أقبح الخطأ.
(٥) : كعلمه: صار شريكاً له.
(٦) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ٧.

ب ـ القلوب الكافرة (الميتة) وحُجب الأعمال

إذا كان الله تعالى لا يُضلّ الناس ابتداءً، وإذا كانت الذنوب المتراكمة تمهّد السبيل للكفر، كما رأى العلاّمة اليزدي[1]، وإذا كان المذنب لا يُسند إليه الختم ذاتياً لمصادمته النظام العِلّي الحاكم بأنّ كل شيء لا يكون وجوده ولا عدمه عين ذاته، بل لهذا الختم سببه، كما يرى العلاّمة الآملي[2]، فإنّ حديثنا في هذا المبحث سيقتصر البحث فيه على حجب الأعمال وعلاجات القلوب الكافرة كما أوضحها وبيّنها القرآن الكريم، فنقول: إنّ القلوب الكافرة، والتي أضلها الله تعالى على علم، تمتاز عن القلوب المريضة في أنها قد تجاوزت المرض القلبي وبلغت حدّ الكفر، واستبدّ بها الشيطان لدرجة النطق باللسان والتمكّن من القلب، كما أفاد أمير المؤمنين عليه السلام، حيث رأينا كيف أن الإمام عليه السلام قد بيّن حقيقة ما يبلغه قلب الكافر من ظلمة وحسد وتكبّر وعناد في مواجهة الحق، وقبل ذلك ما بلغهُ من تنكّر وجحود بالمبدأ والمعاد، وكعادتنا في المباحث السابقة سنعرض لجملة من الآيات المباركة التي تعرض لحال الكافرين وقلوبهم، والتي نرى أنها تستجمع حالاتهم وتظهر حقائقهم على نحو يؤدّي بنا إلى استخلاص موقف قرآني مما هم عليه في القول والعمل، إضافة إلى تبيان حقيقة ما يظهره القرآن بشأن إمكانية علاج هذه القلوب، وقد بيّن القرآن في كثير من الآيات، كما سنرى، ما قام به الأنبياء والرسل عليهم السلام من محاولات لإخراج هؤلاء من الظلمات إلى النور، ولكن للأسف كانت الأمور تصل بالكثيرين منهم إلى مستوى الختم والإقفال على القلوب، بل إلى اليأس من الأمل في هدايتهم وعلاجهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح، السير إلى الله تعالى، م. س، ص٢٥٧.

(٢) جوادي الآملي، الإمام الرضا عليه السلام، والقرآن الحكيم، م. س، ص٧٧.

﴿قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ...﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ...﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[4].

لا شكّ في أن القرآن الكريم فيما يخبره عن حال هذه القلوب الكافرة بأنها لا تهتدي، وأن الختم قد لحق بها لما هي عليه من كفر وعناد وحسد واستهزاء، إلاّ أنه لم يقطع الطريق على هذه القلوب، بل وجه القول لها منذراً إيّاها، وهادياً لها إلى سبل نجاتها، لأن هؤلاء إنما بلغوا هذه الحال بسبب جهلهم المركّب، ولا بدّ من استمرار الهداية لهم بالإرشاد والتعليم والموعظة، كما فعل الإمام الصادق عليه السلام في توعيته للزنديق لحمله على الشكّ فيما يتنكّر له دون علم ولا دراية، حيث إنه كان لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم[5]، فأرشده الإمام عليه السلام في حديث طويل إلى ما يحتاجه

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٧.
(٥) جاء زنديق اسمه عبد الملك إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟ قال نعم، قال: فدخلت تحتها، قال: لا. قال له: فما يدريك ما تحتها؟ قال: لا أدري إلاّ أني أظن أن ليس تحتها شيء، فقال عليه السلام: فالظن عجز، لما لا تستيقن؟ ثم قال عليه السلام: أفصعدت السماء؟ قال: لا. قال: أفتدري ما فيها؟ قال: لا، قال عجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل الأرض، ولم تصعد السماء ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهنّ وأنت جاحد بما فيهن، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! قال الزنديق: ما كلمني أحد بهذا غيرك... قال الإمام عليه السلام: أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على مَن يعلم، ولا حجة للجاهل...، تفهم عنّي فإنّا لا نشكّ في الله أبداً..
إلى آخر الحديث. را: الكليني، أصول الكافي، م. س، ج١، ص٧٣.

من أدلة حتى آمن وأصبح فيما بعد من الدعاة إلى الله تعالى.

وما دمنا في مبحث علاج القلوب الكافرة، فإن هناك جملة من الآيات القرآنية ترشدنا إلى المنهج القويم الذي ينبغي اتباعه في معالجة أمراض الكفر، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1]. ففي هذه الآية، كما يرى دستغيب، إشارة إلى الجهل المركب، وعن أصحاب الجهل البسيط يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾[3].

هناك جملة من الآيات التي تظهّر الموقف الحقيقي للقرآن والنبوّة في دعوة هؤلاء إلى الحق بل إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وقد رأينا كيف أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يستمرون بالدعوة دون كلل وملل لهداية هؤلاء، حيث اهتدى الكثيرون منهم، وهذا ما ألمح إليه الشيرازي في تفسيره في ما عرض له في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. فالآية ناظرة في مفهومها إلى أن الكافر قد يهتدي، فهي لا تشير إلى أي كافر كان، وذلك أن كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء، فالمراد في منطوق الآية ومفهومها، ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحّوا وأصرّوا على كفرهم[4].. ولعلّ ما جاء في سورة الفتح لجهة أنهم لو تزيّلوا لعذّبوا عذاباً أليماً، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[5]، وفي هذا الكلام الإلهي إشارة دقيقة إلى أن المؤمن قد يكون في ظهر الكافر والعكس، فما لم

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(٤) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، تفسير موضوعي، م. س، ج١، ص٢٩٠.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

يتزيلوا فلن يعذبوا، وهذا أمر لا يعلم به إلاّ الله تعالى، وما على الهادي إلى الله تعالى إلاّ أن يدعو ويحاور لعل الذي في قلبه مرض يهتدي إلى سبيل ربه.

وإذا كان الفقهاء وأهل التفسير قد اختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[1]، لما ذهب إليه بعضهم من القول بالجبر في الآية، كما أوضح الرازي في تفسيره، فإنّ هذا الاختلاف لا يعبأ به لكونه يقوم على تجزئة النصوص القرآنية وعلى الفصل بينها على نحو يجعل لكل آية قرآنية مطالع في الفهم مختلفة عن آيات أخرى تفسِّرها، هذا فضلاً عمّا أعطوه للآية من فهم متعدد في دلالة السياق، فقالوا بأن آخر الآية له معنى مختلف عن صدرها، يقول الرازي: «**قلّما نجد آية في القرآن تؤيّد أحد الفريقين - أي فريق الجبر وفريق الاختيار - وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالها آية تؤيّد الفريق المقابل، والتجربة شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من الله للعباد، وذلك لكي يتميز الراسخون في العلم عن المقلدين...**»[2].

إنه فعلاً العجب العجاب أن يستفيد بعض العلماء مفهوم الجبر من الآية، ولو أنهم تأملوا في دلالة السياق، فضلاً عن منطوق الآية ومفهومها، لأدركوا معنى الاختيار فيها لكون القرآن يُفسّر بعضه بعضاً، وهو في كثير من الآيات يأتي باستعمال الماضي ليدلّ على المستقبل، ويتحدث بالختم والأقفال لا ابتداءً وإنما مجازاة ومعاقبة، هذا فضلاً عن أنه يبيّن آية بأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فهل يبقى لمتدبّر بصير أن يقول بغير ما يقوله القرآن بأن الختم هو الكفر نفسه!؟

إنّ كثيراً من العلماء والمفسرين لم يخطئوا فقط في تقسيم الآية إلى صدر وآخر ، بل أخطأوا أيضاً في القول بالناسخ والمنسوخ في الآية الواحدة، فقطعوا أوصالها،

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٧.

(٢) انظر: الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٢٩٢.

زاعمين أن أولها منسوخ وآخرها ناسخ[1]...؟!

وهكذا، فإنّ معنى أن تكون هناك حجُب على القلوب الكافرة، معناه أن الكافرين هم الذين أورثوا أنفسهم الموت والعذاب والهلاك بما اختاروه لأنفسهم، وقد أشرنا في بحثنا السابق إلى معنى الميثاق، والكفر بآيات الله تعالى، وقتل الأنبياء بغير حق، فهذه كلها أعمال يقوم بها الذين كفروا باختيار ووعي بعد أن لم تنفعهم الموعظة، فيخرجون أنفسهم من النور إلى الظلمات باختيارهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾[3]، فهؤلاء وصفهم القرآن بالحيوانات لكونهم لم يعقلوا عن الله تعالى، ولم يتجاوزوا حدّ الشعور الحيواني[4]، فآل أمرهم إلى المكر والحيلة والدهاء والحسد والطغيان في الدنيا، وإلى أن يحشروا مع الشيطان في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، وهذا يؤكّد لنا أن

(١) يقول صبحي الصالح في مباحث علوم القرآن: إن بعض الفقهاء قد خلطوا النسخ بالتخصيص وأساؤوا الأدب مع الله تعالى في إيثارهم لفظ التخصيص الذي اخترعوه على لفظ النسخ الذي صرّح به القرآن، هذا فضلاً عن أنهم فتحوا الباب على مصراعيه أمام الخالطين بين النسخ والإنساء، وبين النسخ والإنباء، وبين نسخ الأحكام ونسخ الأخبار، ومن مبالغاتهم أنهم قطعوا أوصال الآية الواحدة، فزعموا أن أولها منسوخ وآخرها ناسخ، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ...﴾ (المائدة: ١٠٥). فإنّ آخر الآية يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو بذلك ناسخ لأولها الذي صرّح الله فيه بقوله: «عليكم أنفسكم...».

را: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ص٢٦٤.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٢.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) يقول مطهري: «إن الإنسان في بدنه حيوان ثم يصبح إنساناً، فهو حيوان بالطبع، إنسان بالاكتساب، والإنسان لا يمسك بالإنسانية التي توجد فيه بالقوة والفطرة إلاّ في ظلّ الإيمان، وبتأثير العوامل التربوية الصحيحة، وما دام الإنسان لم يظفر بإنسانيته في ظلّ العوامل التربوية، فإنه يبقى ذلك الحيوان بالطبع...».

را: مرتضى مطهري، الكون والتوحيد، م. س، ص٥٦.

ذلك كله كان لهم بالاختيار، خلافاً لما يزعمه أهل الجبر والجهل من أن الله تعالى لو شاء لهم الهُدى لاهتدوا، ولكنه لم يشأ لهم ذلك، فكان لهم الطبع والغلف والختم والإقفال، للأسف هذا ما استقرت على فهمه عقول الكثيرين ممن زعموا الحق في التأويل والتفسير، وقالوا على الله تعالى بغير علم ولا دليل، لا لشيء إلاّ لمجرّد أنهم اختاروا مدرسة الرأي والمناكفة والحوار دون برهان ولا دليل، رغم أن أحاديث الرسول ﷺ في معنى الطبع والختم واضحة لا لبس فيها، ومنها قوله ﷺ: «**الطابع معلق بقائمة العرش، فإذا انتهكت الحرمة، وعمل بالمعاصي واجترئ على الله تعالى بعث الله تعالى الطابع فيطبع الله على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً**»[1]، والجدير بالذكر هو أن طابع «**اسم فاعل**» للطبع، و «**طابَع**» اسم آلة الطبع.. وهذا الحديث يؤكّد بوضوح أن لا جبر هنا وأن حُجب القلوب هي نتيجة لأعمال الإنسان نفسه..[2].

لقد أوضحنا سابقاً معنى أن تكون هناك آفات للقلوب التي لا بدّ أن تنعكس في واقع الإنسان سيرةً وسلوكاً وعملاً، باعتبار أن القرآن الكريم لم يفصل بين الاعتقاد والعمل، أو بين ما يُعقد عليه القلب وما يكون له من آثار تترتّب عليه، وتترشّح عنه[3]، وقول اليهود أو مشركي مكة، أو الذين كفروا عامة، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، بعد نقض الميثاق والكفر، وقتل الأنبياء بغير حق، وما أدّى إليه ذلك من آثار عملية، هذا كله إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أن آفات القلوب لها مساوئ كثيرة وكبيرة في المجتمع الإنساني، فهي لا تقتصر في آثارها على أصحابها، بل تتجاوزهم إلى المجتمع

(١) محمد ريشهري، ميزان الحكمة، م. س، ج٣، ص٢٦٠٨.

(٢) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٣٣٩.

(٣) لا شكّ أن الإسلام، كما يرى الشيعة الإمامية، يركّز على إدراك المعارف الإلهية، إذ لا شكّ ولا ترديد أن هذه المعارف بغض النظر عن الآثار العملية والاجتماعية المترتبة عليها، هو بنفسه هدف وغاية للإنسانية.
انظر: مطهري، مرتضى، الكون والتوحيد، م. س، ص٤٩.

برمّته، وقد لحظ القرآن الكريم هذا المعنى مبيّناً أن هذه القلوب يمكن لها أن تخرج من الظلمات إلى النور، ومن الاستكبار إلى التواضع، وقبل ذلك من الكفر إلى الإيمان فيما لو أثارت عقولها بالوحي والاستماع للموعظة الحسنة، ولهذه الغاية، كما قلنا، بُعث الأنبياء والرسل كما قال الرسول ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**».

وهكذا، فإنّ القرآن قد بيّن أنه إنما نزل ليكون شفاءً للصدور، وهذا دليل على أن الله تعالى لم يرد للإنسان أن يكون ضحية نفسه الأمّارة بالسوء، وجهله بحقائق الأمور، فهو إن كان بالحُجب على قلبه، بل بكفره وشركه قد تنكّر للمبدأ والمعاد وللنبوة والرسالة، فإنّ من شأن معالجة الآفات القلبية، والأخذ بتعاليم الوحي، والاستجابة لما يحييه من أمر ربه أن يهتدي سواء السبيل، باعتبار أن الكفر والإيمان ضدّان، وهما متقابلان، ولا شكّ في أنّ لكل منهما شعبه وآثاره في النفس والواقع، إذ ليس الحرص في الدنيا، والبخل والحسد والظلم والخيانة، وكل الأخلاق السيئة، إلاّ من آفات القلب وكفره، فإذا انتفى الكفر، الذي هو أمر عدمي، فإنّه لا بدّ أن تكون ثمرة ذلك الفوز بكل أنواع الخيرات، سواء على مستوى النفس أم على مستوى الواقع، لأنّ قول الحق هو من فروع الإيمان ورفضه هو من فروع الكفر... كما أن شكر النعمة هو من أقسام الإيمان، وكفرانها من الكفر[1].

إنّ كل ما يظهره الإنسان الكافر من ظلم واعتداء وافتراء وتكذيب واستهزاء، هو ناشئ عن قلبه المحجوب بأنواع المعاصي، وإنّ أدنى تدبّر في آيات القرآن الكريم، سواء تلك الآيات التي تتحدّث عن الكافرين أم عن المرضى في قلوبهم... لا بدّ أن تؤدّي بالباحث إلى استخلاص نتيجة مفادها أن الآيات لم تتحدّث عن الكفر النظري وحسب، وإنما هي تتعدّاه في السياق إلى آثار هذا الكفر والمرض في الأعمال، لأن مؤدّى الحجب أن تقفل أبواب القلوب، وليس لذلك من علاج سوى بالقرآن ذاته،

(١) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، م. س، ص٧٤.

فإذا علم كل متدبّر في القرآن هذه النتيجة، فإنه يمكنه أن يؤسس لرؤية قرآنية واضحة تخرجه من حيرة الفهم لمدلول الآيات فيما جاءت فيه من سياق إلى التبصّر بحقائق الأمور. وهنا نسأل، أليس القرآن قد تحدث عن الكفر المتزامن مع العداء للأنبياء عليهم السلام، ومع نقض المواثيق والكفر بالآيات؟ وكما يقول الشيرازي: «**ومسلم أن كفراً كهذا يجعل حجاباً على عقل الإنسان وقلبه، فلا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق...**»[1]، وتكون النتيجة أفعال واقعية في جميع مجالات حياة الإنسان، ولا سبيل للخلاص من ذلك إلاّ بالركون إلى القرآن والاستفادة منه في معالجة الآفات القلبية كسبيل وحيد للفوز في الأعمال، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وهذه الآفات كما لخّصها علماء التزكية كما فعل الغزالي في منهاج العابدين بأربع آفات تقابلها أصول لا بدّ من ذكرها في علاج القلب، يقول الغزالي: «**فالآفات أربع: الأمل والاستعجال والحسَد والكبر والمناقب (الأصول في علاج القلب)، أربع: قصر الأمل والتأنّي في الأمور والنصيحة للخلق، والتواضع والخشوع، فهذه هي الأصول في صلاح القلوب وفسادها، والنكتة التي عليها المدار، فلنبذل المجهود في التحرّز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب...**»[2].

لا شكّ في أن الغزالي يقدم تفصيلات في شرح هذه الآفات والمناقب، وكلها تعود في أصولها إلى مولى الموحدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، الذي أوضح في كثير من النصوص معنى طول الأمل الذي يُنسي الآخرة، ويؤدّي إلى تراكم الذنوب بالتسويف وترك الطاعة، وتأخير التوبة إلى غير ذلك مما كان مثار اهتمام أهل التزكية، ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى معنى أن يتحوّل الإنسان في ذات نفسه من خلال القرآن الذي يزيد المهتدين هدىً، ويكون على الذين لا يؤمنون عمىً، وقد قال الإمام علي عليه السلام في مضمون كلامه: إنّ هذا القرآن فيه دواء لكل داء، وهو ربيع القلوب، وقد جعله الله تعالى ريّاً لعطش العلماء فيما لو أخذوا بتعاليمه وصدروا

(١) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص٢٩٢.
(٢) الغزالي، أبو حامد، منهاج العابدين، م. س، ص١٨.

عنه في معالجة قضاياهم الدينية والدنيوية.

خلاصة القول: إنّ القلوب المريضة قابلة للعلاج بالقرآن، وبه وحده يمكن للإنسان المريض أن يهتدي إلى سبل العلاجات والوقاية من الأمراض والحجب التي تأخذ بمجامع القلوب وتحول بينها وبين الإيمان والعلم بالله تعالى، وقد جاء في الروايات المتواترة أنه مَن كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فمن أحبّ القرآن فهو يحبّ الله، فإنّما القرآن كلام الله تعالى، كما روي عن ابن مسعود، وكما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[2].

فالقرآن يشير إلى أن علاج القلب إنما يكون بأمور أربعة: **الأول**: الموعظة الحسنة بالقرآن الكريم، فإنّه شفاء لما في الصدور[3]، فجاء التعبير بالصدور لكونها تمثل جامعية حال الإنسان من قلب وفؤاد وحواس ظاهره وباطنه، فهو، أي القرآن، يزيل الشك والشرك ودنس الكفر وأمراض الشهوات والشبهات، **والثاني**: هو هدى لمن علم بالحق وعمل به. **والثالث**: القرآن هو رحمة لما يحصل به للمؤمنين من الثواب العاجل.

والرابع: هو إثارة دفائن العقول التي هي أساس ومدخل لكل علاج، وكما يقول العلاّمة الشيرازي في تفسير الأمثل: إنّ الآية أعلاه تشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربية الإنسان وتكامله في ظلّ القرآن، **الأولى**: مرحلة الموعظة والنصيحة، **الثانية**: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية. **الثالثة**:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ (فصلت: ٤٤).

مرحلة الهداية التي تجري بعد مرحلة التطهير. **الرابعة:** هي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمة الله ونعمته... وهذه المراحل تأتي تباعاً، والجميل في الأمر أنها تتمّ جميعاً في ظلّ نور القرآن وتوجيهاته...[١]، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام هذا المعنى بقوله عن القرآن: «**فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم (يعني شدائدكم)، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال...**»[٢]. وقال عليه السلام: «**فإنّه الحبل المتين والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع..**»[٣].

وقال عليه السلام: «**واستشفوا بنوره، فإنّه شفاء الصدور...**»[٤].

إنّ الروايات الإسلامية، كما جاءت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، تتابع القرآن في تخصيص الشفاء بالصدور دون القلوب، لأنّ القرآن، كما رأينا، يخص العلاج بها من حيث كونها تشكل جامعية الحالة الإنسانية، فإذا تحقق الشفاء للصدر، فلا بدّ أن يكون الإنسان قد استوفى علاجه في قلبه وفؤاده وصدره، فضلاً عن نفسه وعقله وروحه، وهذا هو ما تعنيه وحدة الإنسان فيما خصّت به من خطاب إلهي للخروج من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الجاهلية إلى الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[٥].

(١) الشيرازي، مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ج٥، ص٤٩٧.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: .

(٣) م. ع، الخطبة ١٥٦.

(٤) م. ع، الخطبة: ١١٠.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٩.

فالاستشفاء بالقرآن ليس مخصوصاً به القلب أو العقل، أو الفؤاد... إلخ، وإنما هو يكون للإنسان بلحاظ كليته وجامعيته الحقيقية التي تتجلّى بوحدة النفس الإنسانية التي خصّت بالصدور لدلالة الجامعية فيها على وحدة الإنسان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. فالشرح كان للصدر لا بما هو جزء من حالة الإنسان، وإنّما بما هو وحدة حقيقية مخصوصة بالشفاء باعتبار أن الصدور تشكّل مقدِميّة الحالة الإنسانية وأعلى شيء فيها... كما أفاد أهل اللغة والتحقيق.

الفصل الثالث

القلب السليم في القرآن الكريم

بعد الكلام في مرض القلب وإثمه وموته بالكفر، لا يسعنا إلاّ استيفاء الكلام في معنى القلب السليم في القرآن، وذلك نظراً لتركيز القرآن الكريم على ما لهذا القلب من معنى ودلالة وأثر، سواء في الحياة الدنيا، أم في الحياة الآخرة. وإذا كان الفقهاء والمفسرون للقرآن قد لحظوا ما لهذا القلب من اعتبار في سعادة الإنسان في الدارين، فإننا نرى أن هناك بعض المفسرين ممن أخطأ التفسير فيما يراه لهذا القلب من معنى وأثر في القرآن، إذ إنّ طبيعة هذا المبحث تفترض على الباحثين وعلى المفسرين للقرآن قبل غيرهم أن يتدبّروا جيداً في استعمال القرآن الكريم لمفردة «**القلب السليم**»، في مقابل استعمال مفردات كثيرة للقلب من حيث هو مريض، أو مختوم، أو مطبوع، أو مغمور... أو غيرها من مفردات الهدى، ومنيب، ووجل، ومطمئن، وخاشع، إلى غير ذلك من الآيات التي تنوعّت فيها الأوصاف واختلفت في سياقاتها المفردات. ولعلنا لا نخطئ القول بأن تخصيص القلب بالسلامة في آيتين فقط في القرآن له دلالة جامعية لكل الأوصاف القلبية ذات الدلالات الإيجابية والمدلِّلة على سلامة القلب من الأمراض في مقابل عشرات الآيات القرآنية التي تفيد مرض القلب بالآثام والمعاصي، وقد سبق الكلام منا في أن القرآن لا يتحدث عن القلوب العضوية أو المادية، وإنما يتحدّث عن القلوب المعنوية والمطمئنة بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

ولا شكّ في أن الكلام الإلهي عن القلوب المطمئنة ليس بعيداً عن حقيقة القلوب المادية، لما بين القلبين من تفاعل وانعكاسات على اعتبار أن القلب السليم هو في

الجسم السليم، ومثلما تحدّث القرآن عن مرض القلب بالآثام، هو أيضاً لحظ معنى سلامة البدن والصدر لما بين بدن الإنسان وقلبه من تمامية واستكمال وتفاعلات، فإذا لم تؤدِّ أعضاء الجسم دورها لتترتّب عليها الآثار التي خلقت من أجلها، فإن أحوال القلب هي أيضاً ستكون مضطربة ومتقلبة بحسب ما تكون عليه حال الإنسان من استقرار أو اضطراب، سواء في حالته الظاهرة أم في حالته الباطنة، وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**إنّ للجسم ستة أحوال الصحة والمرض، والموت والحياة، والنوم واليقظة، وكذلك الروح فحياتها علمها وموتها جهلها، ومرضها شكّها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها**»[1].

وقال: «**ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب، ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب**»[2].

وهكذا، فإن معنى أن يكون القلب سليماً، أن يتوفّر صاحب هذا القلب على خصائص ومواصفات تؤهّله لأن يكون مطهّراً من أنواع العذاب والأمراض، بدليل أن القرآن قد عرض لمواصفات هذا القلب باستعمال المفردات التي تميّز هذا القلب في المادة والروح، وفي الدنيا والآخرة، هذا فضلاً عمّا خصّ به هذا القلب من حالات وأعمال ظهّرتها السياقات القرآنية من خلال استعمال مفردة «**السليم**»، المتوافقة تماماً مع ما خصّت به الجنّة من أوصاف السلامة والسلام، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[5]، إلى غيرها من الآيات الناظرة إلى

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، (ت ١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ج٥٤، ص٤٠.
(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ٣٨٨.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٥.

معنى السلامة فيما يكون للإنسان من سعادة وأمن، وبما يكون له من إيمان وعمل صالح وطهارة من الآفات والأمراض. فالقلب ليس سليماً لمجرّد أنه آمن بالله واليوم الآخر وحسب، وإنما هو سليم لكونه استجمع الحالات الظاهرة والباطنة، فكانت له السلامة في الدين والدنيا والآخرة، وهذا ما سنتوقف عنده مليّاً في بحوث هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

أ. صفات القلب السليم

يرى الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، أن مفردات «**سليم؛ السَّلْمُ والسلامة تعني التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، أي متعرٍّ من الدّغل فهذا في الباطن، وقال الله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[1]، فهذا في الظاهر، وقد سَلِمَ يَسلَمُ سلاَمَةً وسلاماً، وسلّمه الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ...﴾[2]، ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[3]، أي سلامة، والسلامة الحقيقية ليست إلاّ في الجنة، إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذُلّ، وصحة بلا سقم...**»[4].

نلاحظ أن الراغب الأصفهاني قد استوفى معنى السلم والسلامة في رؤية جامعة عرض لها بالإجمال في كتابه المفردات، ولكن كثيراً من المفسرين لم يتوقفوا عند ما تعنيه مفردة السلم والسلامة من دلالات في السياق القرآني، فأعطوا المعنى والدلالة في ظاهر الأعمال، وفي أصول الاعتقاد وجَمِدوا عند الإقرار باللسان والاتّصاف بالإسلام، وقالوا إن السلامة إنما تكون بخلوّ القلب من الشرك، كما فعل الشوكاني في فتح القدير[5]، والقرطبي في أحكام القرآن[6]، إذ رأوا أن الإتيان

(١) سورة البقرة، الآية: ٧١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٦.
(٤) الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، م. س، ص٢٤٥.
(٥) را: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، م. س، ج٤، ص٤٠١.
(٦) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (ت ٦٧١هـ)، م. س، ج١٣، ص١١٥.

بقلب سليم له دلالة أن يأتي الإنسان ربّه مؤمناً بالله واليوم الآخر، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن لا يكون من أهل اللعن[١]، في حين إن السلامة، كما عرض لها القرآن الكريم، هي خلوّ الإنسان من كل مرض وإثم، بحيث يكون متعرياً من الآفات الظاهرة والباطنة، وهذا هو معنى التمايز في استعمال المفردات، أن يكون للقلب السليم أوصافه وخصائصه التي تميّزه عن سائر القلوب في الدنيا قبل الآخرة، وقد جاء القرآن ليهدي الناس إلى سبل السلام في الباطن والظاهر، في الدين والدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[٢]. فالقلب قد يكون مهتدياً[٣]، مطمئناً[٤]، وجلاً[٥]، خاشعاً[٦]، مخبتاً[٧]، تقياً[٨]، حياً[٩]، كما جاء في آيات كثيرة تصف القلب بهذه الأوصاف، إلاّ أنه لكي يكون سليماً، فذلك يقتضي أن يكون الإنسان جامعاً لهذه الأوصاف في العلم والعمل، ومتعرّياً عن كل الأمراض التي يمكن أن تداخل القلب من قريب أو بعيد، لما سبق بيانه من أن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وسائر الأصول الدينية قد يجتمع مع المرض القلبي، أو مع النفاق، كما جاء في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام بقوله:

---

(١) يروي القرطبي عن عروة أنه قال: «يا بني لا تكونوا لعّانين، فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قطّ، ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾. وهنا قد يلتبس الأمر على الكثيرين ممن يبحثون في السلامة القلبية، إذ قد يرى بعضهم أن اللّعن يتنافى مع سلامة القلب، وقد حاول بعض الفقهاء والمفسرين، كما فعل القرطبي، والغزالي، وغيرهم كثير، أن يصادر على المطلوب بقولهم إن اللّعن يتنافى مع سلامة القلب، وكأنّ الله تعالى لم يلعن الشيطان، أو أهل الكفر والنفاق. فإذا أثبتنا أن الله تعالى يُعطي شرعية للّعن، لا بمعنى أن يكون الإنسان لعّاناً، وإنّما بمعنى لعن مَن أمر الله تعالى بلعنه، فإذا أثبت الشرعية، فلا تكون منافاة بين اللعن وسلامة القلب.

(٢) سورة المائدة الآية: ١٦.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١).

(٤) قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ...﴾ (المؤمنون: ٦٠).

(٦) قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ...﴾سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٧) قال الله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ...﴾ (الحج: ٥٤).

(٨) قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢).

(٩) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ...﴾ (ق: ٣٧).

«إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس وقلب مطبوع، وقلب أزهر أنور .. قلت: ما الأزهر؟» قال: «فيه كهيئة السراج، وأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه الله عز وجل شكر، وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك[1].

فالرواية، كما نلاحظ، تبيّن أن الإيمان والنفاق يجتمعان في قلب واحد[2]، أما القلب السليم الذي يفد به الإنسان على ربه، فهو القلب الذي استجمع الشروط والمواصفات، وتطهّر من الأمراض والذنوب، واستوى على معنى الهداية والخشوع والتقى والاطمئنان والحياة، فكانت له تمايزات السلامة في الدنيا والآخرة. ولا شكّ في أن لهذا القلب مصاديق مختلفة، لأن القلب الذي يأتي به الولي، أو النبي ربه، هو ليس كالقلب الذي يأتي به كل إنسان ربّه. فالقلوب منازل، إذ قد يتوفر الإنسان على الهداية والخشوع والتقى وغير ذلك من صفات القلب المؤمن، لكن هذا التوفر على شيء من ذلك لا يؤهل كل إنسان لأن يكون على مستوى السلامة القصوى في دار السلام، باعتبار أن لكل إنسان منزلته عند ربّه، ويمكن للباحث أن يستدل على هذا الأمر مما عرض له القرآن من منازل في سورة الواقعة التي فصّلنا الكلام فيه في كتابنا «**الوعد والوعيد في القرآن**»[3] حيث رأينا أن المقربين لا بدّ أن منزلتهم تختلف عن منازل أهل اليمين، وكلّ قد أتى الله تعالى بقلبه السليم مع اختلاف في الهيئات والتحولات والتقلبات، ذلك أن منهم مَن يأتيه خالصاً متجلياً، ومنهم مَن يأتيه بقلب منيب، ومنهم مَن يأتيه بقلب مخبت، أو وجل، أو تقي، أو مهدي، أو

(١) را: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار (ت ٣٨١هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، انتشارات إسلامي، ١٣٦١هـ، ص٣٩٥.

(٢) يقول المازندراني: فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجا... انظر: مولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، (ت ١٠٨١هـ)، بيدار، آيات، ج١٠، ص١٤٦.

(٣) عارف، هنديجاني فرد، الوعد والوعيد في القرآن المجيد، نشر جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد، م. س، ص١٦٤.

مطمئن، ولكل قلب من هذه القلوب درجته ومنزلته. لكن يبقى للقلب السليم منزلته التي تميّزه عن سائر القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]. فالآيات، كما جاءت في سياقها القرآني، توضّح أن النبي إبراهيم عليه السلام جاء ربه بقلب سليم، فهي لم تأتِ بأي وصف آخر مما وصفت به القلوب التقية، بل بالقلب السليم لتؤكّد على أن معنى السلامة إنما يكون باستجماع الصفات القلبية الظاهرة والباطنة التي تعطي الإنسان امتياز التجلّي في الملك والملكوت، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[3]، وقوله تعالى للنبي موسى عليه السلام: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾[4]، وقوله تعالى في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾[5].

إنّ ما أفاده بعض المفسرين للقرآن من أن القلب السليم يعني الخلوص من الشرك، أو الإيمان بالله واليوم الآخر، دون الإشارة إلى حقيقة المعنى القرآني في السياق الذي جاء فيه لجهة التأكيد على التعرّي عن الآفات، والتوفر على الملكات في الباطن والظاهر، هو في الحقيقة تجاهل للسياق القرآني، وتسويغ لأطروحات أنتجتها المدارس الكلامية والسياسية لتحقيق أغراض ومنافع دنيوية في ظلّ الدعوة إلى الإسلام، وكان الأجدر بهؤلاء أن يُخرجوا النص القرآني عن تجاذب الأهواء، ليعطوه دلالته الحقيقية كما عرض له القرآن، ويكفي أن يتدبّر هؤلاء في أن النبي الذي جاء ربه بقلب سليم هو النبي إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، واتخذه نبيّاً، قبل أن يتّخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتّخذه إماماً، فقال له:

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٨٣ ـ ٨٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.
(٤) سورة طه، الآية: ٢٣.
(٥) سورة النجم، الآية: ١٨.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ...﴾. وهذا كله إنّما كان له بعد أن استجمع الصفات الظاهرة والباطنة وحقائق الإيمان ورؤية الملكوت، فكان قلبه سليماً، وهو من موقع سلامته القلبية في الظاهر والباطن، قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]...

لقد بيّن بعض المفسرين أمثال الشوكاني، والقرطبي، حقيقة المعنى القرآني، واقتصروا في كلامهم على توصيف القلب السليم بأنه القلب الناصح لله في خلقه، أو الذي يعلم بأن الله حق... إلى غير ذلك، في حين إنه كان ينبغي على هؤلاء التدبّر في السياق القرآني لإدراك حقيقة معنى السلامة القلبية فيما تتمايز به هذه السلامة في العلم والعمل[2]، بل في الإيمان والعمل الصالح، إضافة إلى انتفاء كل معنى اعتباري في الحياة الدنيا، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[3]، فقط القلب السليم هو الذي ينفع صاحبه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ولهذا أجمع فقهاء الإمامية، الطباطبائي في الميزان[4]. والطوسي في التبيان[5]، والطبرسي في مجمع البيان[6]،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) يكفي أن يتدبّر الباحث في معنى أن يكون القلب سليماً، فيما اختاره الله تعالى له من اسم السلام، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ..﴾. فهو وصف بذلك لكونه تعالى لا تلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق، فأن يأتي الإنسان ربّه بقلب سليم، معناه أن دلالة السلامة في المفردة القرآنية تتسع في المنطوق والمفهوم لتفيد معنى الشمول والجامعية لصفات الكمال الإنساني، بحيث يكون الإنسان كمال التجلي في العلم والعمل، وهذا ما يسمّيه الفقه بالمصداق الأبرز لمعنى السلامة في القلب والعقل، بل بالإيمان والعمل الصالح...

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٨.

(٤) يقول الطباطبائي: فالاستثناء منقطع، والمعنى: لكن مَن أُتي بالقلب السليم فإنه ينتفع به...». انظر: الميزان، م. س، ج١٥، ص٢٨٩.

(٥) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٨، ص٣٤. يقول: «وإنّما خصّ القلب بالسلامة، لأنه إذا سَلِمَ القلب سَلِمَ سائر الجوارح من الفساد، من حيث إن الفساد بالجارحة لا يكون إلاّ عن قصد بالقلب الفاسد، فإن اجتمع مع ذلك جهل، فقد عدم السلامة من جهتين».

(٦) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، م. س، ج، ص٣٣٧.

والكاشاني في الصافي[1]، والقمّي في تفسيره...[2]، وغيرهم كثير على أن الإتيان بالقلب السليم إنّما يكون بخلوّ القلب من الكفر والمعاصي، والمساوئ الأخلاقية، فضلاً عن الشرك.

ومحصّل الكلام، كما يرى الطباطبائي قدس سره، أن مدار السعادة يومئذٍ على سلامة القلب، سواء أكان صاحبه ذا مال وبنين في الدنيا أم لم يكن لبطلان الاجتماع المدني بما يُعمل فيه من الأسباب الوضعية الاعتبارية كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[3].

إنّ مما يؤخذ به بعض المفسرين هو التباس الأمر عليهم فيما يعود إلى التماس حقيقة الإيمان في سلامة القلب، وهذا مما لا يختلف حول أحد من العلماء والمفسرين، باعتبار أن القرآن لم يتحدث عن هذا الأمر بمعزل عن العمل والسلوك العبادي، حيث إن النبي إبراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله تعالى على وجه التهجين لقولهم والتقريع لهم: ﴿...مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[4]، وكما يقول الطوسي قدس سره: «**الإفك هو أشنع الكذب وأفظعه، والإفك قلب الشيء عن جهته التي هي له، فلذلك كان الإفك كذباً...**»[5].

إذاً، القلب السليم ليس مجرد التزام الإنسان نظرياً بالإيمان والتوحيد، وإنما لا بدّ من الإتيان بقلب سليم في الظاهر والباطن، في الإيمان والعمل والأخلاق، وهذا ما عبّر عنه أهل اللغة بالتعرّي من الآفات، وقد جاء في الرواية عن الصادق حين سُئل عن الآية فقال: «**القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه، قال**

(١) الكاشاني، المولى محسن الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٤، ص٤١.
(٢) القمّي، أبي الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، (ت ٣٢٩هـ) مؤسسة الكتاب، مطبعة النجف، ط٣، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٢٢٤.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٨٥ ـ ٨٦.
(٥) الطوسي، التبيان، م. س، ج٨، ص٥٠٨.

وكل قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط...»[1]. فهو لم يكتفِ بذكر الشرك، كما فعل كثير من المفسرين، بل أضاف الشك، وإذا كان المرض هو الانحراف، كما يرى الشيرازي، فإنّ الشك هو الفقدان[2]، وكل شيء يفتقده الإنسان في ذات نفسه، سواء في الظاهر أم في الباطن، سواء في الإيمان أم في العمل، هو يؤدّي به إلى أن يكون على غير سلامة في قلبه، مع أنه يمكن أن تكون له حالة إيمان تجتمع لديه مع صفات مرضية كالنفاق والبخل والجبن والمرض، وغير ذلك مما يدخل في معنى مرض القلوب، كما بيّن الراغب الأصفهاني في مفرداته...

إنّ تخصيص القرآن لمن يأتي ربه بالقلب السليم، لذو دلالة واضحة على تمييز هذا القلب عن سائر القلوب التي تجامعها صفات إيمانية صحيحة، ولعل القرآن قد لحظ هذا المعنى فيما أُتي على استعماله من مفردات تخص القلوب بالحياة، أو بالتقى، أو بالهدى، أو بغير ذلك مما يُفيد تحقق الإيمان في زيادة أو نقصان، كحال أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى، أو كحال أولئك الذين آمنوا ولما يستوِ بهم الإيمان على مؤدّى السلامة في الدين والدنيا والآخرة، كحال أولئك الذين زعموا أنهم آمنوا ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[3].

نعم، القلب قد يكون له حال من الصحة، تماماً كما يكون له حال من المرض، ولكن صحة القلب تختلف عن سلامته، لأنّ الصحة قد تجامع الانشغال بغير ذكر الله تعالى، أما السلامة، فلا، ولهذا وصف القلب بالسلامة ولم يوصف بالصحة، فقال: «**بقلب سليم**»، ولم يقل بقلب صحيح، لما أفدناه بأن الصحة لا تمنع الانشغال،

(١) القمي، م. س، ج٢، ص١٢٣، وقا: مع الصافي، م. س، ج٤، ص٤١.
(٢) الشيرازي، مكارم، نفحات القرآن، م. س، ج١، ص١٧٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٠.

إذ إنّ هناك الكثير من الناس تكون قلوبهم سليمة لكنها منشغلة، وقد يكون النسبة بين القلب السليم والقلب الصحيح نسبة العموم والخصوص مطلقاً، فيكون كل قلب سليم، قلباً صحيحاً، وليس كل قلب صحيح سليماً... فالآية المباركة تجمع بين الصحة والسلامة، بين العلّة الظاهرة والعلة الباطنة لإفادة التعرِّي عن الآفات، ويكفي أن نشير هنا إلى ما يُفيده سياق الآيات المباركة بحسب الرؤية الموضوعية، فنرى أن الله تعالى اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلاً، ولما رُزق بإسماعيل عليه السلام على كِبَر فلعلّ القلب - كما يمكن أن نتوهّم - يُشغل بهذا المولود، فيصبح القلب بدل أن كان منشغلاً بالكلية به، فإنه شغل في جزء من هذا القلب بالمولود، فالله تعالى أراد أن يعلن أن إبراهيم عليه السلام لم ينشغل قلبه، ولا بجزء منه بشيء آخر غير ذكر الله سبحانه وتعالى، فسلمت فيه كل المواضع، وقد تجلّى هذا التسليم المطلق بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]. وهي آية ناظرة إلى أن القلب السليم لا يشغله شيء لا في الظاهر ولا في الباطن عن ذكر ربه، ولهذا جاء هذا التكامل في الآيات بين قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، ليفيد معنى التربية التي خصّ بها إبراهيم فيما مَنّ به الله تعالى عليه من صفات وخصائص أهّلته لأن يرى الملكوت، ولأن يكون إماماً جامعاً لصفات الكمال فيما انطوى عليه قلبه من إيمان والتزام في الظاهر والباطن في الدين والدنيا، فكان له المقام الأعلى، وحقّ له أن يكون من المحسنين، وأن تكون ذريته هم الباقين، وأن يترك عليه في الآخرين، هذا فضلاً عمّا خصّ به من كلمة باقية في عقبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2] ذلكم هو معنى القلب السليم في القرآن الكريم، أن يتصف القلب بالتقوى، والهدى،

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

والخشوع، والحياة ليكون قلباً سليماً خالصاً في ذكر الله تعالى، ومنيباً إليه بدوام الرجوع إلى ربه ليدخل بسلام إلى جنّات الخلد، كما قال الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[1]، وليس من صدفة أبداً أن يُستتبع كلام المولى تعالى في السياق القرآني بذكر السلام بعد الإنابة، لكون الإنابة الدائمة هي سبيل السلامة لدخول الجنة والفوز بالسعادة، إذ يحتمل أن يكون القلب المنيب في الآية هو القلب السليم على ما أفاد القرطبي في تفسيره[2]، وهذا ما نرى أنه لا يستفاد من السياق، لأن القلب المنيب هو حالة القلب في الرجوع الدائم إلى الله تعالى بالذكر والاستغفار فتكون له السلامة، فكيف يحتمل القرطبي أن تكون دلالة الإنابة هي ذاتها دلالة السلامة؟ وقد أشرنا لإفادة التعقيب من دلالة السياق بأن السلامة هي نتاج الإنابة الدائمة، بدليل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾. والله أعلم.

ب ـ تجليات القلب السليم وأحواله

لاشكّ في أن آيات القلب السليم في القرآن توجه الإنسان، بما جاءت فيه من سياق، إلى أنه إذا كان له غنى ومال وبنون في الدنيا، فإن شيئاً من ذلك في الآخرة لا ينفعه، لأن وجوده وخلوده في الآخرة يتوقف على كون قلبه سليماً خالصاً من الكفر والمعاصي والفساد، والآيات القرآنية، كما ذكرنا، ليست هادفة إلى تبيان حقيقة الانقطاع بين الدنيا والآخرة، بل هي تؤكد على معنى الدنيا بما هي دار ممرّ وعبور،

(١) سورة ق، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) لا شكّ في أنه من عجيب الكلام أن يقال: «واختلف في القلب السليم، فقيل من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد. فإذا كان الحال كذلك، فكيف يكون المجيء بالقلب السليم إذن، فهل يأتي وهو غير سالم من الذنوب؟ إن الله تعالى يقول: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ومفاد الآية أن قلبه كان سالماً من الذنوب، وبريئاً من العيوب، سواء في الظاهر أم في الباطن. را: كلام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج١٧، ص٢١. ورا: كلامه في معنى القلب السليم وأن أحداً لا يسلم من الذنوب، ج١٣، ص١١٤.

ومحلّ ابتلاء وتحقق للاختبارات النظرية والعملية للإنسان، هذا فضلاً عمّا أشرنا إليه من أن التكاليف الإلهية، وقبلها الإيمان بالأصول الاعتقادية، هي شروط في تحقق سلامة القلب، باعتبار أن القلب لا يكون سليماً لمجرد حالة باطنية يتوفر عليها الإنسان تؤدّي به إلى الخلود في دار السلام، بل هو إضافة إلى ذلك حالة ظاهرية عملية يؤدّيها من خلال الالتزام بالعهد والميثاق في الدنيا، بحيث يعمل وفق ما أمر الله تعالى به ورسوله، ويستجيب لما دعاه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾[1]، ومن تكون له الحياة والسلامة في الدنيا، لا بدّ أن يكون له السلامة في الآخرة بحسب ما كان له من التزام وطاعة. وهناك جملة من الآيات تؤكّد هذا المعنى، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[4]، هذه جملة من الآيات المباركة التي تؤكد على حقيقة سلامة القلب في الدنيا والآخرة. الدنيا التي يكون فيها المال والولد سبيلاً إلى الطاعة لله تعالى.

لهذا، فإنّ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، لا يُفيد فقط أن يكون الإنسان غنياً في دينه بسلامة قلبه، بل قد يُستفاد منه الغني بالمال والولد في طاعة الله، وكما يقول الزمخشري: «**ولَكَ أن تجعل الاستثناء منقطعاً، ولا بدّ لك مع ذلك من**

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

تقدير المضاف وهو الحال، والمراد بها سلامة القلب، وليست هي من جنس المال والبنين، حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان، وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصّل للاستثناء معنى، وقد جعل «مَن» مفعولاً لينفع، أي لا ينفع مال ولا بنون إلاّ رجلاً سَلِمَ قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلّمهم الشرائع، ويجوز على هذا «إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين»[1]. وإلى مثل هذا ذهب العلاّمة المشهدي في تفسير كنز الدقائق، حيث رأى «**أن المال والبنين لا ينفعان أحداً إلاّ مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته. أو لا ينفعان إلاّ مال من هذا شأنه وبنوه، حيث أنفق ماله في سبيل الخير، وأرشد بنيه إلى الحق، وحثّهم على البرّ... وقيل: الاستثناء مما دلّ عليه المال والبنون. أي لا ينفع غني إلاّ غناه، وقيل: منقطع. والمعنى: ولكن سلامة من أتى الله بقلب سليم تنفعه**»[2].

إنّ تركيز العلماء وأهل التفسير على سلامة القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر الآفات، فيه دلالة واضحة على أن تجلّيات القلب السليم وأحواله ليست تجلّيات في الآخرة وحسب، وإنما هي ملحوظة في جملة الآيات القرآنية التي اخترناها للتدليل من خلالها على أعمال وسلوكيات أصحاب هذا القلب، حيث إنها تشير في سياق رؤية موضوعية إلى وجل القلوب والصبر وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا كله إنما يكون حالات وأوضاع في الدنيا، تماماً كالحالات والأوضاع التي تكون لأصحاب القلوب الكافرة أو المريضة، إذ إنّ لكل من هذه القلوب تعبيراته وتجلّياته العملية في الواقع، فلا يُقال: إنّ مجرّد النية السليمة كافٍ لتحقق سلامة القلب، كما

(١) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج٣، ص٣٢١.

(٢) الميرزا محمد المشهدي، تفسير كنز الدقائق، تحقيق حسين دركاهي، دار الغدير، قم، ط١، ٢٠٠٣، ج٩، ص٤٧٤.

يُراد أن يُفهم من كلام الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «**صاحب النية الصادقة، صاحب القلب السليم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها**»[1].

فالكلام، وإن كان آنياً في سياق التأكيد على النية الصادقة، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّما الأعمال بالنيّات، وإنما لامرئ ما نوى**»[2]، إلاّ أنه يُفيد مع ذلك تحققات الأعمال وتجلّيات القلوب في الواقع العملي للإنسان، بحيث يكون ملتزماً بأوامر الله تعالى، ومطيعاً لرسوله ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3]، وهذا يؤكّد معنى أن يكون القلب السليم متجلّياً في الباطن والظاهر، في النية والعمل، باعتبار أن الأعمال إنما تكون بخواتيمها، فإذا لم تتحقق الأعمال، وتترجم النيّات في ممارسات الواقع وتجاربه، فلا يكون الإنسان متحققاً بالسلامة في الدين والدنيا، ولا شكّ في أن مَن يأتي الله تعالى بقلب سليم هو لا يأتيه بمعزل عن أعماله ونيّاته، بل يأتيه بكتابه الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلاّ أحصاها، كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4].

لقد جاء الحديث عن أمير المؤمنين أنه قال: «**مَن أحبَّ أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن كل مَن خيِّر له أمران أمر الدنيا وأمر الآخرة، فاختار أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحب الله، ومن اختار أمر الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده**»[5].

---

(١) م. ع، ج٩، ص٤٧٤.

(٢) انظر: المغربي، نعمان بن محمد التميمي، دعائم الإسلام، (ت ٣٦٣هـ)، تحقيق أصغر فيضي، دار المعارف، ١٩٦٣، ج١، ص٤.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٥) من أراد منكم أن يعلم كيف منزلته عند الله تعالى، فلينظر كيف منزلة الله منه عند الذنوب، وكذلك تكون منزلته عند الله تعالى. انظر: الشيخ الصدوق، كتاب الخصال، (ت ٣٨١هـ) تحقيق غفاري، جماعة المدرسين، قم، ص٦١٧. وقا: مع ابن شعبة الحرّاني، كتاب تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تحقيق غفاري، قم، ط٢، ١٤٤٢هـ، ص١٠٧.

وعنه عليه السلام: «**القلب المحبّ لله يحب كثيراً النَّصَب (أي: التعبد) لله، والقلب اللاهي عن الله تعالى يحب الراحة، فلا تظنّ يابن آدم أنك تدرك رفعة البرّ بغير مشقّة، فإنّ الحق ثقيل مُرّ**»[1].

هناك الكثير من الأحاديث المتواترة عن أئمة أهل البيت التي تربط بين الدنيا والآخرة، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وصاحب القلب السليم هو الذي يختار الآخرة على الدنيا لاعتقاده بأنه هو إنّما خلق للآخرة وليس للدنيا[2]، وقد جُعلت له الدنيا ممراً إلى دار الخلود والسلامة، وهو لا بدّ أن يصحب الدنيا بقلب سليم من هواجس المحذورات بتخليص النيّة لله تعالى في الأمور كلها، كما أفاد الإمام الصادق عليه السلام، وهذا لا يتأتّى له إلاّ بأن يعمل الصالحات وفق أمر الله ونهيه، وأن ينفق في طاعة الله تعالى، لما عرفناه بأن عمارة القلب السليم لا تصمد أمام العواصف والأهواء، إلاّ إذا كانت قائمة على أسس قويّة من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، لكون هذه الأخيرة هي محل ابتلاء للإنسان، وما لم تكن أحوال الإنسان الظاهرة والباطنة مستوية على حدّ الإيمان والتقوى، فإنّه لن يفوز بالقلب السليم الذي يأتي به الله تعالى غداً، وقد أشرنا إلى مَعنى أن يأتي النبي إبراهيم عليه السلام ربّه بقلب منيب فيما عرضنا له في معنى الإنابة الدائمة إلى الله تعالى، لا من خلال الذكر والاستغفار الدائم وحسب، وإنّما من خلال العمل والدعوة إلى الله تعالى، وتحطيم الأصنام والبراءة من الكفر والكافرين. ومن هنا نرى أن تجلّيات القلب السليم وما يكون له من أحوال ظاهرة وباطنة، لا بدّ أن تتحقق في التجربة العملية للإنسان في

(١) قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء». نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، الخطبة ٢. ورا: مسند الإمام علي السيد حسن القبانجي، تحقيق طاهر السلامي، مطبعة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج١١، ص٢٣٥.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: «أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، واخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها أختبرتم ولغيرها خُلقتم» الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ٢٠٣.

ضوء أمر الله ونهيه، لقوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[1]، وهذا السبيل يبدأ من الدنيا وينتهي بالرجوع إلى الله تعالى، الذي إليه المصير. وإذا كانت الروايات الإسلامية عن الأئمة عليهم السلام قد لحظت مساوئ حب الدنيا، ودعت إلى الزهد فيها، وربطت بين حبها ومرض القلوب، على قاعدة أن حبّ الله وحب الدنيا لا يجتمعان كالليل والنهار، فهذا كله إنما يمكن فهمه في سياق الحديث عن الدنيا بما تعنيه من شهوات وملذّات وكفر ومعاصٍ ومساوئ أخلاقية، وارتكاب المحرمات. أما الدنيا بما هي طاعة وزينة وحلال وطيبات وظهور للحق على الباطل، والإيمان على الكفر، فهي مما حثّ القرآن على العيش فيها والقيام بها على النحو الذي يؤدي بصاحب القلب السليم إلى الصدور عنها في قوله وفعله، بل في إيمانه وعمله ليكون فائزاً بالمغفرة والرضوان يوم يأتي الله تعالى بقلبه ونيّته وسائر تعابير أحواله الظاهرة والباطنة، بحيث يكون لسان حاله دائماً في الدنيا والآخرة لسان إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2].

نعم، إنّ هذا الذي نراه هو ما تخلص إليه روايات أهل البيت في شأن الدنيا التي جعلها الله تعالى ممرّاً لقلوب أوليائه الذين لم يختاروا على الآخرة شيئاً، فزهدوا في الدنيا، وأتوا الله تعالى بقلب سليم من الشرك والشك، وفازوا بسعادة الدارين، لأن صاحب القلب السليم الذي له مواصفات الإنابة والخشوع والتقوى والحياة والوجل، وغير ذلك مما خصّ به القلب السليم في القرآن، هو الذي عظم الخالق بعينه فصغر ما دونه في نفسه، بل هو الذي باشر روح اليقين وهو في حقيقة الابتلاء المبين، كما كان حال النبي إبراهيم عليه السلام في النار، وحال الرسول صلى الله عليه وآله في الغار... ذلكم هو معنى التجلّي للقلب السليم، وأن تكون له أحواله وتعبيراته في حب الله

(١) سورة المائدة، الآية: ١٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٨٣ ـ ٨٥.

تعالى وذكره الدائم رغم كل ما يحيط به من مصائب وآلام، ويتعرّض له من مساوئ في الحياة، يزهد في الدنيا، ويعيش في الآخرة، كأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل على حدّ ما وصف به الإمام الحسين الدنيا والآخرة في أصعب لحظات الحياة وأشدّها خطورة، وهو في الطريق إلى كربلاء[1].

إنّ تجلّيات القلب السليم في الدنيا، وكذلك أحواله وتعبيراته في العلم والعمل ليست وليدة عالم الآخرة، كما ربّما يتوهّم بعضهم، أو أنها مجرّد تعبيرات خاصة تدفع إليها أوضاع وحالات في الدنيا، يصدر عنها القلب السليم في حب أو بغض فيما تستهويه النفس أو تكرهه، بل هو قلب مهتدٍ بنور الله تعالى، ومثاب بما خصّ به من هدى ونور، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]. قلب له من التجلّي ما يجعل من الدنيا سبيلاً إلى الآخرة، وإذا كان هذا القلب قد سلم من حبّ الدنيا، فذلك لأنه أتى ربه وليس في قلبه أحد سواه، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته..**»[3]، وفي هذا الكلام لمولى الموحدين تكمن حقيقة التجلّي للقلب السليم في الدنيا، أثر لا يبصر إلى الدنيا، بل يبصر بها لتكون له حاكمية القول والفعل، وصوابية الرؤية فيما يأتيه من أعمال، ويؤدّيه من تكاليف، فيخرج من الدنيا سليماً من الكفر والمعاصي والآفات، ومتحققاً بالأعمال التي تؤدي به إلى دار السلامة والخلود، لأنه نجح في ابتلاء الدنيا، وفاز في امتحان العبور، فكان في الدنيا ولم يكن ممن أحبها لذاتها وإنما لما تؤدّي إليه من مفازة في الآخرة، وبهذا يمتاز القلب السليم عن القلب الكافر، أو القلب المريض، فيما يكون له من فوز وسلامة في الدين والدنيا، في المال والولد،

(١) انظر شرح العلامة محمد مهدي الآصفي لكلام الإمام عليه السلام في كتابه الإمام الحسين يوم عاشوراء، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، ١٤٢٧هـ، ص٩٤. فهو يرى أن الإنسان صاحب القلب السليم يعيش في الدنيا وقلبه في الآخرة، كأنه لم يعبر في الدنيا لحضور الآخرة في قوله وعمله...

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٣) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ٨٢.

وفي كل ما قصد به ربّه من نوايا صادقة، وأعمال صالحة، واعتقادات حقة.

أما القلب الكافر، أو المريض بالنفاق وغيره، فهي القلوب التي أحبت الدنيا، وأبصرت إليها، فعميت عن النور والحق، فامتازت بالخطايا والذنوب، وختمت بالطبع والأقفال، ولعل هذا هو المقصود بقول الصادق كما جاء في مجمع البيان، أن القلب السليم هو القلب الذي سلم من الدنيا، ويؤيده قول النبي ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»[1].

إذاً، مَن يأتي الله تعالى بقلب سليم في الآخرة، هو الذي أتى عباد الله تعالى بالقلب السليم في الدنيا، لأنّ القرآن الكريم فيما عرض له من أوصاف وأحوال وتجلّيات هو لا يتحدّث عن مجردات، بل عن حقائق لا بدّ أن تتجلّى في قلب الإنسان وفي سلوكه أيضاً، بحيث تكون هناك ترجمة لهذه الأوصاف في النظر والعمل معاً، باعتبار أن السياق القرآني فيما أُتي عليه من أحداث، وفيما تجلّت به هذه القلوب من أعمال، يؤكّد على أن السلامة في القلب لا بدّ أن تترجم في حياة الناس، سواء الخاصة أم العامة، ولهذا جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**التواضع درجات، منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحب أن يأتي إلى أحد إلاّ مثل ما يؤتى إليه. إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس، والله يحب المحسنين**»[2].

كما أن ما عرضنا له من آيات مباركة في هذا المبحث يُفيد هذه الحقيقة لجهة تأكيد الآيات على لين القلوب وخشوعها، والصبر على الابتلاء، وإقامة الصلاة، ونصرة الحق، والاهتداء بنور الله تعالى، والإنفاق في طاعة الله تعالى، إلى غيرها من الآيات التي إن جمعت وضمّت بعضها إلى بعض أفادت أن القلوب السليمة لا بدّ أن تتجلّى في السلوك أيضاً، بحيث يصدر الإنسان عن أمر الله ونهيه، وتكون له

(١) انظر الشيخ الكليني، أصول الكافي، م. س، ج٢، ص١٣١.
(٢) المشهدي، كنز الدقائق، م. س، ج٩، ص٤٧٥.

تجلّياته العملية في صناعة الواقع وترشيد الناس، والدعوة إلى الحق، والإحسان، ودفع السيئة بالحسنة إلى غير ذلك مما ينبغي أن يتّصف به القلب السليم في العلم والعمل...

يبقى أن نُشير في ختام هذا المبحث إلى عدّة مسائل نرى أن بعض الباحثين قد خلط القول فيها دون تميّز بين القلوب وما يمكن أن يمتاز به كل إنسان عن إنسان آخر فيما يكون له من حالات وتجلّيات، حيث سأل بعضهم عمّا إذا كان صاحب القلب السليم يمل من العبادة ومن الذكر إلى غير ذلك مما رأوه للقلوب من حالات، وخاصة القلب السليم، وقد رأى بعضهم أن القلب السليم لا يملّ من الذكر والعبادة كما يملّ البدن، بل له حالة حضور وتواصل في العبادة إلى حدّ ضيق الزمان والمكان عن الإتيان بها، وقالوا: إنّه من علامات صحة القلب وسلامته أن يتعب الجسد في الخدمة ولا يملّ القلب، لأن الذي يحرّك العبد من داخله هو محبّة الله تعالى ورجاء التلذّذ بالنظر إلى وجهه الكريم، مستدلّين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين قد خلط في معنى سلامة القلوب، كما خلط في معنى العبادة لله تعالى، ساهين عن أن حالات البشر وتجلّياتهم تختلف باختلاف استعداداتهم وحالاتهم الروحية والعقلية، إذ من البشر من تحقق له الفناء عن نفسه، ومنهم من تأخذ به الأنا إلى حدّ الفجور، ومنهم من تتوسّط حالته فيكون فيه الإيمان والنفاق، كما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام في أنواع القلوب،... والكلام ذاته يمكن أن يُقال في العبادة التي يتراوح أمرها بين أن تكون عبادة التجّار، أو عبادة العبيد، أو عبادة الأحرار كما في الحديث عن الإمام علي فليس كل إنسان فيما له من قلب سليم قادر على أن يتجلّى في قلبه إلاّ على ما استوى عليه من

(١) سورة الليل، الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

حالة إيمانية. ولا شكّ في أن القلب السليم الذي يأتي ربه يوم القيامة، ليس قلباً واحداً، وإنما هو قلب له منازل ودرجات وحالات وتجلّيات، فمنهم من تجلّى حتى رأى الملكوت، ومنهم مَن تجلّى وكانت له السلامة في دار الخلود، ومنهم مَن تجلّى فكان قاب قوسين أو أدنى من الصعود، ومنهم مَن أنعم الله عليه بما اختاره لنفسه، فكان له مقام التجلّي في منازل الرضوان الذي لا يكون الفوز في الجنة شيئاً إزاءه، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[1]، وهم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون، كما بيّن القرآن الكريم.

وكيف كان، فإنه يمكن القول بالتمايز في أوصاف القلوب السليمة، بحيث يكون لكل إنسان درجته ومنزلته، بدليل ما نجده من حالات الناس المختلفة في العبادة والذكر، إذ منهم مَن يملّ من العبادة والذكر، ومنهم مَن هو زين للعابدين، وأمير للمؤمنين، ويعسوب الدين، ومباشر لروح اليقين لا يملّ في عبادة ولا في ذكر، وقلبه دائم الحضور في التجلّي والظهور، وهذا المقام هو مقام الأنبياء والأولياء الذين سمّاهم القرآن بالمخلَصين، وجعلهم قدوة للناس، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2]، أما ما عدا هؤلاء ممَّن تباينت حالات التجلّي لهم في الأنفس والآفاق، فإنه يمكن القول باختلاف الدرجات وتمايز الأوصاف، وتباين الحالات، ولعلّ هذا هو مفاد ما لحظه العلاّمة مطهّري قدس سره في كتابه التربية والتعليم، حيث جمع نصوص القلب لأمير المؤمنين عليه السلام ليؤكّد على أن للقلوب أدباراً وإقبالاً، كما في قوله : إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإن أقبلت فاحملوها على النوافل، وإن أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»[3].

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ٢٢١.

يقول العلّامة مطهري: «**يتّضح من كلام الإمام عليه السلام أنه ناظر إلى العبادات وأنه لا يمكن فرضها على القلوب، بل يجب إدخالها إلى القلب بلطف حتى في العبادة، لأنّ هذه الأخيرة لو فرضت على روح الفرد، فإنها ستخلف آثاراً سيئة على الإنسان...**»[1]. فالعلاّمة مطهّري، يريد التأكيد في منهاج التربية، على أن القلوب التي هي الأرواح تملّ كما تملّ الأبدان، مستشهداً بكلام الإمام عليه السلام: «**فابتغوا لها طرائف الحكمة**»[2].

وهكذا، فإنّ كلام الإمام يأتي في توصيف حالات الناس واستعداداتهم ومدى ما لهم من قدرات في الإقبال على الحق والقيام به والصبر عليه والصدور عنه، إلاّ أن ما ينبغي التركيز عليه هو أن أصحاب القلب السليم لهم تمايز في درجات الحضور والتجلّي، والمصداق الأبرز لهذا الحضور والتجلّي هو الأنبياء والأولياء مع اختلاف أيضاً في درجات حضورهم، وأسرار تجلّياتهم، فإذا كان هناك من الناس من أقبل قلبه، فليس معنى ذلك أنه لا يملّ من ذكره وعبادته لله تعالى، أو من الدعوة إليه، سواء على مستوى الواقع أم على مستوى النفس، لأن قول الإمام فابتغوا لها طرائف الحكمة، هو مرشد إلى أن التوفر الدائم على هذه الطرائف لا بدّ أن يساعد أصحاب القلوب على دوام الحضور والتجلّي، نعم قد يحصل الملل، وقد يتعب الجسد، إلاّ أن الروح تبقى متوقدة، وبقدر ما يكون للإنسان من وعي وعقل عن الله تعالى، بقدر ما يكون له من تمايز في التجلّي في القول والعمل. وبما أن الناس يختلفون ويتبايتون في حالاتهم، فإنه قد يكون منهم الملل في الجسد والقلب معاً، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «**فإنّ القلب إذا أكره عمي**». وعمى القلب هنا ليس سوى الموت عن الذكر والعمل معاً. فالقلوب أوعية وخيرها أوعاها، وهي بقدر ما يكون لها من الوعي، يكون لها من التجلّي، وإذا كانت طرائف الحكمة سبباً لإقبال القلوب، فكيف

(١) مطهري، مرتضى، التربية والتعليم في الإسلام، م. س، ص٣٤.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ٢٢٢.

بحالات وتجلّيات مَن جعلهم الله تعالى أسباباً لهذه الطرائف، وخصّهم بجوامع الكلم؟ والحق يقال: إنّ ما ينطبق على هؤلاء الصدّيقين، لا ينطبق على سواهم، لأنهم أصحاب القلب السليم، والهداة إلى ربّ العالمين،... وباختصار يمكن القول: إنّ القلب الذي يعبد الله كأنّه يراه، هو غير الذي يعبد الله تعالى عبادة التجّار، أو العبيد، كما أنه غير الذي يعبد الله تعالى على حرف...!؟.

خاتمة

القلوب بين عالم الأمر وعالم الخلق

إذا كانت خاتمة كل بحث علمي تشكّل خلاصة البحث، وتقدّم رؤية كاملة عمّا يريد أن يخلص إليه الباحث في عمله من حيث ترتيب الأفكار وتنظيمها على النحو الذي يسمح بتبيان حقيقة الموقف أو النظرية التي يُراد إبرازها، فإنّ خاتمة هذا البحث يمكن أن تكون بمثابة التأسيس لبحوث مقبلة لكونها ليست مجرّد خلاصة لما استوفيناه من مباحث، بل هي، بالإضافة إلى ذلك، تنطوي على مبحث جديد ما كان يمكن التوقف عنده لولا أن بحوث هذه الدراسة قد أتت على كثير من النتائج المهمة، ولعلّ أهم ما يمكن أن نعرض له في ضوء ما خلصنا إليه من نتائج، هو أن محورية عمل الباحثين والفقهاء كانت كلها قائمة على أن الروح والنفس، أو بشكل عام، اللطيفة الربّانية المدركة العالمة المثابة والمعاقبة التي لها تعلّق بهذا البدن الجسماني، هي سرّ تحقق الإنسان في الوجود، وسبب عالميته بحقائق الأشياء، فهم تارة يتحدثون عنها بلغة القلب، وتارةً بلغة النفس، وثالثة بلغة الروح، ولكن الحقيقة هي أن كل هذه المفردات ليست شيئاً آخر غير الروح أو النفس الإنسانية التي هي جوهر العقل، وقد أضافها الله تعالى إلى نفسه تشريفاً لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. ولهذا، فإنّ اختلاف المفردات فيما جاءت به من سياق قرآني ليس اختلافاً جوهرياً من حيث المعنى والمفهوم، لكون القلوب والعقول، وكل ما يشكل وعياً وفكراً وإرادة وعواطف وأحاسيس كله يعبّر عنه بهذه اللطيفة الربانية. التي أراد الله تعالى لها أن تكون مدبرة وعالمة وعاقلة من حيث هي وحدة حقيقية، ومبدأ الأفعال الإنسانية، باعتبار أنه لا توجد مناطق نفوذ في جسم الإنسان ليكون لكل عضو عمله ومملكته وأوامره الخاصة به، وإلاّ اضطرب حاله، وكان مآله إلى

التفرق، واستحال أمره إلى العبث في وجوده لتشتّت حاله واختلاف منازعه فيما يحب أو يكره، إلى غير ذلك مما يؤدّي به إلى عدم التكامل. وبما أن الله تعالى أراد له أن يتكامل في وجوده وأعماله، فذلك يحتّم خلقاً ووجوداً بأن يصدر الإنسان في أفعاله عن وحدة في نفسه وروحه وعقله، وفي كل شأن من شؤونه. وإذا كانت المفردات القرآنية قد اختلفت في التعبير عن حاله، فهي بالتأكيد لم تختلف في مآلاته وفيما يؤول إليه من نضج في أحواله، بحيث تكون له وحدته الحقيقية التي يؤكد من خلالها على تحققه في الإيمان والعمل، بحيث يكون له تمام الكدح في تجلّياته، وهذا ما يفسّره قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، لأن القلب هو سرّ تعلّق الروح، وملاك التحقق الإنسان فيما يكون له من تحولات وتقلّبات تؤدّي به في ضوء الوحي والعقل إلى أن يكون له صيرورة تكاملية يرجع بها إلى الله تعالى.

وإذا كان القلب هو سرّ تعلّق الروح، فإنّ هذه الأخيرة تكون سرّ التحقق في الوجود من حيث كونها مضافة إلى الله تعالى، وتشكّل جوهر العقل والقلب وكل القوى التي تصدر عن حقيقة تعلقها، ولهذا نجد أن القرآن لم يأتِ على مفردة، أو عبارة القلب في أي إضافة تشريفية إلى الله تعالى، كما هو حال الروح، أو النفس، حيث قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ...﴾[2]، فهو لم يأتِ على أي مفردة تعطي القلب تحيّزاً أو تعلّقاً مستقلاً في العقل والتأثير، فضلاً عن التدبير، وهو وإن كان له شيء من ذلك، فإنما يكون له من خلال حقيقة تعلقه بالروح التي هي سرّ ملكوتي في جثّة ناسوتية. وقد شبّهها بعض أهل العرفان بأنها كالجوهرة في صندوق، فإذا أخذت منه لم يعد للصندوق معنى أو قيمة، ثم إنّ معنى أن لا يضاف القلب أو العقل، أو الفؤاد، أو الصدر إلى الله تعالى في أي آية قرآنية مثلما أضيفت الروح والنفس إليه تعالى، معناه أن يتدبّر الإنسان جيداً في ما

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

يعنيه عالم الأمر وعالم الخلق في القرآن، لكون المنهجية الموضوعية تفترض على الباحث أن لا يتوقف عند الآيات والمفردات الخاصة بموضوع بحثه وحسب، وإنما عليه أن يلحظ الآيات ذات التعلق بموضوع البحث من حيث المؤديات والنتائج، بحيث يكون له إحاطة شاملة بالرؤية القرآنية حول متعلقات كل المفردات القرآنية التي لا بدّ أنها تلتقي في كمال نضجها عند حقيقة تعلقها والذي هو الروح، أو النفس، وقد قيل: «**إنّ حقيقة الإنسان واقعة بين عالمين، أحدهما عالم الاتحاد وهو جميعه قرب في قرب ونور في نور، ويُقال له عالم الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾**[1]، **وثانيهما: عالم الأغيار (الغربة) وهو جميعه بُعد في بعد، وظلمة في ظلمة، ويسمى عالم الخلق، حيث قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾**[2] **والروح من عالم الأمر أرفقت بالإنسان، والنفس ذكر من عالم الخلق وقرنت به وكلاهما راجعان إلى مرجع إلهي، أحدهما سرّ لطفه قائم بجماله، والآخر سرّ قهره قائم بجلاله وما يرجع إلى الإنسان هو القلب الذي هو واقع بين إصبعي اللطف... ومن هنا لم يرد ذكر اسم القلب بالنسبة لله تعالى...**

إنّ الله تعالى خلق الإنسان ليكون له معنى الاتحاد مع روحه، بحيث يرتقي في قلبه وعقله ونفسه إلى عالم الوحدة والوصال لما شرّف به الإنسان من لطيفة ربّانية تعلّقت به من عالم الأمر، فإذا ما تحقق بها وصدر عنها، فإنه يكون في موته وحياته تعبيراً عنها وتجلياً لها، ويكون قلبه وكل قواه ذات التعلق بهذه اللطيفة تابعاً لها، لأن كل شيء في حياته وموته يرجع إلى أصله، ويتبع حقيقة تعلقه، وهذه الأسرار الإلهية ما كان الإنسان ليهتدي إليها لولا الوحي الذي أرشد الإنسان إلى حقيقة أمره، وحذّره من هوى نفسه، فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

﴿فَمُلَٰقِيهِ ٱلسَّمَآءُ﴾[1]، وهذه الملاقاة إنما تكون بحقيقة متعلقات هذه الروح التي أضافها الله تعالى إليه، ليدلّل على أنها من عالم أمره، وإذا لم يتحقق الإنسان بها قولاً وفعلاً، إيماناً وعملاً، فإن قلبه لن يكون مستوياً على سرّ أمرها، بل تكون له متعلقات نفسانية تخرجه من عالم الأمر ليكون في عالم الخلق، عالم الظلمة والهجران، وهذا ما لحظه الغزالي في رسائله، مبيناً أن النفس الإنسانية لفظ مشترك بين معنيين، أحدهما يراد به المعنى الجامع لقوى الغضب والشهوة في الإنسان، وهذا ما عبّر عنه بقول الرسول ﷺ: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»[2].

والمعنى الثاني: يُراد به اللطيفة الربانية التي تشكّل حقيقة الإنسان ونفسه وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف حالاتها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سمّيت النفس المطمئنّة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[3]. والنفس

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٢) يرى الملاّ صدرا في مفاتيح الغيب أن قلب الإنسان متجاذب بين الشيطان والملك، قال رسول الله ﷺ: في القلب لمّتان، لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ولمّة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق... ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين، قال رسول الله ﷺ: قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، والله سبحانه يتعالى أن يكون له جارحة، ولكن الروح الإصبع وحقيقة معناه عبارة عن سرعة التقليب... فإنّك لا تريد الإصبع لشخصه، بل لفعله في تقليب الأمور وترديدها، كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك، فالله تعالى إنما يفعل ما يفعله باستخسار الملك والشيطان وهما مسخران لقدرته في تقليب القلوب، والنفس الإنسانية في أصل الفطرة صالحة لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً، وليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجّح أحد الجانبين على الآخر باتباع الهوى والإكباب على الشهوات... فإن اتبع هوى النفس بإتيان الشهوة والغضب، ظهر تسلّط الشيطان عليه بواسطة الهوى... وإن جاهد الهوى بقمع الشهوة والغضب ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاقه أخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة... ولما لم يخل إنسان بشري عن الصفات الحيوانية المتشعبة عن الهوى المنبعثة عن الإغواء لا جرم لم يخل قلب من أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة، ولذلك قال النبي ﷺ: ما منكم من أحد إلاّ وله شيطان. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلاّ أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم على يدي ولا يأمر إلاّ بالخير...». انظر: مفاتيح الغيب، م. س، ص١٥٨.

(٣) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.

بالمعنى الأول لا يتصوّر رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله تعالى وهي حزب الشيطان، وإذا لم يتمّ سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية سمّيت النفس اللوّامة، فإذا تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سمّيت النفس الأمّارة بالسوء»[1].

إنّها لطيفة ربّانية واحدة تعلقت بالقلب الإنساني بما هو قلب معنوي روحي مخصوص بالذاتية والكلية، كما بيّنا في ثنايا هذه الدراسة، فهو قلب ينفعل عنها في سرّ وحدته، ويعود إليها في معنى تعلّقه وتشريفه، ولكنه ليس متعلقاً ذاتياً فيما خصّت به الروح من عالم الأمر، لكونه قلباً تابعاً مشايعاً لها، فإن كان له تجليات الروح، كانت له الوحدة والنور، والاتحاد والفوز بالقرب والوصال، وأما إن كان مشايعاً للنفس الأمّارة بالسوء، فهو لن يعود إلاّ إلى ظلمته، مختوم عليه، قلب مطبوع عليه بما آثر من هوى وفجور...

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن أهل العرفان والتحقيق قد جمعوا بين المعاني التي للقلب والعقل والروح والنفس، بأنها ذات تعلّق واحد تشترك في معنيين أحدهما ما لهذه المفردات من حقائق مادية وتعبيرات نفسانية، والثاني: ما لها من تعلّقات باللطيفة الربانية، فيكون لها جميعاً معنى وسرّ عالم الأمر. فإذا اهتدى الإنسان في حقيقة روحه ونفسه وقلبه وعقله بما خصّه به الوحي من بيان وتعليم وتسليم، فإنّه لا بدّ أن تكون له تابعية حقيقية إلى عالم الأمر، وإلاّ استغرقته الظلمة والهجران وفاز بهوى النفس وتابعية الشيطان، وهذا هو سرّ الوحدة في الإنسان، ولعلّ ما ذهب إليه أهل التحقيق في معنى برزخية القلب يرشد إلى هذا، حيث رأوا أن للقلب معنىً ثالثاً هو المراد في كثير من الروايات الإسلامية، وهو مرتبة من مراتب الروح الإنسانية التي تقع في الوسط، وهي برزخ بين الروح والقلب الجسماني، وليس القلب بهذا

(١) الغزالي، أبو حامد، مجموعة رسائل، م. س، ص٤١.

المعنى الثالث مثل الروح المجرّدة والشفّافة والمطلقة. وهذا ما نرى فيه تأسيساً جديداً لمعنى القلب بما هو سرّ مخصوص بالتابعية، حيث نرى في هذا التأسيس أن القلب عند أهل المعرفة والتحقيق، يُعطي حيثية ارتباط ومعنى التعلق بهذه اللطيفة لكونه خصّ بكثير من الآيات للتدليل على معناه فيما يكون له من تجلّيات، سواء في عالم الأمر أم في عالم الخلق، لكونه قلباً، على حدّ تعبير أهل العرفان، له حقيقة المصاحبة والإلفة، فإن كان روحانياً يذهب مع الروح إلى عالم الوحدة ويفوز بنور القرب.. وإذا كان قد صار نفسانياً يقع مع النفس في عالم الكثرة ويبتلى بظلمة البعد، يقول أهل المعرفة[1] «**الذين تكون أرواحهم وقلوبهم في عالم الوحدة يأخذون نفوسهم وأبدانهم معهم لثبوت حقيقة التعلق، وأرواح وأبدان الذين نفوسهم وقلوبهم في عالم الكثرة تلتحق بعالم الكثرة أيضاً لثبوت حقيقة التعلق، ويصبح عالم الأمر دار السرور وجنّات النعيم، وعالم الخلق دار البوار والعذاب الأليم..** ».

نروم في خاتمة البحث التأكيد على أن كلا العالمين، الأمر والخلق، ما كان يمكن للإنسان أن يهتدي إلى حقيقة التعلق بهما لولا أن الوحي قد أرسى قواعد، وبيّن حقائق ما يكون للقلوب من تعلقات بما خصّ به الإنسان في ذات نفسه من معنى وتشريف إلهي بدأ مع استخلاف الإنسان في الأرض، لأن هذا الاستخلاف، كما بيّن القرآن، هو من مقدمات، بل من شروط التحقق في عالمي الوحدة والكثرة، فإذا لم يهتدِ الإنسان بما خصّ به من تعلّق ربّاني، فلن تكون له تحولاته وتقلباته التي تؤول به إلى السعادة في الدارين، وكلما استطاع الإنسان الأخذ بما خصّه الله تعالى به من هداية للخروج من الظلمات إلى النور، كلما استطاع أن يرتقي في مدارج التحقق الإنساني ليؤول به أمره في النهاية إلى مزيد من التحقق في عالم الأمر، وقد

(١) نقلاً عن كتاب خزينة الجواهر ولمعات الأنوار للشيخ علي أكبر النهاوندي.

عرفنا كيف أن الروايات الإسلامية عن أهل البيت قد ميّزت بين القلوب بما يكون لها من متعلقات، مبيّنة أن القلب المفتوح هو المتجلّي بمصابيح النور، خلافاً للقلب المطبوع أو القلب المنكوس...، وإذا كانت هذه الروايات قد اختلفت في ذكر القلوب بين أن تكون أربعة أو ثلاثة، فذلك ليس سوى اختلاف في التعبير والتوصيف، لكون الروايات قد جمعت بين القلب المريض بالنفاق، والقلب المطبوع، فتكون القلوب ثلاثة في الجمع، وأربعة في التفريق كما في الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

غاية القول: إن القلب السليم هو القلب الذي يأتي الله تعالى غداً وهو مستوٍ على حقيقة المعنى والسير في عالم الأمر، فيلحق بسره، ويكون له حق نوره وملكوته بما اهتدى به من أمر إلهي خصّ به ليكون له الفوز العظيم في دار الخلود والنعيم كما قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. والحمد لله ربّ العالمين

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث النبوية، قم، ١٩٨٣م.

٤ ـ ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق السيد مرعشي، قم، ١٤٠٣هـ.

٥ ـ ابن الجوزي، أبي الفرج جمال الدين، تفسير القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٦ ـ ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، بيروت، ١٩٩٢م.

٧ ـ ابن شعبة الحراني، كتاب تحف العقول في آل الرسول ، تحقيق غفاري، قم، ١٤٤٢هـ.

٨ ـ ابن شهر آشوب المازندراني، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارت بيدار، قم، (لا ـ ت).

٩ ـ ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، بيروت، (لا ـ ت).

١٠ ـ ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل، تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.

١١ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم،لسان العرب، دار المعارف، مصر،(لا ـ ت).

١٢ ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.

١٣ ـ أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

١٤ ـ أبو حامد الغزالي، منهاج العابدين الى جنة رب العالمين، تحقيق حلاوي، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٥ ـ أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٣هـ.

١٦ ـ الإمام علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمد، ومحمود دشتي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م.

١٧ ـ البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، كتاب المحاسن، تحقيق جلال الحسيني، دار الكتب الاسلامية، (لا ـ ت).

١٨ ـ جعفر السبحاني، مفاهيم قرآنية، مؤسسة الإمام الصادق ، قم، ١٤٢٨ هـ.

١٩ ـ جوادي آملي، الإمام علي بن موسى الرضا والقرآن، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٠ ـ الحر العاملي، الفصول المهمة في أحوال الأئمة، قم، ١٤١٨هـ.

٢١ ـ حسن القبانجي، مسند الإمام علي ، تحقيق طاهر إسلامي، مطبعة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٢ ـ حسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الإرشاد الإسلامي، قم، ١٤١٧م.

٢٣ ـ الدامغاني، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٤ ـ الراغب الأصفهاني،معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ـ ت).

٢٥ ـ الزبيدي، محمد بن مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، (لا ـ ت).

٢٦ ـ الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.

٢٧ ـ زين الدين العاملي، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، تحقيق البهبودي، مطبعة الحيدري، المكتبة الرضوية، (لا ـ ت).

٢٨ ـ سيد قطب، معالم في الطريق، دمشق، (لا ـ ت).

٢٩ ـ الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦م.

٣٠ ـ الشوكاني، محمد بن علي، تفسير القرآن فتح القدير، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠هـ.

٣١ ـ الشيخ الصدوق، معاني الأخيار، تحقيق غفاري، انتشارات اسلامي، ١٣٦١هـ.

٣٢ ـ الشيخ المفيد، محمد بن النعمان، كتاب الاختصاص، تحقيق غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، (لا ـ ت).

٣٣ ـ صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة الإسلامية، درا النصر، بيروت، ١٩٩٤م.

٣٤ ـ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٥ ـ صدر الدين الشيرازي، المعروف بملا صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، إيران، (لا ـ ت).

٣٦ ـ الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م.

٣٧ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٨ ـ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٩هـ.

٣٩ ـ عارف هنديجاني فرد، الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن الكريم، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ٢٠١٤م.

٤٠ ـ عارف هنديجاني فرد، الوعد والوعيد في القرآن المجيد، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ٢٠١٤م.

٤١ ـ عارف هنديجاني فرد، حوار الأديان في القرآن الكريم، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ٢٠١٤م.

٤٢ ـ عارف هنديجاني فرد، علوم القرآن عند العلامة الطباطبائي، جمعية القرآن الكريم، لبنان، ٢٠١٣م.

٤٣ ـ عبد الحسين دستغيب، القلب السليم، ترجمة كوراني، دار البلاغة، بيروت ٢٠٠٠م.

٤٤ ـ عبد الرحمن العيسوي، مناهج البحث العلمي، دار الراتب الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٧م.

٤٥ ـ عبد الله شبر، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٦ ـ عبد الهادي الفضلي، أصول البحث العلمي، الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية، بيروت، دار المؤرخ العربي، ١٩٩٢م.

٤٧ ـ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، مجموعة مصادر، دار إحياء التراث، (لا ـ ت).

٤٨ ـ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٩١م.

٤٩ ـ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧م.

٥٠ ـ الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، تحقيق الأعلمي، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٦هـ.

٥١ ـ الغديري، عبدالله عيسى ابراهيم، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٢ ـ القرطبي، أبي عبدالله بن أحمد الانصاري، الجامع لاحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥م.
٥٣ ـ القمي، ابن الحسن على بن إبراهيم، تفسير القرآن، مؤسسة الكتاب، ١٤٠٤هـ.
٥٤ ـ القمي، ميرزا أبو القاسم، قوانين الاصول، قم، طبعة حجرية، ١٢٣١هـ.
٥٥ ـ الكراجكي، أبو الفتح بن علي، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، قم، ١٤١٠هـ.
٥٦ ـ الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، مطبعة الحيدري، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨هـ.
٥٧ ـ ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم الطبيعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ١٩٨٠م.
٥٨ ـ محمد الريشهري، ميزان الحكمة، دار الحديث، قم، ١٩٩٤م.
٥٩ ـ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٦م.
٦٠ ـ محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
٦١ ـ محمد جواد مغنية، فلسفة الأخلاق في الاسلام، بيروت، دار الجواد، ١٩٩٢م.
٦٢ ـ محمد عبده، شرح نهج البلاغة، مطبعة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.
٦٣ ـ محمد عمر، خارطة المفاهيم القرآنية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩م.
٦٤ ـ محي الدين النووي، المجموع في شرح المهذب، دار الفكر، بيروت، (لا ـ ت).
٦٥ ـ مرتضى مطهري، التربية والتعليم في الإسلام، المنامة، مكتبة فخراوي، ١٩٩٣م.
٦٦ ـ مرتضى مطهري، الكون والتوحيد، دار الامير، بيروت، ١٩٩٣م.
٦٧ ـ مرتضى مطهري، مفاهيم إسلامية، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٨م.
٦٨ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف حسن عطية، محمد شوقي أمين، مصر، (لا ـ ت).
٦٩ ـ المفيد محمد بن نعمان، تصحيح اعتقادات الإمامية، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٧٠ـ مكارم الشيرازي، نفحات القرآن، مدرسة الإمام علي بن ابي طالب ، قم، ١٤٢٦ هـ.

٧١ـ منير بعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

٧٢ ـ مهدي الآصفي، الإمام الحسين وعاشوراء، المجمع العالمي لأهل البيت ، ١٤٢٧هـ.

٧٣ ـ مولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، طهران، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٦هـ.

٧٤ ـ الميرزا محمد المشهدي، تفسير كنز الدقائق، تحقيق دركاهي، دار الغدير، قم، ٢٠٠٣م.

٧٥ ـ نعمان التميمي المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق أصغر فيضي، دار المعارف، ١٩٦٣م.

٧٦ ـ النيسابوري، محمد بن الفتال، روضة الواعظين، تحقيق حسن الخرسان، إيران، منشورات الرضا، (لا ـ ت)،

٧٧ ـ هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م.

٧٨ ـ اليزدي، محمد تقي المصباح، إلسير الى اللّه، ترجمة الخاقاني، دار الولاء، بيروت، ٢٠٠٨م.

٧٩ ـ اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٩م.

الفهرس

الإهداء ٥
مقدّمة البحث ٧
مسوّغات البحث ١٣
إشكالية البحث ١٧
منهج البحث ٢١

الباب الأول: القلب والعقل في القرآن **٢٩**
تمهيد الباب ٣١
الفصل الأول: القلب في اللغة **٣٥**
الفصل الثاني: القلب في الاصطلاح الشرعي **٤٣**
الفصل الثالث: القلب الروحاني والقلب الجسماني **٤٩**
الفصل الرابع: القلب والفؤاد والصدر **٧١**
الفصل الثاني: أنواع القلوب في القرآن **٩٧**
تمهيد الباب ٩٧

الباب الثاني: القلب المريض في القرآن **١٠٥**
أولاً: صفات القلب المريض ١٠٧
ثانياً: أفعال القلوب وحجب الذنوب ١٢٤
الفصل الثاني: القلب الكافر (الميت) في القرآن الكريم **١٤٥**
الفصل الثالث: القلب السليم في القرآن الكريم **١٧١**
خاتمة: القلوب بين عالم الأمر وعالم الخلق **١٩٣**
المصادر والمراجع **٢٠١**